

وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام
وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون (19) وشروه بثمن بخس
دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين (20)

يوسف الآية 20 ما جرى على يوسف في الجب بعد الفراغ من ذكر
ما وقع بين إخوته وبين أبيه والتعبير بالمجيء ليس بالنسبة إلى
مكانهم فإن كنعان ليس بالجانب المصري من مدين بل إلى مكان
يوسف وفي إثارة على المرور أو الإتيان أو نحوهما إيماء إلى كونه
عليه السلام في الكرامة والزلفى عند مليك مقتدر والظاهر أن
الجب كان في الأمم المثناة فإن المتبادر من إسناد المجيء إلى
السيارة مطلقا في قوله عز وجل وجاءت
سيارة أي رفقة تسير من جهة مدين إلى مصر وقوعه باعتبار
سيرهم المعتاد وهو الذي يقتضيه قوله تعالى فيما سلف يلتقطه
بعض السيارة وقد قيل إنه كان في قفرة بعيدة من العمران لم
تكن إلا للرعاة فأخطئوا الطريق فنزلوا قريبا منه وقيل كان مأوه
ملحا فعذب حين ألقى فيه عليه السلام
فأرسلوا واردهم الذي يرد الماء ويستقي لهم وكان ذلك مالك بن
ذعر الخزاعي وإنما لم يذكر منتهى الإرسال كما لم يذكر منتهى
المجيء أعني الجب للإيدان بأن ذلك معهود لا يضرب عنه الذكر
صفحا

فأدلى دلوه أي أرسلها إلى الجب والحذف لما عرفته فتدلى بها
يوسف فخرج

قال استئناف مبني على سؤال يقتضيه الحال
يا بشرى هذا غلام كأنه نادى البشرى وقال تعالى فهذا أوانك حيث
فاز بنعمة باردة وأي نعمة مكان ما يوجد مباحا من الماء وقيل هو
اسم صاحب له ناداه ليعينه على إخراجه وقرأ غير الكوفيين يا
بشرى وأمال فتحة الراء حمزة والكسائي وقرأ ورش بين اللفظين
وقرىء يا بشرى بالإدغام وهي لغة وبشرى على قصد الوقف
وأسروه أي أخفاه الوارد وأصحابه عن بقية الرفقة وقيل أخفوا
أمره ووجدانهم له في الجب وقالوا لهم دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه
لهم بمصر وقيل الضمير لأخوة يوسف وذلك أن يهوذا كان يأتيه كل
يوم بطعام فاتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر إخوته فاتوا الرفقة

وقالوا هذا غلامنا أبق فاشتروه منهم وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ولا يخفلا ما فيه من البعد
بضاعة نصب على الحالية أي أخفوه حال كونه بضاعة أي متاعا للتجارة فإنها قطعة من المال بضعت عنه أي قطعت للتجارة والله عليم بما يعملون وعيد لهم على ما صنعوا من جعلهم مثل يوسف وهو عرضة للإبتذال بالبيع والشراء وما دبروا في ذلك من الحيل
وشروه أي باعوه والضمير للوارد وأصحابه
بثمان بخس زيف ناقص العيار
دراهم بدل من ثمن أي لا دنانير
معدودة أي غير موزونة فهو بيان لقلته ونقصانه مقدارا بعد بيان نقصانه في نفسه إذ المعتاد فيما لا يبلغ أربعين العد دون الوزن فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها كانت عشرين درهما وعن السدي رضي الله عنه أنها كانت اثنين وعشرين درهما وكانوا أي البائعون
فيه في يوسف

من الزاهدين من الذين لا يرغبون فيما بأيديهم فلذلك باعوه بما ذكر من الثمن البخس وسبب ذلك أنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به أو غير واثق بأمره يخاف أن يظهر له مستحق فينتزعه منه فيبيعه من أول مساوم بأوكس ثمن ويجوز أن يكون معنى شروه اشتروه من إخوته على ما حكى وهم غير راغبين في شراه خشية ذهاب ما لهم لما طن في آذانهم من الإباق والعدول عن صيغة الإفتعال المنبئة عن الإتحاذ لما مر من أن أخذهم إنما كان بطريق البضاعة دوت الإجتباء والإقتناء وفيه متعلق بالزاهدين إن جعل اللام للتعريف

وقال الذي اشتراه من مصر لامراته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون (21)

يوسف الآية 21 وبيان لما زهدوا فيه إن جعلت موصولة كأنه قيل في أي شيء زهدوا فقيل زهدوا فيه لأن ما يتعلق بالصلة لا يتقدم

على الموصول

وقال الذي اشتراه من مصر وهو العزيز الذي كان على خزائنه
وسمه قطفير أو اطفير وبيان كونه من مصر لتربية ما يتفرع عليه
من الأمور مع الإشعار بكونه غير من اشتراه من الملتقطين بما ذكر
من الثمن البخس وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد العمليقي
ومات في حياة يوسف عليه السلام بعد أن أمن به فملك بعده
قابوس بن مصعب فدعاه إلى الإسلام فأبى وقيل كان الملك في
أيامه فرعون موسى عليه السلام عاش أربعمئة سنة لقوله عز
وجل ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وقيل فرعون موسى من
أولاد فرعون يوسف والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء
واختلف في مقدار ما اشتراه به العزيز فقيل بعشرين ديناراً
وزوجي نعل وثوبين أبيضين وقيل أدخلوه في السوق يعرضونه
فترافعوا في ثمن حتى بلغ ثمنه وزنه مسكاً ووزنه ورقاً ووزنه
حريراً فاشتراه قطفير بذلك المبلغ وكان سنه إذ ذاك سبع عشرة
سنة وأقام في منزله مع ما مر عليه من مدة لبثه في السجن ثلاث
عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله العلم
والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين
سنة

لامراته راعيل أو زليخا وقيل اسمها هو الأول والثاني لقبها واللام
متعلقة بقال لا باشتراه

أكرمي مثواه اجعلي محل إقامته كريماً مرضياً والمعنى أحسن
تعهد

عسى أن ينفعنا في ضياعنا وأموالنا ونستظهر به في مصالحنا
أو نتخذه ولداً أي نتبناه وكان ذلك لما تفرس فيه من مخايل الرشد
والنجابة ولذلك قيل أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر وابنة شعيب
التي قالت يا أبت استأجره وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله
عنهما

وكذلك نصب على المصدرية وذلك إشارة إلى ما يفهم من كلام
العزيز وما فيه من معنى البعد لتفخيمه أي مثل ذلك التمكين البديع
مكننا ليوسف في الأرض أي جعلنا له فيها مكاناً يقال مكنه فيه أي
أثبته فيه ويمكن له فيه أي جعل له فيه مكاناً ولتقاربهما وتلازمهما
يستعمل كل منهما في محل الآخر قال عز وجل وكم أهلكنا من
قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم أي ما لم
نمكنكم فيها أو مكننا لهم في الأرض الخ والمعنى كما جعلنا له مثوى

كريما في منزل العزيز أو مكانا عليا في قلبه حتى أمر امرأته دون سائر حواشيه بإكرام مثواه جعلنا له مكانة رفيعة في أرض مصر ولعله عبارة عن جعله وجيها بين أهلها ومحبا في قلوبهم كافة كما في قلب العزيز لأنه الذي يؤدي إلى الغاية المذكورة في قوله تعالى ولنعلمه من تأويل الأحاديث أي نوقفه لتعبير بعض المنامات التي عمدتها رؤيا الملك وصاحبي السجن لقوله تعالى ذلكما مما علمني ربي سواء جعلناه معطوفا على غاية مقدرة ينساق إليها الكلام ويستدعيها النظام كأنه قيل ومثل ذلك التمكين مكننا ليوسف في الأرض وجعلنا قلوب

ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين (22)

يوسف الآية 22 أهلها كافة محال محبته ليترتب عليه ما ترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز ولنعلمه تأويل الأحاديث وهو تأويل الرؤيا المذكورة فيؤدي ذلك إلى الرياسة العظمى ولعل ترك المعطوف عليه للإشعار بعدم كونه مرادا بالذات أو جعلناه علة لمعلل محذوف كأنه قيل ولهذا الحكمة البالغة فعلنا ذلك التمكين دون غيرها مما ليس له عاقبة حميدة هذا ولا يخفى عليك أن الذي عليه تدور هذه الأمور إنما هو التمكين في جانب العزيز وأما التمكين في جانب الناس كافة فتأديته إلى ذلك إنما هي باعتبار اشتماله على ذلك التمكين فإذن الحق أن يكون ذلك إشارة إلى مصدر قوله تعالى مكننا ليوسف على أن يكون هو عبارة عن التمكين في قلب العزيز أو في منزله وكون ذلك تمكينا في الأرض بملابسة أنه عزيز فيها لا عن تمكين آخر يشبهه به كما مر في قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا من أن ذلك إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعده لا إلى جعل آخر يقصد تشبيه هذا الجعل به فالكاف مقحم للدلالة على فخامة شأن المشار إليه إقحاما لا يكاد يترك في لغة العرب ولا في غيرها ومن ذلك قولهم مثلك لا يبخل وهكذا ينبغي أن يحقق المقام وأما التمكين بمعنى جعله ملكا يتصرف في أرض مصر بالأمر والنهي فهو من آثار ذلك التعليم ونتأجه المتفرعة عليه كما عرفت لا من مبادئه المؤدية إليه فلا سبيل إلى جعله غاية له ولم يعهد منه عليه السلام في تضاعيف

قضاياه العمل بموجب المنامات المنبهة على الحوادث قبل وقوعها
عهدا مصححا لجعله غاية لولايته وما وقع من التدارك في أمر
السنين فإنما هو عمل بموجب الرؤيا السابقة المعهودة اللهم إلا أن
يراد بتعليم تأويل الأحاديث ما سبق من تفهيم غوامض أسرار الكتب
الإلهية ودقائق سنن الأنبياء عليهم السلام فيكون المعنى حينئذ مكننا
له في أرض مصر ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه معاني كتب الله
تعالى وأحكامها ودقائق سنن الأنبياء عليهم السلام فيقضي بها فيما
بين أهلها والتعليم الإجمالي لتلك المعاني والأحكام وإن كان غير
متأخر عن تمكينه بذلك المعنى إلا أن تعليم كل معنى شخصي يتفق
في ضمن الحوادث والإرشاد إلى الحق في كل نازلة من النوازل
متأخر عن ذلك صالح لأن يكون غاية له
والله غالب على أمره لا يستعصى عليه أمر ولا يمانعه شيء بل
إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فيدخل في ذلك
شئونه المتعلقة بيوسف دخولا أوليا أو متول على أمر يوسف لا يكله
إلى غيره وقد أريد به من الفتنة ما أريد مرة غب مرة فلم يكن إلا
ما أراد الله له من العاقبة الحميدة
ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الأمر كذلك فيأتون ويذرون زعما
منهم أن لهم من الأمر شيئا وأني لهم ذلك وإن الأمر كله لله عز
وجل أو لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا فضله
ولما بلغ أشده أي منتهى اشتداد جسمه وقوته وهو سن الوقوف ما
بين الثلاثين إلى الأربعين وقيل سن الشباب ومبدأ بلوغ الحلم
والأول هو الأظهر لقوله تعالى
أتيناه حكما حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل أو حكما بين الناس
وفقها أو نبوة
وعلما أي تفقها في الدين وتنكيرهما للتفخيم أي حكما وعلما لا
يكتنه كنههما ولا يقادر قدرهما فهما ما أتاه الله تعالى عند تكامل
قواه سواء كانا عبارة عن النبوة والحكم بين الناس أو غيرهما كيف
لا وقد جعل إيتاؤهما

وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك
قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون (23)

يوسف الآية 23 جزاء لعمله عليه السلام حيث قال
وكذلك أي مثل ذلك الجزاء العجيب
نجزي المحسنين أي كل من يحسن في عمله فيجب أن يكون ذلك
بعد انقضاء أعماله الحسنة التي من جملتها معاناة الأحران
والشدائد وقد فسر العلم بعلم تأويل الأحاديث ولا صحة له إلا أن
يخص بعلم تأويل رؤيا الملك فإن ذلك حيث كان عند تناهي أيام
البلاء صح أن يعد إيتاؤه من جملة الجزاء وأما رؤيا صاحبي السجن
فقد لبث عليه السلام بعد تعبيرها في السجن بضع سنين وفي
تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعار بعلية الإحسان له وتنبيه
على أنه سبحانه إنما آتاه ما آتاه لكونه محسنا من أعماله متقيا في
عنفوان أمره هل جزاء الإحسان إلا الإحسان
وراودته التي هو في بيتها رجوع إلى شرح ما جرى عليه في منزل
العزیز بعدما أمر امرأته بإكرام مثواه وقوله تعالى وكذلك مكننا
ليوسف إلى هنا اعتراض جيء به أنموذجا للقصة ليعلم السامع من
أول الأمر أن ما لقيه عليه السلام من الفتن التي ستحكي بتفاصيلها
له غاية جميلة وعاقبة حميدة وأنه عليه السلام محسن في جميع
أعماله لم يصدر عنه في حالتي السراء والضراء ما يخل بنزاهته ولا
يخفى أن مدار حسن التخليص إلى هذا الإعتراض قبل تمام الآية
الكريمة إنما هو التمكين البالغ المفهوم من كلام العزيز فإدراج
الإنجاء السابق تحت الإشارة بذلك في قوله تعالى وكذلك مكننا كما
فعله الجمهور ناء من التقريب فتأمل والمرادة المطالبة من راد
يرود إذا جاء وذهب لطلب شيء ومنه الرائد لطلب الماء والكلأ
وهي مفاعلة من واحد نحو مطالبة الدائن ومماثلة المديون
ومداواة الطبيب ونظائرها مما يكون من أحد الجانبين الفعل ومن
الآخر سببه فإن هذه الأفعال وإن كانت صادرة عن أحد الجانبين
لكن لما كانت أسبابها صادرة عن الجانب الآخر جعلت كأنها صادرة
عنهما وهذا باب لطيف المسلك مبني على اعتبار دقيق تحقيقه أن
سبب الشيء يقام مقامه ويطلق عليه اسمه كما في قولهم كما
تدين تدان أي كما تجزي تجزي فإن فعل البادي وإن لم يكن جزاء
لكنه لكونه سببا للجزاء أطلق عليه اسمه وكذلك إرادة القيام إلى
الصلاة وإرادة قراءة القرآن حيث كانتا سببا للقيام والقراءة عبر
عنهما بهما فقيل إذا قمتم إلى الصلاة فإذا قرأت القرآن وهذه
قاعدة مطردة مستمرة ولما كانت أسباب الأفعال المذكورة فيما
نحن فيه صادرة عن الجانب المقابل لجانب فاعلها فإن مطالبة

الدائن للمماطلة التي هي من جانب الغريم وهي منه للمطالبة التي هي من جانب الدائن وكذا مداواة الطبيب للمرض الذي هو من جانب المريض وكذلك مراودتها فيما نحن فيه لجمال يوسف عليه السلام نزل صدورها عن محالها بمنزلة صدور مسباتهما التي هي تلك الأفعال فبنى الصيغة على ذلك وروعي جانب الحقيقة بأن أسند الفعل إلى الفاعل وأوقع على صاحب السبب فتأمل ويجوز أن يراد بصيغة المغالبة مجرد المبالغة وقيل الصيغة على بابها بمعنى أنها طلبت منه الفعل وهو منها الترك ويجوز أن يكون من الرويد وهو الرفق والتحمل وتعديتها بعن لتضمينها معنى المخادعة فالمعنى خادعته
عن نفسه أي فعلت

ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه
السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين (24)

يوسف الآية 24 ما يفعل المخادع لصاحبه عن شيء لا يريد إخراجه من يده وهو يحتال أن يأخذه منه وهي عبارة عن التمثل في مواقفته إياها والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السر أو للإستهجان بذكره وإيراد الموصول لتقرير المراودة فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك قيل لواحدة ما حملك على ما أنت عليه مما لا خير فيه قالت قرب الوساد وطول السواد وإظهار كمال نزاهته عليه السلام فإن عدم ميله إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصاءه عليها مع كونه تحت ملكتها يناهز بكونه عليه السلام في أعلى معارج العفة والنزاهة
وغلقت الأبواب قيل كانت سبعة ولذلك جاء الفعل بصيغة التفعيل دون الإفعال وقيل للمبالغة في الإيثاق والإحكام
وقالت هيت لك قرىء بفتح الهاء وكسرهما مع فتح التاء وبنائه كبناء ابن وعيط وهيت كجبر وهيت كحيث اسم فعل معناه أقبل وبادر واللام للبيان أي لك أقول هذا كما في هلم لك وقرىء هئت لك على صيغة الفعل بمعنى تهيات يقال هاء يهيهء كجاء يجيء إذا تهياً وهيتت لك واللام صلة للفعل
قال معاذ الله أي أعوذ بالله معاذاً مما تدعيني إليه وهذا اجتناب

منه على أتم الوجوه وإشارة إلى التعليل بأنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه وما ذاك إلا لأنه عليه السلام قد شاهده بما أراه الله تعالى من البرهان النير على ما هو عليه في حد ذاته من غاية القبح ونهاية السوء وقوله عز وجل إنه ربي أحسن مثوأي تعليلا للإمتناع ببعض الأسباب الخارجية مما عسى يكون مؤثرا عندها وداعيا لها إلى اعتباره بعد التنبيه على سببه الذاتي الذي لا تكاد تقبله لما سولته لها نفسها والضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصدير الجملة به الإيدان بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره في الذهن فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن فكانه قيل إن الشأن الخطير هذا وهو ربي أي سيدي العزيز أحسن مثوأي أي أحسن تعهدي حيث أمرك بإكرامي فكيف يمكن أن أسوء إليه بالخيانة في حرمه وفيه إرشاد لها إلى رعاية حق العزيز بالطف وجه وقيل الضمير لله عز وجل وربّي خبر إن وأحسن مثوأي خبر ثان أو هو الخبر والأول بدل من الضمير والمعنى أن الحال هكذا فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة وفيه تحذير لها من عقاب الله عز وجل وعلى التقديرين ففي الإقتصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض لاقتضائها الإمتناع عما دعت إليه إيدان بأن هذه المرتبة من البيان كافية في الدلالة على استحالته وكونه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلا وقوله تعالى

إنه لا يفلح الظالمون تعليل للإمتناع المذكور غب تعليل والفلاح الظفر وقيل البقاء في الخير ومعنى أفلح دخل فيه كأصبح وأخواته والمراد بالظالمين كل من ظلم كائنا من كان فيدخل في ذلك المجازون للإحسان بالإساءة والعصاة لأمر الله تعالى دخولا أوليا وقيل الزناة لأنهم ظالمون لأنفسهم وللمزني بأهله ولقد همت به بمخالطته إذ الهم لا يتعلق

ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين (24)

بالأعيان أي قصدتها وعزمت عليها عزمًا جازمًا لا يلوبها عنه صارف
بعد ما باشرت مباديها وفعلت ما فعلت من المراودة وتغليق
الأبواب ودعوته عليه السلام إلى نفسها بقولها هيت لك ولعلها
قصدت هنالك لأفعال آخر من بسط يدها إليه وقصد المعانقة وغير
ذلك مما يضطره عليه السلام إلى الهرب نحو الباب والتأكيد لدفع
ما عسى يتوهم من احتمال إقلاعها عما كانت عليه بما في مقالته
عليه السلام من الزواجر
وهم بها بمخالطتها أي مال إليها بمقتضى الطبيعة البشرية وشهوة
الشباب وقرمه ميلا جبليا لا يكاد يدخل تحت التكليف لا أنه قصدها
قصدا اختياريا ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه المنبىء عن
كمال كراهيته له ونفرته عنه وحكمه بعدم إفلاح الظالمين وهل هو
إلا تسجيل باستحالة صدور الهم منه عليه السلام تسجيلا محكما
وإنما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه في صحبة همها في الذكر
بطريق المشاكلة لا لشبهه به كما قيل ولقد أشير إلى تباينهما حيث
لم يلزا في قرن واحد من التعبير بأن قيل ولقد هما بالمخالطة أو
هم كل منهما بالآخر وصدر الأول بما يقرر وجوده من التوكيد
القسمي وعقب الثاني بما يعفو أثره من قوله عز وجل
لولا أن رأى برهان ربه أي حجته الباهرة الدالة على كمال قبح
الزنى وسوء سبيله والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها ومشاهدته لها
مشاهدة واصله إلى مرتبة عين اليقين الذي تنجلي هناك حقائق
الأشياء بصورها الحقيقية وتنخلع عن صورها المستعارة التي بها
تظهر في هذه النشأة على ما نطق به قوله صلى الله عليه وسلم
حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وكأنه عليه السلام قد
شاهد الزنى بموجب ذلك البرهان النير على ما هو عليه في حد ذاته
أقبح ما يكون وأوجب ما يجب أن يحذر منه ولذلك فعل ما فعل من
الإستعصام والحكم بعدم إفلاح من يرتكبه وجواب لولا محذوف يدل
عليه الكلام أي لولا مشاهدته برهان ربه في شأن الزنى لجرى على
موجب ميله الجبلى ولكنه حيث كان مشاهدا له من قبل استمر
على ما هو عليه من قضية البرهان وفائدة هذه الشرطية بيان أن
امتناعه عليه السلام لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة بل
لمحض العفة والنزاهة مع وفور الدواعي الداخلية وترتب المقدمات
الخارجية الموجبة لظهور الأحكام الطبيعية هذا وقد نص أئمة
الصناعة على أن لولا في أمثال هذه المواقع جار من حيث المعنى
لا من حيث الصيغة مجرى التقييد للحكم المطلق كما في مثل قوله

تعالى إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها فلا يتحقق هناك هم أصلا وقد جوز أن يكون وهم بها جواب لولا جريا على قاعدة الكوفيين في جواز التقديم فالهم حينئذ على معناه الحقيقي فالمعنى لولا أنه قد شاهد براهان ربه لهم بها كما همت به ولكن حيث انتفى عدم المشاهدة بدليل استعصامه وما يتفرع عليه انتفى الهم رأسا هذا وقد فسر همه عليه السلام بأنه عليه السلام حل الهيمان وجلس مجلس الختان وبأنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها ورؤيته للبرهان بأنه سمع صوتا إياك وإياها فلم يكتري ثم وثم إلى أن تمثل له يعقوب عليه السلام عاضا على أناملته وقيل ضرب على صدره فخرجت شهوته من أنامله وقيل بدت كف فيما بينهما ليس فيها عَضد ولا معصم مكتوب فيها وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين فلم ينصرف ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا فلم ينته ثم رأى فيها واتفقوا يوما ترجعون فيه إلى الله فلم ينجع فقال الله عز وجل لجبريل أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل عليه السلام وهو يقول يا يوسف أتعمل عمل

واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم (25)

يوسف الآية 25 السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء وقيل رأى تمثال العزيز وقيل وقيل إن كل ذلك إلا خرافات وأباطيل تمجها الآذان وتردها العقول والأذهان ويل لمن لاکها ولفقها أو سمعها وصدقها
كذلك الكاف منصوب المحل وذلك إشارة إلى الإراءة المدلول عليها بقوله تعالى لولا أن رأى برهان ربه أي مثل ذلك التبصير والتعريف عرفناه برهاننا فيما قبل أو إلى التثبيت اللازم له أي مثل ذلك التثبيت تثبتاه
لنصرف عنه السوء على الإطلاق فيدخل فيه خيانة السيد دخولا أوليا
والفحشاء والزنى لأنه مفرط في القبح وفيه آية بينة وحجة قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه هم بالمعصية ولا توجه إليها قط

وإلا لقبل لنصرفه عن السوء والفحشاء وإنما توجه إليه ذلك من خارج فصرفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة والعصمة فتأمل وقرىء ليصرف على إسناد الصرف إلى ضمير الرب إنه من عبادنا المخلصين تعليلا لما سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق والمخلصون هم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته بأن عصمهم عما هو قاذح فيها وقرىء على صيغة الفاعل وهم الذين أخلصوا دينهم لله سبحانه وعلى كلا المعنيين فهو منتظم في سلكهم داخل في زميرتهم من أول أمره بقضية الجملة الإسمية لا أن ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك فانحسم مادة احتمال صدور الهم بالسوء منه عليه السلام بالكلية

واستبقا الباب متصل بقوله ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وقوله كذلك إلى آخره اعتراض جيء به بين المعطوفين تقريرا لنزاهته عليه السلام كقوله تعالى وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض والمعنى لقد همت به وأبى هو واستبقا الباب أي تسابقا إلى الباب البراني الذي هو المخلص ولذلك وحده بعد الجمع فيما سلف وحذف حرف الجر وأوصل الفعل إلى المجرور نحو وإذا كالوهم أو ضمن الإستباق معنى الإبتداء وإسناد السبق في ضمن الإستباق إليها مع أن مرادها مجرد منع يوسف وذا لا يوجب الإنتهاء إلى الباب لأنها لما رآته يسرع إلى الباب ليتخلص منها أسرع هي أيضا لتسبقه إليه وتمنعه عن الفتح والخروج أو عبر عن إسراعها أثره بذلك مبالغة

وقدت قميصه من دبر اجتذبتة من ورائه فانشق طولاً وهو القدر كما أن الشق عرضاً هو القط وقد قيل في وصف على رضى الله عنه إنه كان إذا اعتلى قد وإذا اعترض قط وإسناد القدر إليها خاصة مع أن لقوة يوسف أيضا دخلا فيه إما لأنها الجزء الأخير للعلة التامة وإما للإيدان بمبالغتها في منعه عن الخروج وبذل مجهودها في ذلك لفوت المحبوب أو لخوف الإفتضاح

وألفيا سيدها أي صادفا زوجها وإذ لم يكن ملكه ليوسف عليه السلام صحيحا لم يقل سيدهما قيل ألفياه مقبلا وقيل كان جالسا مع ابن عم للمرأة

لدى الباب أي البراني كما مر روى كعب رضى الله عنه أنه لما هرب يوسف عليه السلام جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب

قالت استئناف مبنى على سؤال سائل يقول فماذا كان حين ألفيا

العزیز عند الباب فقيل قالت
ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً من الزنى ونحوه

قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه
قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين (26)

يوسف الآية 26

إلا أن يسجن أو عذاب أليم ما نفيه أي ليس جزاؤه إلا السجن أو
العذاب الأليم قيل المراد به الضرب بالسياط أو استفهامية أي أي
شيء جزاؤه غير ذاك أو ذلك ولقد أتت في تلك الحالة التي تدهش
فيها الفطن حيث شاهدها العزیز على تلك الهيئة المريبة بحيلة
جمعت فيها غرضيها وهما تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر الحال
واستئزال يوسف عن رأيه في استعصائه عليها وعدم مواتاته على
مرادها بالقاء الرعب في قلبه من مكرها طمعا في موافقته لها
كرها عند يأسها عن ذلك اختيارا كما قالت ولئن لم يفعل ما أمره
ليسجنن وليكونا من الصاغرين ثم إنها جعلت صدور الإرادة
المذكورة عن يوسف عليه السلام أمرا محققا مفروغا عنه غنيا عن
الإخبار بوقوعه وأن ما هي عليه من الأفاعيل لأجل تحقيق جزائها
فهي تريد إيقاعه حسما يقتضيه قانون الإيالة وفي إبهام المرید
تهويل لشأن الجزاء المذكور بكونه قانونا مطردا في حق كل أحد
كائنا من كان وفي ذكر نفسها بعنوان أهلية العزیز إعظام للخطب
وإغراء له على تحقيق ما تتوخاه بحكم الغضب والحمية
قال استئناف وجواب عما يقال فماذا قال يوسف حينئذ فقيل قال
هي راودتني عن نفس أي طالبتني للمواتاة لا أنني أردت بها سوءا
كما قالت وإنما قاله عليه السلام لتنزيه نفسه عما أسند إليه من
الخيانة وعدم معرفة حق السيد ودفع ما عرضته له من الأمرين
الأمرين وفي التعبير عنها بضمير الغيبة دون الخطاب أو اسم
الإشارة مراعاة لحسن الأدب مع الإيماء إلى الإعراض عنها
وشهد شاهد من أهلها قيل هو ابن عمها وقيل هو الذي كان جالسا
مع زوجها لدى الباب وقيل كان حكيما يرجع إليه الملك ويستشيره
وقد جوز أن يكون بعض أهلها قد بصر بها من حيث لا تشعر فأغضبه
الله تعالى ليوسف عليه السلام بالشهادة له والقيام بالحق وإنما

ألقي الله سبحانه الشهادة إلى من هو من أهلها ليكون أدل على نزاهته عليه السلام وأنفى للتهمة وقيل كان الشاهد ابن خال لها صبيبا في المهد أنطقه الله تعالى ببراءته وهو الأظهر فإنه روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى عليه السلام رواه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه وقال صحيح على شرط الشيخين وذكر كونه من أهلها لبيان الواقع إذ لا يختلف الحال في هذه الصورة بين كون الشاهد من أهلها أو من غيرهم إن كان قميصه قد من قبل أي إن علم أنه قد من قبل من قبل ونظيره إن أحسنت إلي فقد أحسنت إليك فيما قبل فإن معناه إن تعتد بإحسانك إلي فاعتد بإحساني السابق إليك فصدقت بتقدير قد لأنها تقرب الماضي إلى الحال أي فقد صدقت وكذا الحال في قوله فكذبت وهي وإن لم تصرح بأنه عليه السلام أراد بها سوءا إلا أن كلامها حيث كان واضح الدلالة عليه أسند إليها الصدق والكذب بذلك الإعتبار فإنهم كما يعرضان للكلام باعتبار منطوقه يعرضان له باعتبار ما يستلزمه وبذلك الإعتبار يعرضان للإنشاءات وهو من الكاذبين وهذه الشرطية حيث لا ملازمة

وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين (27) فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم (28)

يوسف الآية 27 28 عقلية ولا عادية بين مقدمها وتاليها ليست من الشهادة في شيء وإنما ذكرت توسيعا للدائرة وإرخاء للعنان إلى جانب المرأة بإجراء ما عسى يحتمله الحال في الجملة بأن يقع القد من قبل بمدافعتها له عليه السلام عن نفسها عند إرادته المخالطة والتكشف مجري الظاهر الغالب الوقوع تقريبا لما هو المقصود بإقامة للشهادة أعني مضمون الشرطية الثانية التي هي قوله عز وجل وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين إلى التسليم والقبول عند السامع لكونه أقرب إلى الوقوع وأدل على المطلوب وإن لم يكن بين طرفيها أيضا ملازمة وحكاية الشرطية بعد فعل

الشهادة لكونها من قبيل الأقوال أو بتقدير القول أي شهد قائلاً الخ وتسميتها شهادة مع أنه لا حكم فيها بالفعل بالصدق والكذب لتأديتها مؤداها بل لأنها شهادة على الحقيقة وحكم بصدقه وكذبها أما على تقدير كون الشاهد هو الصبي فظاهر إذ هو إخبار بهما من قبل علام الغيوب والتصوير بصورة الشرطية للإيذان بأن ذلك ظاهر من العلائم أيضاً وأما على تقدير كونه غيره فلأن الظاهر أن صورة الحال معلومة له على ما هي عليه إما مشاهدة أو إخباراً فهو متيقن بعدم مقدم الشرطية الأولى وبوجود مقدم الشرطية الثانية ومن ضرورته الجزم بانتفاء تالي الأولى وبوقوع تالي الثانية فإذن هو إخبار بكذبها وصدقه عليه السلام لكنه ساق شهادته مساقاً مأموناً من الجرح والظعن حيث صورها بصورة الشرطية المترددة ظاهراً بين نفعها ونفعه وأما حقيقة فلا تردد فيها قطعاً لأن الشرطية الأولى تعليق لصدقها بما يستحيل وجوده من قد القميص من قبل فيكون محالاً لا محالة ومن ضرورته تقرر كذبها والثانية تعليق لصدقها عليه السلام بأمر محقق الوجود وهو القدر من دبر فيكون محقق البتة وهذا كما قيل فيمن قال لامرأة زوجيني نفسك فقالت لي زوج فكذبها في ذلك فقالت إن لم يكن لي زوج فقد زوجتك نفسي فقبل الرجل فإذا لا زوج لها فهو نكاح إذ تعليق الشيء بأمر مقرر تنجير له وقرىء من قبل ومن دبر بالضم لأنهما قطعاً عن الإضافة كقبل وبعد وبالفتح كأنهما جعلاً علمين للجهتين فمنعاً الصرف للتأنيث والعلمية وقرىء بسكون العين فلما رأى قميصه قد من دبر كأنه لم يكن رأى ذلك بعد أو لم يتدبره فلما تنبه له وعلم حقيقة الحال قال إنه أي الأمر الذي وقع فيه التشاجر وهو عبارة عن إرادة السوء التي أسندت إلى يوسف وتدبير عقوبته بقولها ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلى آخره لكن لا من حيث صدور تلك الإرادة والإسناد عنها بل مع قطع النظر عن ذلك لئلا يخلو قوله تعالى من كيدكن أي من جنس حيلتكن ومكركن أيتها النساء لا من غيركن عن الإفادة وتدبير العقوبة وإن لم يمكن تجريده عن الإضافة إليها إلا أنها لما صورته بصورة الحق أفاد الحكم بكونه من كيدهن إفادة ظاهرة فتأمل وتعميم الخطاب للتنبية على أن ذلك خلق لهن عريق ... ولا تحسبا هنذا لها الغدر وحدها ... سجية نفس كل غانية هند ورجع الضمير إلى قولها ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً فقط عدول عن البحث عن أصل ما وقع فيه النزاع من أن

يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين (29) وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين (30)

يوسف الآية 29 30 إرادة السوء ممن هي إلى البحث عن شعبة من شعبه وجعل للسوء أو للأمر المعبر به عن طمعها في يوسف عليه السلام ياباه الخبر فإن الكيد يستدعي أن يعتبر مع ذلك هنات آخر من قبلها كما أشرنا إليه إن كيدكن عظيم فإنه أطلق وأعلق بالقلب وأشد تأثيرا في النفس وعن بعض العلماء إنني أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان فإنه تعالى يقول إن كيد الشيطان كان ضعيفا وقال للنساء إن كيدكن عظيم ولأن الشيطان يوسوس مسارقة وهن يواجهن به الرجال

يوسف حذف منه حرف النداء لقربه وكمال تفتنه للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحلّه أعرض عن هذا أي عن هذا الأمر وعن التحدث به واكتمه فقد ظهر صدقك ونزاهتك واستغفري أنت يا هذه لذنبك الذي صدر عنك وثبت عليك إنك كنت بسبب ذلك

من الخاطئين من جملة القوم المعتمدين للذنب أو من جنسهم يقال خطيء إذا أذنب عمدا وهو تعليل للأمر بالإستغفار والتذكير لتغليب الذكور على الإناث وكان العزيز رجلا حليما فاكتفى بهذا القدر من مؤاخذتها وقيل كان قليل الغيرة وقال نسوة أي جماعة من النساء وكن خمسا امرأة الساقى وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي كتأنيث اللمة وهي اسم لجماعة النساء والثبة وهي اسم لجماعة الرجال ولذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث في المدينة ظرف لقال أي أشعن الأمر في مصر أو صفة النسوة امرأة العزيز أي الملك يردن قطفير وإضافتهن لها إليه بذلك

العنوان دون أن يصرحن باسمها أو اسمه ليست لقصد المبالغة في إشاعة الخبر بحكم أن النفوس إلى سماع أخبار ذوي الأخطار أميل كما قيل إذ ليس مرادهن تفضيح العزيز بل هي لقصد الإشباع في لومها بقولهن

تراود فتاها أي تطالبه بمواقفته لها وتمحل في ذلك وتخادعه عن نفسه وقيل تطلب منه الفاحشة وإيثارهن لصيغة المضارع للدلالة على دوام المراودة والفتى من الناس الشباب وأصله فتى لقولهم فتيان والفتوة شاذة وجمعه فتية وفتيان ويستعار للمملوك وهو المراد ههنا وفي الحديث لا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي وتعبيرهن عن يوسف عليه السلام بذلك مضافا إليها لا إلى العزيز الذي لا تستلزم الإضافة إليه الهوان بل ربما يشعر بنوع عزة لإبانة ما بينهما من التباين البين الناشئ عن الملكية والمملوكية وكل ذلك لتربية ما مر من المبالغة والإشباع في اللوم فإن من لا زوج لها من النساء أو لها زوج دنيء قد تعذر في مراودة الأخدان لا سيما إذا كان فيهم علو الجناح وأما التي لها زوج وأي زوج عزيز مصر فمراودتها لغيره لا سيما لعبدها الذي لا كفاءة بينها وبينه أصلا وتماديها في ذلك غاية الغي ونهاية الضلال قد شغفها حبا أي شق حبه شغاف قلبها وهو حجابها أو جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب حتى وصل إلى فؤادها وقرىء شعفها بالعين من

فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم (31)

يوسف الآية 31 شعف البعير إذا هنأه فأحرقه بالقطران وعن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما الشغف الحب القاتل والشغف حب دون ذلك وكان الشعبي يقول الشغف حب والشغف جنون والجملة خبر ثان أو حال من فاعل تراود أو من مفعوله وأيما ما كان فهو تكرير للوم وتأکید للعذل ببيان اختلال أحوالها القلبية كأحوالها القلبية وجعلها تعليلا لدوام المراودة من حيث الإنية مصير إلى الإستدلال على الأجلى بالأخفى ومن حيث اللمية ميل إلى

تمهيد العذر من قبلها ولسن بذلك المقام وانتصاب حبا على التمييز
لنقله عن الفاعلية إذ الأصل قد شغفها حبه كما أشير إليه
إننا لنراها أي نعلمها علما متاخما للمشاهدة والعيان فيما صنعت من
المراودة والمحبة المفرطة مستقرة
في ضلال عن طريق الرشد والصواب أو عن سنن العقل
مبين واضح لا يخفى كونه ضلالا على أحد أو مظهر لأمرها بين
الناس فالجملة مقررة لمضمون الجملتين السابقتين المسوقتين
للوم والتشنيع وتسجيل عليها بأنها في أمرها على خطأ عظيم وإنما
لم يقلن إنها لفي ضلال مبين إشعارا بأن ذلك الحكم غير صادر
عنهن مجازفة بل عن علم ورأى مع التلويح بأنهن متنزهات عن
أمثال ما هي عليه

فلما سمعت بمكرهن باغتيابهن وسوء قالهن وقولهن امرأة العزيز
عشقت عبدها الكنعاني وهو مقتها وتسميته مكررا لكونه خفية منها
كمكر الماكر وإن كان ظاهرا لغيرها وقيل استكتمتهن سرها
فأفشينه عليها وقيل إنما قلن ذلك لتريهن يوسف عليه السلام
أرسلت إليهن تدعوهن قيل دعت أربعين امرأة منهن الخمس
المذكورات

وأعدت أي أحضرت وهيأت
لهن متكأ أي ما يتكئن عليه من النمارق والوسائد أو رتبت لهن
مجلس طعام وشراب لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب
والحديث كعادة المترفين ولذلك نهى الرجل أن يأكل متكئا وقيل
متكأ طعاما من قولهم اتكأنا عند فلان أي طعمنا قال جميل ...
... فظللنا بنعمة واتكأنا ... وشربنا الحلال من قلله
وعن مجاهد متكأ طعاما يحز حزا كأن المعنى يعتمد بالسكين عند
القطع لأن القاطع يتكئ على المقطوع بالسكين وقرىء بغير همز
وقرىء بالمد بإشباع حركة الكاف كمنتزح في منتزح وبنباع في ينبع
وقرأ متكأ وهو الأترج وأنشدوا ... وأهدت متكة لبني أبيها ... تخب
... بها العثمثة الوقاح

أو ما يقطع من متك الشيء إذا بتكه ومتكأ من تكى إذا اتكى
وأنت كل واحدة منهن سكيننا لتستعمله في قطع ما يعهد قطعه مما
قدم بين أيديهن وقرب إليهن من اللحوم والفواكه ونحوها وهن
متكئات وغرضها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهن
وقالت ليوسف وهن مشغولات بمعالجة السكاكين وإعمالها فيما
بأيديهن من الفواكه وأضرابها والعطف بالواو ربما يشير إلى أن

قولها
اخرج عليهن أي ابرز لهن لم يكن عقيب ترتيب أمورهن ليتم غرضها
من استغفالهن
فلما رأينه عطف على مقدر يستدعيه الأمر بالخروج وينسحب عليه
الكلام أي فخرج عليهن فرأينه

قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم
ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونن من الصاغرین (32)

يوسف الآية 32 وإنما حذف تحقيقا لمفاجأة رؤيتهن كأنها تفوت عند
ذكر خروجه عليهن كما حذف لتحقيق السرعة في قوله عز وجل
فلما رآه مستقرا عنده بعد قوله أنا أتيك به قبل أن يرتد إليك
طرفك وفيه إيذان بسرعة امتثاله عليه السلام بأمرها فيما لا يشاهد
مضرته من الأفاعيل

أكبرنه عظمه وهين حسنه الفائق وجماله الرائع الرائق فإن فضل
جماله على جمال كل جميل كان كفضل القمر ليلة البدر على سائر
الكواكب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال رأيت يوسف ليلة
المعراج كالقمر ليلة البدر وقيل كان يرى تلالؤ وجهه على الجدران
كما يرى نور الشمس على الماء وقيل معنى أكبرن حزن والهاء
للسكت أو ضمير راجع إلى يوسف عليه السلام على حذف اللام أي
حزن له من شدة الشبق كما قال المتنبيء ... خف الله واستر ذا
... الجمال برقع ... فإن لحت حاضت في الخدور العوانق
وقطعن أيديهن أي جرحتها بما في أيديهن من السكاكين لفرط
دهشتهم وخروج حركات جوارحهم عن منهاج الإختيار والإعتياد حتى
لم يعلمن ما فعلن وفي التعبير عن الجرح بالقطع ما لا يخفى من
الدلالة على كثرة جرحهن ومع ذلك لم يباليين بذلك ولم يشعرن به
وقلن حاش لله تنزيها له سبحانه عن صفات النقص والعجز وتعجبا
من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع وأصله حاشا كما قرأه أبو
عمرو في الدرج فحذفت ألفه الأخيرة تخفيفا وهو حرف جر يفيد
معنى التنزيه في باب الإستثناء فلا يستثنى به إلا ما يكون موجبا
للتنزيه فوضع موضعه فمعنى حاشا الله تنزيه الله وبراءة الله وهي
قراءة ابن مسعود رضي الله عنه واللام لبيان المنزه والمبرأ كما

في سقيا لك والدليل على وضعه موضع المصدر قراءة أبي السمال
حاشا بالتنوين وقراءة أبي عمرو بحذف الألف الأخيرة وقراءة
الأعمش بحذف الأولى فإن التصرف من خصائص الإسم فيدل على
تنزيله منزلته وعدم التنوين لمراعاة أصله كما في قولك جلست
من عن يمينه وقوله غدت من عليه منقلب الألف إلى الياء مع
الضمير وقرىء حاش لله بسكون الشين اتباعا للفتحة الألف في
الإسقاط وحاش الإله وقيل حاشا فاعل من الحشا الذي هو الناحية
وفاعله ضمير يوسف أي صار في ناحية من أن يقارف ما رمته به
لله أي لطاعته أو لمكانه أو جانب المعصية لأجل الله
ما هذا بشرا على أعمال ما بمعنى ليس وهي لغة أهل الحجاز
لمشاركتهما في نفي الحال وقرىء بشر على لغة تميم وبشرى أي
بعبد مشتري لئيم نفين عنه البشرية لما شاهدن فيه من الجمال
العبقري الذي لم يعهد مثاله في البشر وقصرنه على الملكية
بقولهن

إن هذا إلا ملك كريم بناء على ما ركز في العقول من أن لا حي
أحسن من الملك كما ركب فيها أن لا أقيح من الشيطان ولذلك لا
يزال يشبه بهما كل متناه في الحسن والقبح وغرضهن وصفه
بأقصى مراتب الحسن والجمال
قالت فذلكن الفاء فصيحة والخطاب للنسوة والإشارة إلى يوسف
بالعنوان الذي وصفنه به الآن من الخروج في الحسن والجمال عن
المراتب البشرية والإقتصار على الملكية فاسم الإشارة مبتدأ
والموصول

قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني
كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين (33)

يوسف الآية 33 خبره والمعنى إن كان الأمر كما قلت فذلكن
الملك الكريم النائي من المراتب البشرية هو
الذي لمتني فيه أي غيرتني في الإفتتان به حيث ربأتني بمحلي
بنسبتي إلى العزيز ووضعتن قدره بكونه من المماليك أو بالعنوان
الذي وصفنه به فيما سبق بقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها
الكنعاني فهو خبر لمبتدأ محذوف أي فهو ذلك العبد الكنعاني الذي

صورتين في أنفسكن وقلتن فيه وفي ما قلتن فالآن قد علمتن من هو وما قولكن فينا وأما ما يقال تعني أنك لم تصورنه بحق صورته ولو صورته بما عاينتن لعذرتني في الإفتان به فلا يلائم المقام فإن مرادها بدعوتهن وتمهيد ما مهدته لهن تبيتهن وتنديمهن على ما صدر عنهن من اللوم وقد فعلت ذلك بما لا مزيد عليه وما ذكر من المقال فحق المعتذر قبل ظهور معذرتة وقد قيل في تعليل الملكية أن الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من الخواص الملكية وهو أيضا لا يلائم قولها فذلك الذي لمتني فيه فإن عنوان العصمة مما ينافي تمشية مرامها ثم بعد ما أقامت عليهن الحجة وأوضحت لديهن عذرها وقد أصابهن من قبله عليه السلام ما أصابها باحت لهن ببقية سرها فقالت ولقد راودته عن نفسه حسبا قلتن وسمعتن

فاستعصم امتنع طالبا للعصمة وهو بناء مبالغة يدل على الإمتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه في عصمة وهو يجتهد في الإستزاده منها كما في استمسك واستجمع الرأي وفيه برهان نير على أنه لم يصدر عنه عليه السلام شيء مخل باستعصامه بقوله معاذ الله من الهم وغيره اعترفت لهن أولا بما كن يسمعن من مراودتها له وأكدته إظهارا لابتهاجا بذلك ثم زادت على ذلك أنه أعرض عنها على أبلغ ما يكون ولم يمل إليها قط ثم زادت عليه أيضا أنها مستمرة على ما كانت عليه غير مرعوية عنه لا بلوم العواذل ولا بإعراض الحبيب فقالت

ولئن لم يفعل ما أمره أي أمر به فيما سيأتي كما لم يفعل فيما مضى فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير كما في أمرتك الخير الضمير للموصول أو أمري إياه أي موجب أمري ومقتضاه فما مصدرية فالضمير ليوسف وعبرت عن مراودتها بالأمر إظهارا لجريان حكومتها عليه واقتضاء للإمتثال بأمرها ليسجن بالنون المثقلة أثرت بناء الفعل للمفعول جريا على رسم الملوك أو إيهاما لسرعة ترتب ذلك على عدم امتثاله لأمرها كأنه لا يدخل بينهما فعل فاعل

وليكونا بالمخففة

من الصاغرين أي الأذلاء في السجن وقد قرىء الفعلان بالثقل ولكن المشهورة أولى لأن النون كتبت في المصحف ألفا على حكم الوقف واللام الداخلة على حرف الشرط موطئة للقسم وجوابه ساد مسد الجوابين ولقد أتت بهذا الوعيد المنطوي على فنون

التأكيد بمحضر منهن ليعلم يوسف عليه السلام أنها ليست في أمرها على خفية ولا خيفة من أحد فتضيق عليه الحيل وتعيأ به العلل وينصحن له ويرشدنه إلى موافقتها ولما كان هذا الإبراق والإرعاد منها مظنة لسؤال سائل يقول فما صنع يوسف حينئذ قيل قال مناجيا لربه عز سلطانه
رب السجن الذي أوعدتني بالإلقاء فيه وقرأ يعقوب بالفتح على المصدر
أحب إلى

فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم (34)
ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين (35)

يوسف الآية 34 35 أي أثر عندي لأنه مشقة قليلة نافذة أثرها
راحات جليلة أبدية
مما يدعونني إليه من مؤاتانها التي تؤدي إلى الشقاء والعذاب الأليم
وهذا الكلام منه عليه السلام مبني على ما مر من انكشاف الحقائق
لديه وبروز كل منها بصورتها اللائقة بها فصيغة التفضيل ليست على
بابها إذ ليس له شائبة محبة لما دعت إليه وإنما هو والسجن شران
أهونهما وأقربهما إلى الإيثار السجن والتعبير عن الإيثار بالمحبة
لحسم مادة طمعها عن المساعدة خوفا من الحبس والإقتصار على
ذكر السجن من حيث إن الصغار من فروعه ومستتبعاته وإسناد
الدعوة إليهن جميعا لأن النسوة رغبته في مطاوعتها وخوفته من
مخالفتها وقيل دعونه إلى أنفسهن وقيل إنما ابتلى عليه السلام
بالسجن لقوله هذا وكان الأولى به أن يسأل الله تعالى العافية
ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل
الصبر

وإلا تصرف أي إن لم تصرف
عني كيدهن في تحبيب ذلك إلي وتحسينه لدي بأن تثبتني على ما
أنا عليه من العصمة والعفة
أصب إليهن أي أمل إلى إجابتهن أو إلى أنفسهن على قضية
الطبيعة وحكم القوة الشهوية وهذا فزع منه عليه السلام إلى
ألطاف الله تعالى جريا على سنن الأنبياء والصالحين في قصر نيل

الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله عز وجل وسلب
القوى والقدر عن أنفسهم ومبالغة في استدعاء لطفه في صرف
كيدهن بإظهار أن لا طاقة له بالمدافعة كقول المستغيث أدركني
وإلا هلكت لا أنه يطلب الإجبار والإلجاء إلى العصمة والعفة وفي
نفسه داعية تدعوه إلى هواهن والصبوة الميل إلى الهوى ومنه
الصبا لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها وقرىء أصب
إلهن من الصباة وهي رقة الشوق
وأكن من الجاهلين الذين لا يعملون بما يعلمون لأن من لا جدوى
لعلمه فهو والجاهل سواء أو من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه
من القبائح لأن الحكيم لا يفعل القبيح
فاستجاب له ربه دعاءه الذي تضمنه قوله وإلا تصرف عني كيدهن
الخ فإن فيه استدعاء لصرف كيدهن على أبلغ وجه وألطفه كما مر
وفي إسناد الإستجابة إلى الرب مضافا إليه عليه السلام ما لا يخفى
من إظهار اللطف
فصرف عنه كيدهن حسب دعائه وثبته على العصمة والعفة
إنه هو السميع لدعاء المتضرعين إليه
العليم بأحوالهم وما يصلحهم
ثم بدا لهم أي ظهر للعزیز وأصحابه المتصددين للحل والعقد ريثما
اكتفوا بأمر يوسف بالكتمان والإعراض عن ذلك
من بعد ما رأوا الآيات الصارفة لهم عن ذلك البداء وهي الشواهد
الدالة على براءته عليه السلام وفاعل بدأ إما مصدره أو الرأي
المفهوم من السياق أو المصدر المدلول عليه بقوله
ليسجننه والمعنى بدأ لهم بداء أو رأى أو سجنه المحتوم قائلين
والله ليسجننه فالقسم المحذوف وجوابه معمول للقول المقدر حالا
من ضميرهم وما كان ذلك البداء إلا باستئزال المرأة لزوجها ومثلها
منه في الذروة والغارب وكان مطواعة لها تقوده حيث شاءت قال
السدي إنها قالت للعزیز إن هذا العبد العبراني قد فضحني في
الناس يخبرهم بأني راودته عن نفسه فإما أن تأذن لي

ودخل معه السجن فتیان قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا وقال
الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله
إنا نراك من المحسنين (36)

يوسف الآية 36 فأخرج فأعذر إلى الناس وإما أن تحبسه فحبسه
ولقد أرادت بذلك تحقيق وعيدها لتلين به عريكته وتنقاد لها قرونته
لما انصرفت حبال رجائها عن استتباعه بعرض الجمال والترغيب
بنفسها وبأعوانها وقرىء لتسجنه على صيغة الخطاب بأن خاطب
بعضهم العزيز ومن يليه أو العزيز وحده على وجه التعظيم أو
خاطب به العزيز ومن عنده من أصحاب الرأي المباشرين للسجن
والحبس

حتى حين إلى حين انقطاع قالة الناس وهذا بادي الرأي عند العزيز
وذوبه وأما عندها فحتى يذله السجن ويسخره لها ويحسب الناس
أنه المجرم وقرىء عتي حين بلغة هذيل
ودخل معه أي في صحبته

السجن فتیان من فتیان الملك وممالكيه أحدهما شرابيه والآخر
خبازه روى أن جماعة من أهل مصر ضمنوا لهما مالا ليسما الملك
في طعامه وشرابه فأجاباهم إلى ذلك ثم إن الساقى نكل عن ذلك
ومضى عليه الخباز فسم الخبز فلما حضر الطعام قال الساقى لا
تأكل أيها الملك فإن الخبز مسموم وقال الخباز لا تشرب أيها الملك
فإن الشراب مسموم فقال الملك للساقى اشربه فشربه فلم
يضره وقال للخباز كله فأبى فجرب بدابة فهلكت فأمر بحبسهما
فاتفق أن أدخلاه معه وتأخير الفاعل عن المفعول لما مر غير مرة
من الإهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ليتمكن عند النفس
حين وروده عليها فضل تمكن ونظيره تقديم الظرف على المفعول
الصريح في قوله تعالى فأوجس في نفسه خيفة وتأخير السجن عن
الظرف لإيهام العكس أن يكون الظرف خبرا مقدما على المبتدأ
وتكون الجملة حالا من فاعل دخل فتأمل

قال أحدهما استئناف مبني على سؤال من يقول ما صنعا بعد ما
دخلا معه السجن فأجيب بأنه قال أحدهما وهو الشرابي
إني أراني أي رأيتني والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة الماضية
أعصر خمرا أي عنباً سماه بما يؤول إليه لكونه المقصود من العصر
وقيل الخمر بلغة عمان اسم للعنب وفي قراءة ابن مسعود رضي
الله عنه أعصر عنباً
وقال الآخر وهو الخباز
إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأخير المفعول عن الظرف لما
مر أنفا وقوله

تأكل الطير منه أي تنهس منه صفة للخبز أو استئناف مبني على
السؤال

نبئنا بتأويله بتأويل ما ذكر من الرؤيين أو ما رثى بإجراء الضمير
مجرى ذلك بطريق الإستعارة فإن اسم الإشارة يشار به إلى متعدد
كما في قوله ... فيها خطوط من سواد وبلق ... كأنه في الجلد
... توليع البهق

أي كأن ذلك والسرف في المصير إلى إجراء الضمير مجرى اسم
الإشارة مع أنه لا حاجة إليه بعد تأويل المرجع بما ذكر أو بما رثى
أن الضمير إنما يتعرض لنفس المرجع من حيث هو من غير تعرض
لحال من أحواله فلا يتسنى تأويله بأحد الإعتبارين إلا بإجرائه مجرى
اسم الإشارة الذي يدل على المشار إليه بالإعتبار الذي جرى عليه
في الكلام فتأمل هذا إذا قالاه معا أو قاله أحدهما من جهتهما معا
وأما ما إذا قاله كل منهما إثر ما قص ما رآه فالخطاب المذكور
ليس عبارتهما ولا عبارة أحدهما من جهتهما ليتعدد المرجع بل عبارة
كل منهما نبئني بتأويله مستفسرا لما رآه وصيغة المتكلم مع الغير
واقعة في الحكاية دون المحكي على طريقة قوله عز وجل يا أيها
الرسل كلوا من الطيبات فإنهم

قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما
مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة
هم كافرون (37)

يوسف 37 لم يخاطبوا بذلك دفعة بل خوطب كل منهم في زمانه
بصيغة مفردة خاصة به
إننا نراك تعليل لعرض رؤياهما عليه واستفسارها منه عليه السلام
من المحسنين من الذين يجيدون عبارة الرؤيا لما آياه يقص عليه
بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له تأويلا حسنا أو من العلماء لما
سمعاه يذكر للناس ما يدل على علمه وفضله أو من المحسنين إلى
أهل السجن أي فأحسن إلينا بكشف غمتنا إن كنت قادرا على ذلك
روى أنه عليه السلام كان إذا مرض منهم رجل قام عليه وإذا ضاق
مكانه أوسع له وإذا احتاج جمع له وعن قتادة رضى الله عنه كان
في السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول

أبشروا واصبروا تؤجروا فقالوا بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك لقد بورك لنا في جوارك فمن أنت يا فتى فقال أنا يوسف بن صفى الله يعقوب بن ذبيح الله إسحق بن خليل الله إبراهيم فقال له عامل السجن لو استطعت خليت سبيلك ولكني أحسن جوارك فكن في أي بيوت السجن شئت وعن الشعبي أنهما تحالما له ليمتحناه فقال الشرابي أراني في بستان فإذا بأصل حبة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطعتهما وعصرتهما في كأس الملك وسقيته وقال الخباز إني أراني وفوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة إذا سباع الطير تنهس منها قال لا يأتيكما طعام ترزقانه في مقامكما هذا حسب عادتكما المطردة

إلا نباتكما بتأويله استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا يأتيكما طعام في حال من الأحوال إلا حال ما نباتكما به بأن بينت لكما ما هيته وكيفيته وسائر أحواله قبل أن يأتيكما وإطلاق التأويل عليه إما بطريق الاستعارة فإن ذلك بالنسبة إلى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل بالنظر إلى ما رئى في المنام وشبيه له وإما بطريق المشاكلة حسيما وقع في عبارتهما من قولهما نبئنا بتأويله ولا يبعد أن يراد بالتأويل الشيء الأثل لا المال فإنه في الأصل جعل شيء أثلا إلى شيء آخر فكما يجوز أن يراد به الثاني يجوز أن يراد به الاول فالمعنى إلا نباتكما بما يؤول إليه من الكلام والخبر المطابق للواقع وكان عليه السلام يقول لهما اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيجدنه كذلك ومراده عليه السلام بذلك بيان كل ما يهمهما من الأمور المترتبة قبل وقوعها وإنما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقا في ذلك بحسب الحال مع ما فيه من مراعاة حسن التخلص إليه مما استعبراه من الرؤيين المتعلقين بالشراب والطعام وقد جعل الضمير لما قصا من الرؤيين على معنى لا يأتيكما طعام ترزقانه حسب عادتكما إلا أخبرتكما بتأويل ما قصصتما علي قبل أن يأتيكما ذلك الطعام الموقت مرادا به الإخبار بالاستعجال في التنبئة وأنت خير بأن النظم الكريم ظاهر في تعدد إتيان الطعام والإخبار بالتأويل وتجدهما وأن المقام مقام إظهار فضله في فنون العلوم بحيث يدخل في ذلك تأويل رؤياهما دخولا أوليا وإنما لم يكتف عليه السلام بمجرد تأويل رؤياهما مع أن فيه دلالة على فضله لأنهما لما نعتاه عليه السلام بالانتظام في سمط المحسنين وإنهما قد علما

ذلك حيث قال إنا نراك

واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك
بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر
الناس لا يشكرون (38)

يوسف 38 من المحسنين توسم عليه السلام فيهما خيرا وتوجهها
إلى قبول الحق فأراد أن يخرج اثر ذي أثير عما في عهده من
دعوة الخلق إلى الحق فمهد قبل الخوض في ذلك مقدمة تزيدهما
علما بعظم شأنه وثقة بأمره ووقوفا على علو طبقة في بدائع
العلوم توسلا بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه وقد تخلص إليها من
كلامهما فكأنه قال تأويل ما قصصتماه علي في طرف التمام حيث
رأيتما مثاله في المنام وإني أبين لكما كل جليل ودقيق من الأمور
المستقبلة وإن لم يكن هناك مقدمة المنام حتى إن الطعام
الموظف الذي يأتيكما كل يوم أبينه لكما قبل إتيانه ثم أخبرهما بأن
علمه ذلك ليس من قبيل علوم الكهنة والعرافين بل هو أفضل إلهي
يؤتيه من يشاء ممن يصطفيه للنبوة فقال
ذلكما أي ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات ومعنى البعد في ذلك
للإشارة إلى علو درجته وبعد منزلته
مما علمني ربي بالوحي والإلهام أي بعض منه أو من ذلك الجنس
الذي لا يحوم حول إدراكه العقول ولقد دلها بذلك على أن له
علوما جمة ما سمعاه قطعة من جملتها وشعبة من دوحها ثم بين
أن نيل تلك الكرامة بسبب اتباعه ملة آبائه الأنبياء العظام وامتناعه
عن الشرك فقال

إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهو استئناف وقع جوابا عن
سؤال نشأ من قوله ذلكما مما علمني ربي وتعليل له لا للتعليم
الواقع صلة للموصول لتأديته إلى معنى أنه مما علمني ربي لهذا
السبب دون غيره ولا لمضمون الجملة الخبرية لأن ما ذكر بصدد
التعليل ليس بعلة لكون التأويل المذكور بعضا مما علمه ربه أو
لكونه من جنسه بل لنفس تعليم ما علمه فكأنه قيل لماذا علمك
ربك تلك العلوم البديعة فقيل لأنني تركت ملة الكفرة أي دينهم
الذي اجتمعوا عليه من الشرك وعبادة الأوثان والمراد بتركها

الامتناع عنها رأسا كما يفصح عنه قوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء لا تركها بعد ملابستها وإنما عبر عنه بذلك لكونه أدخل بحسب الظاهر في إقتدائهما به عليه السلام والتعبير عن كفرهم بالله تعالى يسلب الإيمان به للتنصيص على أن عبادتهم له تعالى مع عبادة الأوثان ليست بإيمان به تعالى كما هو زعمهم الباطل على ما مر في قوله تعالى إنه عمل غير صالح وهم بالآخرة وما فيها من الجزاء

هم كافرون على الخصوص دون غيرهم لإفراطهم في الكفر واتبعت ملة آبائهم إبراهيم وإسحق ويعقوب يعنى أنه إنما حاز هذه الكمالات وفاز بتلك الكرامات بسبب أنه اتبع ملة آبائه الكرام ولم يتبع ملة قوم كفروا بالمبدأ والمعاد وإنما قاله عليه السلام ترغيبا لصاحبيه في الإيمان والتوحيد وتنفيرا لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه لأن التخلية متقدمة على التحلية

ما كان أي ما صح وما استقام فضلا عن الوقوع لنا معاشر الأنبياء لقوة نفوسنا ووفور علومنا أن نشرك بالله من شيء أي شيء كان من ملك أو جنى أو إنسى فضلا عن الجماد البحث ذلك أي التوحيد المدلول عليه بقوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء

من فضل الله علينا أي ناشيء من تأييده لنا بالنبوة وترشيحه إيانا لقيادة الأمة

يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار (39)
ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون (40)

يوسف 39 40 وهدايتهم إلى الحق وذلك مع كونه من موجبات التوحيد ودواعيه نعمة جلية وفضل عظيم علينا بالذات وعلى الناس كافة بواسطة حيث عبر عن ذلك بذلك العنوان عبر عن التوحيد الذي يوجهه بالشكر فقيل

ولكن أكثر الناس لا يشكرون أي لا يوحدون فإن التوحيد مع كونه من آثار ما ذكر من التأييد شكر لله عز وجل على النعمة وإنما وضع الظاهر موضع الضمير الراجع إلى الناس لزيادة توضيح وبيان ولقطع توهم رجوعه إلى المجموع الموهوم لعدم اختصاص غير الشاكر بالناس وقيل ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث نصب لنا أدلة ننظر فيها ونستدل بها على الحق وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس أيضا ولكن أكثرهم لا ينظرون ولا سيتدلون بها اتباعا لأهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين ولك أن تقول ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث أعطانا عقولا ومشاعر نستعملها في دلائل التوحيد التي مهدها في الأنفس والآفاق وقد أعطى سائر الناس أيضا مثلها ولكن أكثرهم لا يشكرون أي لا يصرفون تلك القوي والمشاعر إلى ما خلقت هي له ولا يستعملونها فيما ذكر من أدلة التوحيد الآفاقية والآنفسية والعقلية والنقلية

يا صاحبي السجن أي يا صاحبي في السجن كما تقول يا سارق الليلة ناداهما بعنوان الصحبة في مدار الأشجان ودار الأحزان التي تصفو فيها المودة وتخلص النصيحة ليقبلا عليه ويقبلا مقالته وقد ضرب لهما مثلا يتضح به الحق عندهما حق اتضاح فقال

أرباب متفرقون لا ارتباط بينهم ولا اتفاق يستعبد كما كل منهم حسبما أراد غير مراقب للآخرين مع عدم استقلاله

خير لكما

أم الله المعبود بالحق
الواحد المتفرد بالألوهية
القهار الغالب الذي لا يغالبه أحد وبعد ما نبه ما على فساد تعدد الأرباب بين لهما سقوط ألتهما عن درجة الاعتبار رأسا فضلا عن الألوهية فقال معمما للخطاب لهما ولمن على دينهما ما تعبدون من دونه أي من دون الله شيئا إلا أسماء فارغة لا مطابق لها في الخارج لأن ما ليس فيه مصداق إطلاق الاسم عليه لا وجود له أصلا فكانت عبادتهم لتلك الأسماء فقط

سميتموها جعلتموها أسماء وإنما لم يذكر المسميات تربية لما يقتضيه المقام من إسقاطها عن مرتبة الوجود وإيدانها بان تسميتهم في البطلان حيث كانت بلا مسمى كعبادتهم حيث كان بلا معبود أنتم وأباؤكم بمحض جهلكم وضلالكم ما أنزل الله بها أي بتلك التسمية المستتعبة للعبادة

من سلطان من حجة تدل على صحتها
إن الحكم في أمر العبادة المتفرعة على تلك التسمية
إلا الله عز سلطانه لأنه المستحق لها بالذات إذ هو الواجب بالذات
الموجد لكل والمالك لأمره
أمر استئناف مبنى على سؤال ناشىء من قوله إن الحكم إلا لله
فكانه قيل فماذا حكم الله في هذا الشأن فقيل أمر على السنة
الأنبياء عليهم السلام
ألا تعبدوا أي بأن لا تعبدوا
إلا إياه حسبما

يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا وأما الآخر فيصلب
فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان (41) وقال
للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه
فلبث في السجن بضع سنين (42)

يوسف 41 42 تقضى به قضية العقل أيضا
ذلك أي تخصيصه تعالى بالعبادة
الدين القيم الثابت المستقيم الذي تعاضدت عليه البراهين عقلا
ونقلا
ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن ذلك هو الدين القيم لجهلهم بتلك
البراهين أو لا يعلمون شيئا أصلا فيبعدون أسماء سموها من تلقاء
أنفسهم معرضين عن البرهان العقلي والسلطان العقلي وبعد
تحقيق الحق ودعوتهما إليه وبيانه لهما مقدار الرافع ومرتبة علمه
الواسع شرع في تفسير ما استفسراه ولكونه بحثا مغايرا لما سبق
فصله عنه بتكرير الخطاب فقال
يا صاحبي السجن أما أحدكما وهو الشرايبي وإنما لم يعينه ثقة
بدلالة التعبير وتوسلا بذلك إلى إبهام أمر صاحبه حذار مشافهته بما
يسوءه
فيسقى ربه أي سيده
خمرا روى أنه عليه السلام قال له ما رأيت من الكرمة وحسنها
الملك وحسن حاله عنده وأما القضبان الثلاثة فثلاثة أيام تمضي
في السجن ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه وقرأ عكرمة فيسقى

ربه على البناء للمفعول أي يسقى ما يروى به
وأما الآخر وهو الخباز
فيصلب فتأكل الطير من رأسه روى أنه عليه السلام قال له ما
رأيت من السلال الثلاث ثلاثة أيام تمر ثم تخرج فتقتل
قضى أي أتم وأحكم
الأمر الذي فيه تستفتيان وهو ما رأياه من الرؤيين قطعاً لا مآله
الذي هو عبارة عن نجاه أحدهما وهلاك الآخر كما يوهمه إسناد
القضاء إليه إذ الاستفتاء إنما يكون في الحادثة لا في حكمها يقال
استفتى الفقيه في الحادثة أي طلب منه بيان حكمها ولا يقال
استفتاه في حكمها وكذا الإفتاء فإنه يقال أفتى فلان في الواقعة
الفلانية بكذا ولا يقال أفتى في حكمها أو جوابها بكذا ومما هو علم
في ذلك قوله تعالى يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي ومعنى
استفتائهما فيه طلبهما لتأويله بقولهما نبئنا بتأويله وإنما عبر عن
ذلك بالأمر وعن طلب تأويله بالاستفتاء تهويلاً لأمره وتفخيماً لشأنه
إذ الاستفتاء إنما يكون في النوازل المشككة الحكم المبهمة الجواب
وإثاره صيغة الاستقبال مع سبق استفتائهما في ذلك لما أنهما
بصدده إلى أن يقضى عليه السلام من الجواب وطره وإسناد
القضاء إليه مع أنه من أحوال مآله لأنه في الحقيقة عين ذلك المآل
وقد ظهر في عالم المثال بتلك الصورة وأما توحيده مع تعدد
رؤيائهما فوارد على حسب ما وحده في قولهما نبئنا بتأويله لا لأن
الأمر ما اتهما به وسجنا لأجله من سم الملك فإنهما لم يستفيا فيه
ولا فيما هو صورته بل فيما هو صورة لمآله وعاقبته فتأمل وإنما
أخبرهما عليه السلام بذلك تحقيقاً لتعبيره وتأكيداً له وقيل لما عبر
رؤيائهما جحداً وقالوا ما رأينا شيئاً فأخبرهما أن ذلك كائن صدقتهما أو
كذبتهما ولعل الجحود من الخباز إذ لا داعى إلى جحود الشرايى إلا
أن يكون ذلك لمراعاة جانبه
وقاله

وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع
سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم
للرؤيا تعبرون (43)

يوسف 43 أي يوسف عليه السلام
للذي ظن أنه ناج أوثر على صيغة المضارع مبالغة في الدلالة على
تحقق النجاة حسبا يفيد قوله تعالى قضى الأمر الذي فيه
تستفتيان وهو السر في إثارة ما عليه النظم الكريم على أن يقال
للذي ظنه ناجيا
منهما من صاحبيه وإنما ذكر بوصف النجاة تمهيدا لمناط التوصية
بالذكر عند الملك وعنوان التقرب المفهوم من التعبير المذكور وإن
كان أدخل في ذلك وأدعى إلى تحقيق ما وصاه به لكنه ليس
بوصف فارق يدور عليه الامتياز بينه وبين صاحبه المذكور بوصف
الهلاك والظان هو يوسف عليه السلام لا صاحبه لأن التوصية
المذكورة لا تدور على ظن الناجي بل على ظن يوسف وهو بمعنى
اليقين كما في قوله تعالى ظننت إني ملاق حساييه فالتعبير بالوحي
كما ينبىء عنه قوله تعالى قضى الأمر الخ وقيل هو بمعناه والتعبير
بالاجتهاد والحكم بقضاء الأمر أيضا اجتهادي
اذكرني بما أنا عليه من الحال والصفة
عند ربك سيدك وصفني له بصفتي التي شاهدتها
فأنساه الشيطان أي أنسى الشرابي بوسوسته وإلقائه في قلبه
أشغالا تعوقه عن الذكر وإلا فالإنساء في الحقيقة لله عز وجل
والفاء للسببية فإن توصيته عليه السلام المتضمنة للإستعانة بغيره
سبحانه كانت باعثة لما ذكر عن الإنساء
ذكر ربه أي ذكر الشرابي له عليه السلام عند الملك والإضافة لأدنى
ملازمة أو ذكر اخبار ربه
فلبث أي يوسف عليه السلام بسبب ذلك الإنساء أو القول
في السجن بضع سنين البضع ما بين الثلاث إلى التسع من البضع
وهو القطع وأكثر الأقاويل إنه لبث فيه سبع سنين وروى عن النبي
صلى الله عليه وسلم رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اذكرني عند
ربك لما لبث في السجن سبعا بعد الخمس والاستعانة بالعباد وإن
كانت مرخصة لكن اللائق بمناصب الأنبياء عليهم السلام الأخذ
بالعزائم
وقال الملك أي الريان
إني أرى أي رأيت وإيثارة صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية
سبع بقرات سمان جمع سمين وسمينة ككرام في جمع كريم
وكريمة يقال رجال كرام ونسوة كرام
يأكلهن أي أكلهن والعدول إلى المضارع لاستحضار الصورة تعجيبا

والجملة حال من البقرات أو صفة لها
سبع عجاف أي سبع بقرات عجاف وهي جمع عجفاء والقياس
عجف لأن فعلاء وأفعل لا يجمع على فعال ولكن عدل به عن
القياس حملا لأحد النقيضين علناآخر وإنما لم يقل سبع عجاف
بالإضافة لأن التمييز موضوع لبيان الجنس والصفة ليست بصالحة
لذلك فلا يقال ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ وأما قولك ثلاثة فرسان
وخمسة ركبان فلجريان الفارس والراكب مجرى الأسماء روى أنه
رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وخرج عقيبهن سبع
بقرات عجاف في غاية الهزال فابتلعت العجاف السمان
وسبع سنبلات خضر قد انعقد حبهما
وأخر يابسات أي وسبعا أخر يابسات قد أدركت والتوت على الخضر
حتى غليتها على ما روى ولعل عدم التعرض لذكره للاكتفاء بما ذكر
من حال البقرات
يا أيها الملأ خطاب للأشراف من العلماء والحكماء
أفتوني في رؤياي هذه أي عبروها وبينوا حكمها وما تؤول إليه من
العاقبة والتعبير عن التعبير بالإفتاء

قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين (44) وقال
الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون (45)

يوسف الآية 44 45 لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياه
إن كنتم للرؤيا تعبرون أي تعلمون عبارة جنس الرؤيا علما مستمرا
وهي الإنتقال من الصور الخيالية المشاهدة في المنام إلى ما هي
صور وأمثلة لها من الأمور الآفاقية أو الأنفسية الواقعة في الخارج
من العبور وهو المجاوزة تقول عبرت النهر إذا قطعته وجاوزته
ونحوه أولتها أي ذكرت مألها وعبرت الرؤيا عبارة أثبت من عبرتها
تعبيرا والجمع بين الماضي والمستقبل للدلالة على الإستمرار كما
أشير إليه واللام للبيان أو لتقوية العامل المؤخر لرعاية الفواصل أو
لتضمين تعبرون معنى فعل متعد باللام كأنه قيل إن كنتم تنتدبون
لعبارتها ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان كما يقال فلان لهذا الأمر إذا
كان مستقلا به متمكنا منه وتعبرون خبر آخر
قالوا استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا قال الملأ للملك

ف قيل قالوا هي أضغاث أحلام أي تخاليطها جمع ضغث وهو في الأصل ما جمع من أخلاط النبات وحزم ثم استعير لما تجمعه القوة المتخيلة من أحاديث النفس ووساوس الشيطان وتربها في المنام والأحلام جمع حلم وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقة لها والإضافة بمعنى من أي هي أضغاث من أحلام أخرجوها من جنس الرؤيا التي لها عاقبة تؤول إليها ويعتنى بأمرها وجمعوها وهي رؤيا واحدة مبالغة في وصفها بالبطلان كما في قولهم فلان يركب الخيل ويلبس العمائم لمن لا يملك إلا فرسا واحدا وعمامة فردة أو لتضمنها أشياء مختلفة من البقرات السبع السمان والسبع العجاف والسنابل السبع الخضر والأخر اليابسات فتأمل حسن موضع الأضغاث مع السنابل فله در شأن التنزيل

وما نحن بتأويل الأحلام أي المنامات الباطلة التي لا أصل لها بعالمين لا لأن لها تأويلا ولكن لا نعلمه بل لأنه لا تأويل لها وإنما التأويل للمنامات الصادقة يجوز أن يكون ذلك اعترافا منهم بقصور علمهم وأنهم ليسوا بنحارير في تأويل الأحلام مع أن لها تأويلا كما يشعر به عدو لهم عما وقع في كلام الملك من العبارة المعربة عن مجرد الانتقال من الدال إلى المدلول حيث لم يقولوا بتعبير الأحلام أو عبارتها إلى التأويل المنبئ عن التصرف والتكلف في ذلك لما بين الآثل والمال من البعد ويؤيده قوله عز وجل أنا أنبئكم بتأويله وقال الذي نجا منهما أي من صاحبي يوسف وهو الشرايبي وادكر بغير المعجمة وهو الفصيح وعن الحسن بالمعجمة أي تذكر يوسف عليه السلام وشئونه التي شاهدها ووصيته بتقريب رؤيا الملك وإشكال تأويلها على الملأ

بعد أمة أي مدة طويلة وقرىء أمة بالكسر وهي النعمة أي بعد ما أنعم عليه بالنجاة وأمه أي نسيان والجملة حال من الموصول أو من ضميره في الصلة وقيل معطوفة على نجا وليس بذاك لأن حق كل من الصفة والصلة أن تكون معلومة الإنتساب إلى الموصوف والموصول عند المخاطب كما عند المتكلم ولذلك قيل إن الصفات قبل العلم بها أخبار والأخبار بعد العلم بها صفات وأنت تدري أن تذكره بعد أمة إنما علم بهذه الجملة فلا مجال لنظمه مع نجاته المعلومة قيل في سلك الصلة أنا أنبئكم بتأويله أي أخبركم

يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف
وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات لعلني أرجع إلى الناس لعلهم
يعلمون (46) قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في
سنبله إلا قليلا مما تأكلون (47)

يوسف الآية 46 47 بالتلقي عن عنده علمه لا من تلقاء نفسي
ولذلك لم يقل أنا أفتيكم فيها وعقبه بقوله
فأرسلون أي إلى يوسف وإنما لم يذكره ثقة بما سبق من التذكر
وما لحق من قوله
يوسف أيها الصديق أي أرسل إليه فأتاه فقال يا يوسف ووصفه
بالمبالغة في الصدق حسبما شاهده وذاق أحواله وجربها لكونه
بصدد اغتنام آثاره واقتباس أنواره فهو من باب براعة الإستهلال
أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر
وآخر يابسات أي في رؤيا ذلك وإنما لم يصرح به لوضوح مراده
بقريئة ما سبق من معاملتهما ولدلالة مضمون الحادثة عليه حيث لا
إمكان لوقوعه في عالم الشهادة أي بين لنا مآلها وحكمها وحيث
عاین علو رتبته عليه السلام في الفضل عبر عن ذلك بالإفتاء ولم
يقول كما قال هو وصاحبه أولا نبئنا بتأويله وفي قوله أفتنا مع أنه
المستفتي وحده إشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له
ملازمة بأمور العامة وأنه في ذلك معبر وسفير كما أذن بذلك حيث
قال
لعلني أرجع إلى الناس أي إلى الملك ومن عنده أو إلى أهل البلد إن
كان السجن في الخارج كما قيل فأنبئهم بذلك
لعلهم يعلمون ذلك ويعملون بمقتضاه أو يعلمون فضلك ومكانك مع
ما أنت فيه من الحال فتخلص منه وإنما لم يبت القول في ذلك
مجاراة معه على نهج الأدب واحترازا عن المجازفة إذ لم يعلموه
على يقين من الرجوع فربما اخترم دونه لعل المنايا دون ما تعداني
ولا من علمهم بذلك فربما لم يعلموه
قال استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا قال يوسف عليه
السلام في التأويل فقيل قال
تزرعون سبع سنين دأبا قرىء بفتح الهمزة وسكونها وكلاهما مصدر
دأب في العمل إذا جد فيه وتعب وانتصابه على الحالية من فاعل

تزرعون أي دائيين أو تدأبون دأبا على أنه مصدر مؤكد لفعل هو الحال أول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب والعجاف واليابسان بسنين مجدبة فأخذهم بأنهم يواظبون سبع سنين على الزراع ويبالغون فيها إذ بذلك يتحقق الخصب الذي هو مصداق البقرات السمان وتأويلها ودلهم في تضاعيف ذلك على أمر نافع لهم فقال

فما حصدتم أي في كل سنة

فذروه في سنبله ولا تذروه كيلا يأكله السوس كما هو شأن غلال مصر ونواحيها ولعله عليه السلام استدل على ذلك بالسنبلات الخضر وإنما أمرهم بذلك إذ لم يكن معتادا فيما بينهم وحيث كانوا معتادين للزراعة لم يأمرهم بها وجعلها أمرا محقق الوقوع وتأويلا للرؤيا مصداقا لما فيها من البقرات السمان إلا قليلا مما تأكلون في تلك السنين وفيه إرشاد منه عليه السلام لهم إلى التقليل في الأكل والإقتصار على استثناء المأكول دون البذر لكون ذلك معلوما من قوله تزرعون سبع سنين وبعد إتمام ما أمرهم به شرع في بيان بقية التأويل التي يظهر منها حكمة الأمر المذكور فقال

ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون (48) ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون (49)

يوسف الآية 48 49

ثم يأتي وهو عطف على تزرعون فلا وجه لجعله بمعنى الأمر حثا لهم على الجد والمبالغة في الزراعة على أنه يحصل بالإخبار بذلك أيضا

من بعد ذلك أي من بعد السنين السبع المذكورات وإنما لم يقل من بعدهن قصدا إلى الإشارة إلى وصفهن فإن الضمير ساكت عن أوصاف المرجع بالكلية

سبع شداد أي سبع سنين صعب على الناس يأكلن ما قدمتم لهن من الحبوب المتروكة في سنباتها وفيه تنبيه على أن أمره عليه السلام بذلك كان لوقت الضرورة وإسناد الأكل

إليه مع أنه حال الناس فيهن مجازي كما في نهاره صائم وفيه
تلويح بأنه تأويل لأكل العجاف السمان واللام في لهن ترشيح لذلك
فكان ما ادخر في السنابل من الحبوب شيء قد هبىء وقدم لهن
كالذي يقدم للنازل وإلا فهو في الحقيقة مقدم للناس فيهن
إلا قليلا مما تحصنون تحرزون مبدور الزراعة
ثم يأتي من بعد ذلك أي من بعد السنين الموصوفة بما ذكر من
الشدة وأكل الغلال المدخر
عام لم يعبر عنه بالسنة تحاشيا عن المدلول الأصلي لها من عام
القحط وتنبئها من أول الأمر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق
فيه يغاث الناس من الغيث أي يمطرون يقال غيثن البلاد إذا
مطرت في وقت الحاجة أو من الغوث يقال أغاثنا الله تعالى أي
أمدنا برفع المكاره حين أظلتنا
وفيه يعصرون أي ما من شأنه أن يعصر من العنب والقصب
والزيتون والسمسم ونحوها من الفواكه لكثرتها والتعرض لذكر
العصر مع جواز الإكتفاء عنه بذكر الغيث المستلزم له عادة كما
اكتفى به عن ذكر تصرفهم في الحبوب إما لأن استلزام الغيث له
ليس كاستلزامه للحبوب إذ المذكرات يتوقف صلاحها على مباد
أخرى غير المطر وإما لمراعاة جانب المستفتي باعتبار حالته
الخاصة به بشارة له وهي التي يدور عليها حسن موقع تغليبه على
الناس في القراءة بالفوقانية وقيل معنى يعصرون يحلبون الصروع
وتكرير فيه إما للإشعار باختلاف أوقات ما يقع فيه من الغيث
والعصر زمانا وهو ظاهر وعنوانا فإن الغيث والغوث من فضل الله
تعالى والعصر من فعل الناس وإما لأن المقام مقام تعداد منافع
ذلك العام ولأجله قدم في الموضوعين على الفعلين فإن المقصود
الأصلي بيان أنه يقع في ذلك العام هذا النفع وذاك النفع لا بيان
أنهما يقعان في ذلك العام كما يفيد التأخير ويجوز أن يكون
التقديم للقصر على معنى أن غيئهم وعصرهم في سائر السنين
بمنزلة العدم بالنسبة إلى عامهم ذلك وأن يكون ذلك في الأخير
لمراعات الفواصل وفي الأول لرعاية حاله وقرىء يعصرون على
البناء للمفعول من عصره إذا أنجاه وهو المناسب للإغاثة ويجوز أن
يكون المبني للفاعل أيضا منه كأنه قيل فيه يغاث الناس وفيه
يغيئون أي يغيئهم الله ويغيث بعضهم بعضا وقيل معنى يعصرون
يمطرون من أعصرت السحابة إما بتضمين أعصرت معنى مطرت
وتعديته وإما بحذف الجار وإيصال الفعل على أن الأصل أعصرت

عليهم وأحكام هذا العام المبارك ليست مستنبطة من رؤيا الملك وإنما تلقاها عليه السلام من جهة الوحي فبشرهم بها بعد ما أول

وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم (50) قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين (51)

يوسف الآية 50 51 الرؤيا بما أول وأمرهم بالتدبير اللائق في شأنه إبانة لعلو كعبه ورسوخ قدمه في الفضل وأنه محيط بما لم يخطر ببال أحد فضلا عما يرى صورته في المنام على نحو قوله لصاحبيه عند استفتائهما في نامهما لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله وإتماما للنعمة عليهم حيث لم يشاركه عليه السلام في العلم بوقوعها أحد ولو برؤية ما يدل عليها في المنام وقال الملك بعدما جاءه السفير بالتعبير وسمع منه ما سمع من نكير وقطمير

ائتوني به لما علم من علمه وفضله

فلما جاءه أي يوسف

الرسول واستدعاه إلى الملك

قال ارجع إلى ربك أي سيدك

فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن أي ففتشه عن شأنهم وإنما لم يقل فاسأله أن يفتش عن ذلك حثا للملك على الجد في التفتيش ليتبين براءته ويتضح نزاهته إذ السؤال مما يهيج الإنسان على الإهتمام في البحث للتفصي عما توجه إليه وأما الطلب فمما قد يتسامح ويتساهل فيه ولا يبالي به وإنما لم يتعرض لامرأة العزيز مع ما لقي منها ما لقي من مقاساة الأحزان ومعاناة الأشجان والأحزان محافظة على مواجب الحقوق واحترازا عن مكرها حيث اعتقدها مقيمة في عدوة العداوة وأما النسوة فقد كان يطمع في صدعهن بالحق وشهادتهن بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدي ولم يصرح بمراودتهن له وقولهن أطع مولاتك واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله

إن ربي بكيدهن عليم مجاملة معهن واحترازا عن سوء قالتهم عند
الملك وانتصابهن للخصومة مدافعة عن أنفسهن متى سمعن بنسبته
لهن إلى الفساد
قال استثناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل
قال الملك إثر ما بلغه الرسول الخبر وأحضرهن
ما خطبكن أي شأنكن وهو الأمر الذي يحق لعظمه أن يخاطب
المرء فيه صاحبه
إذ راودتن يوسف وخادعته
عن نفسه ورغبتنه في إطاعة مولاته هل وجدتن فيه شيئا من سوء
وربية
قلن حاش لله تنزيها له وتعجبا من نزاهته وعفته
ما علمنا عليه من سوء بالغن في نفي جنس السوء عنه بالتنكير
وزيادة من
قالت امرأة العزيز وكانت حاضرة في المجلس وقيل أقبلت النسوة
عليها يقررنها وقيل خافت أن يشهدن عليها بما قالت لهن ولقد
راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا
من الصاغرين فأقرت قائلة
الآن حصص الحق أي ثبت واستقر أو تبين وظهر بعد خفاء قاله
الخليل وقيل هو ماخوذ من الحصاة وهي القطعة من الجملة أي تبين
حصاة الحق من حصاة الباطل كما تتبين حصص الأراضي وغيرها
وقيل بان وظهر من حص شعره إذا استأصله بحيث ظهرت بشرة
رأسه وقرىء على البناء للمفعول من حصص البعير مباركة أي
ألقاها في

ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين (52)
وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي
غفور رحيم (53)

يوسف الآية 52 53 الأرض للإناخة قال ... فححص في صم
... الصفا ثفناته ... وناء بسلمى نواة ثم صمما
والمعنى أقر الحق في مقره ووضع في موضعه ولم ترد بذلك مجرد
ظهور ما ظهر بشهادتهن من مطلق نزاهته عليه السلام فيما أحاط

به علمهن من غير تعرض لنزاهته في سائر المواطن خصوصا فيما وقع فيه التشاجر بمحضر العزيز ولا بحث عن حال نفسها وما صنعت في ذلك بل أرادت ظهور ما هو متحقق في نفس الأمر وثبوتها من نزاهته عليه السلام في محل النزاع وحيانتها فقالت أنا راودته عن نفسه لا أنه راودني عن نفسي وإنه لمن الصادقين أي في قوله حين افتريت عليه هي راودتني عن نفسي وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام لا زمان شهادتهن فتأمل أيها المنصف هل ترى فوق هذه المرتبة نزاهة حيث لم تتمالك الخصماء من الشهادة بها والفضل ما شهدت به الخصماء وإنما تصدى عليه السلام لتمهيد هذه المقدمة قبل الخروج ليظهر براءة ساحته مما قذف به لا سيما عند العزيز قبل أن يحل ما عقده كما يعرب عنه قوله عليه السلام لما رجع إليه الرسول وأخبره بكلامهن

ذلك أي ذلك التثبيت المؤدي إلى ظهور حقيقة الحال ليعلم أي العزيز

أني لم أخنه في حرمة كما زعمه لا علما مطلقا فإن ذلك لا يستدعي تقديم التفتيش على الخروج من السجن بل قبل ما ذكر من نقض ما أبرمه ولعله لمراعاة حقوق السيادة لأن المباشرة للخروج من حبسه قبل ظهور بطلان ما جعله سببا له وإن كان ذلك بأمر الملك مما يوهم الافتيات على رأيه وأما أن يكون ذلك لئلا يتمكن من تقيح أمره عند الملك تمحلا لإمضاء ما قضاه فلا يليق بشأنه عليه السلام في الوثوق بأمره والتوكل على ربه جل جلاله بالغيب أي بظهر الغيب وهو حال من الفاعل أو المفعول أي لم أخنه وأنا غائب عنه أو وهو غائب عنه أو وهو غائب عني أو ظرف أي بمكان الغيب وراء الأستاء والأبواب المغلقة وأيا ما كان فالمقصود بيان كمال نزاهته عن الخيانة وغاية اجتنابه عنها عند تعاضد أسبابها

وأن الله أي وليعلم أنه تعالى

لا يهدي كيد الخائنين أي لا ينفذه ولا يسدده بل يبطله ويزهقه أو لا يهديهم في كيدهم إيقاعا للفعل على الكيد مبالغة كما في قوله تعالى يضاهئون قول الذين كفروا أي يضاهئونهم في قولهم وفيه تعريض بامراته في خيانتها أمانته وبه في خيانتها أمانة الله تعالى حين ساعدها على حبسه بعد ما رأوا آيات نزاهته عليه السلام ويجوز أن يكون ذلك لتأكيد أمانته وأنه لو كان خائنا لما هدى الله

عز وجل أمره وأحسن عاقبته
وما أبرئ نفسي أي لا أنزهها عن السوء قاله عليه السلام هضما
لنفسه الكريمة البريئة عن كل سوء ورباً بمكانها عن التزكية
والإعجاب بحالها عند ظهور كمال نزاهتها على أسلوب قوله عليه
السلام أنا سيد ولد آدم ولا فخر أو تحديثاً بنعمة الله عز وجل عليه
وإبرازاً لسره المكنون في شأن أفعال العباد أي لا أنزهها عن
السوء من حيث هي ولا أسند هذه الفضيلة إليها بمقتضى طبعها
من غير توفيق من الله عز وجل
إن النفس البشرية التي من جملتها نفسي في حد ذاتها
لأمارة بالسوء مائلة إلى الشهوات

وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم
لدينا مكين أمين (54) قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ
عليم (55)

مستعملة للقوى والآلات في تحصيلها بل إنما ذلك بتوفيق الله
تعالى وعصمته ورحمته كما يفيد قوله
إلا ما رحم ربي من النفوس التي يعصمها من الوقوع في المهالك
ومن جملتها نفسي أو هي أمارة بالسوء في كل وقت إلا وقت
رحمة ربي وعصمته لها وقيل الإستثناء منقطع أي لكن رحمة ربي
هي التي تصرف عنها السوء كما في قوله تعالى ولا هم ينقدون إلا
رحمة

إن ربي غفور رحيم عظيم المغفرة لما يعتري النفوس بموجب
طباعها ومبالغ في الرحمة لها بعصمتها من الجريان بمقتضى ذلك
وإيثار الإظهار في مقام الإضمار مع التعرض لعنوان الربوبية لتربية
مبادئ المغفرة والرحمة وقيل إلى هنا من كلام امرأة العزيز
والمعنى ذلك الذي قلت ليعلم يوسف عليه السلام أنني لم أخنه ولم
أكذب عليه في حال الغيبة وجئت بما هو الحق الواقع وما أبرئ
نفسي مع ذلك من الخيانة حيث قلت في حقه ما قلت وفعلت به ما
فعلت إن كل نفس لأمارة بالسوء إلا من رحم ربي أي إلا نفساً
رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف إن ربي غفور لمن استغفر لذنبه
واعترف به رحيم له فعلى هذا يكون تأنيه عليه السلام في الخروج

من السجن لعدم رضاه عليه السلام بملاقاة الملك وأمره بين بين
ففعل ما فعل حتى يتبين نزاهته وأنه إنما سجن بظلم عظيم مع ما
له من الفضل ونباهة الشأن ليتلقاه الملك بما يليق به من الإعظام
والإجلال وقد وقع

وقال الملك ائتوني به أستخلصه أجعله خالصا
لنفسي وخاصا بي

فلما كلمه أي فأتوا به فحذف للإيدان بسرعة الإتيان به فكأنه لم
يكن بين الأمر بإحضاره والخطاب معه زمان أصلا والضمير
المستكن في كلمه ليوسف والبارز للملك أي فلما كلمه يوسف إثر
ما أتاه فاستنطقه وشاهد منه ما شاهد

قال إنك اليوم لدينا مكين ذو مكانة ومنزلة رفيعة
أمين مؤتمن على كل شيء واليوم ليس بمعيار لمدة المكانة
والأمانة بل هو أن التكلم والمراد تحديد مبدئهما احترازا عن احتمال
كونهما بعد حين روى أنه عليه السلام لما جاءه الرسول خرج من
السجن ودعا لأهله واغتسل ولبس ثيابا جددا فلما دخل على الملك
قال اللهم إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من
شره وشر غيره ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال ما هذا
اللسان قال لسان أبائي وكان الملك يعرف سبعين لسانا فكلمه بها
فأجابه بجميعها فتعجب منه فقال أحب أن أسمع منك رؤياي فحكاهما
ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها على ما رآها فأجلسه على
السرير وفوض إليه أمره وقيل توفي قطفير في تلك الليالي فنصبه
منصبه وزوجه راعيل فوجدتها عذراء وولدت له إفرائيم وميشا ولعل
ذلك إنما كان بعد تعيينه عليه السلام لما عين له من أمر الخزائين
كما يعرب عنه قوله عز وجل

قال اجعلني على خزائن الأرض أي أرض مصر أي ولني أمرها من
الإيراد والصرف

إني حفيظ لها ممن لا يستحقها

عليم بوجوه التصرف فيها وفيه دليل على جواز طلب الولاية إذا
كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل وإجراء أحكام الشريعة
وإن كان من يد الجائر أو الكافر وعن مجاهد أنه أسلم الملك على
يده

وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوا منها حيث يشاء نصيب برحمتنا

من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين (56) ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون (57)

يوسف الآية 56 57 58 عليه السلام ولعل إيثاره عليه السلام لتلك الولاية خاصة إنما كان للقيام بما هو أهم أمور السلطنة إذ ذاك من تدبير أمر السنين حسبما فصل في التأويل لكونه من فروع تلك الولاية لمجرد عموم الفائدة وجموم العائدة كما قيل وإنما لم يذكر إجابة الملك إلي ما سأله عليه السلام من جعله على خزائن الأرض إيدانا بأن ذلك أمر لا مرد له غني عن التصريح به لا سيما بعد تقديم ما يندرج تحته من أحكام السلطنة بحذافيرها من قوله إنك اليوم لدينا مكين أمين وللتنبية على أن كل ذلك من الله عز و وجل وإنما الملك آلة في ذلك قيل وكذلك أي مثل ذلك التمكين البليغ مكننا ليوسف أي جعلنا له مكانا في الأرض أي أرض مصر روى أنها كانت أربعين فرسخا في أربعين وفي التعبير عن الجعل المذكور بالتمكين في الأرض مسندا إلى ضميره عز سلطانه من تشريفه عليه السلام والمبالغة في كمال ولايته والإشارة إلى حصول ذلك من أول الأمر لأنه حصل بعد السؤال ما لا يخفى يتبوا منها ينزل من بلادها

حيث يشاء ويتخذه مباءة وهو عبارة عن كمال قدرته على التصرف فيها ودخولها تحت ملكته وسلطانه فكانها منزله يتصرف فيها كما يتصرف الرجل في منزله وقرأ ابن كثير بالنون روى أن الملك توجه وختمه بخاتمه ورداه بسيفه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت فقال عليه السلام أما السرير فأشد به ملكك وأما الخاتم فأدبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي فقال قد وضعتة إجلالا لك وإقرارا بفضلك فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوض إليه الملك أمره وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء وباع من أهل مصر في سنى القحط الطعام في السنة الأولى بالدنانير والدراهم وفي الثانية بالحلى والجواهر وفي الثالثة بالدواب ثم بالضياح والعقار ثم برقابهم حتى استرقهم جميعا فقالوا ما رأينا كاليوم ملكا أجل وأعظم منه ثم أعتقهم ورد إليهم أموالهم وكان لا يبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير تقسيطا بين

الناس
نصيب برحمتنا بعبائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من
النعم
من نشاء بمقتضى الحكمة الداعية إلى المشيئة
ولا نضيع أجر المحسنين بل نوفيه بكماله وفيه إشعار بأن مدار
المشيئة المذكورة إحسان من تصيبه الرحمة المرقومة وأنها أجر له
ولدفع توهم انحصار ثمرات الإحسان فيما ذكر من الأجر العاجل
قيل على سبيل التوكيد
ولأجر الآخرة أي أجرهم في الآخرة بالإضافة للملابسة وهو النعيم
المقيم الذي لا نفاذ له
خير لهم أي للمحسنين المذكورين وإنما وضع موضعه الموصول
ف قيل
للذين آمنوا وكانوا يتقون تنبيها على أن المراد بالإحسان إنما هو
الإيمان والثبات على التقوى المستفاد من جمع صيغتي الماضي
والمستقبل
وجاء

وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون (58)
ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني
أوفي الكيل وأنا خير المنزلين (59)

يوسف الآية 59 أخوة يوسف ممتارين لما أصاب أرض كنعان وبلاد
الشام ما أصاب أرض مصر وقد كان أرسلهم يعقوب عليه السلام
جميعا غير بنيامين
فدخلوا عليه أي على يوسف وهو في مجلس ولايته
فعرفهم لقوة فهمه وعدم مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ
لمفارقتهم إياهم وهم رجال وتشابه هياتهم وزبهم في الحالين ولكون
همته معقودة بهم وبمعرفة أحوالهم لا سيما في زمن القحط وعن
الحسن ما عرفهم حتى تعرفوا له
وهم له منكرون أي والحال أنهم منكرون له لطول العهد وتباين ما
بين حاله عليه السلام في نفسه ومنزلته وزبه ولاعتقادهم أنه هلك
وحيث كان إنكارهم له أمرا مستمرا في حالتي المحضر والمغيب

أخبر عنه بالجملة الإسمية بخلاف عرفانه عليه السلام إياهم ولما جهزهم بجهازهم أي أصلحهم بعدتهم من الزاد وما يحتاج إليه المسافر وأوقر ركائبهم بما جاءوا له من الميرة وقرىء بكسر الجيم

قال أئتوني بأخ لكم من أبيكم لم يقل بأخيكم مبالغة في إظهار عدم معرفته لهم ولعله عليه السلام إنما قاله لما قيل من أنهم سألوه عليه السلام حملا زائدا على المعتاد لنيامين فأعطاهم ذلك وشرطهم أن يأتوا به لا لما قيل من أنه لما رأوه وكلموه بالعبرية قال لهم من أنتم فإني أنكركم فقالوا له نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لهم لعلكم جئتم عيونا فقالوا معاذ الله نحن أخوة من أبي واحد وهو شيخ كبير صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب قال كم أنتم قالوا كنا اثني عشر فهلك منا واحد فقال كم أنتم قالوا عشرة قال فأين الحادي عشر قالوا هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك قال فمن يشهد لكم أنكم لستم عيونا وأن ما تقولون حق قالوا نحن ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا قال فدعوا بعضكم عندي رهينة وأئتوني بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم فاقترعوا فأصاب القرعة شمعون فخلفوه عنده إذ لا يساعده ورود الأمر بالإتيان به عند التجهيز ولا الحث عليه بإيفاء الكيل ولا الإحسان في الإنزال ولا الإقتصار على منع الكيل على تقدير عمد الإتيان به ولا جعل بضاعتهم في رحالهم لأجل رجوعهم ولا عدتهم بالإتيان به بطريق المراودة ولا تعليفهم عند أبيهم إرسال أخيههم بمنع الكيل من غير ذكر الرسالة على أن استبقاء شمعون لو وقع لكان ذلك طامة ينسى عندها كل قيل وقال ألا ترون أن أوفي الكيل أتمه لكم وإيثار صيغة الإستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجهيز للدلالة على أن ذلك عادة له مستمرة وأنا خير المنزلين جملة حالية أي ألا ترون أنني أوفي الكيل لكم إيفاء مستمرا والحال أنني في غاية الإحسان في إنزالكم وضيافتكم وقد كان الأمر كذلك وتخصيص الرؤية بالإيفاء لوقوع الخطاب في أثناءه وأما الإحسان في الإنزال فقد كان مستمرا فيما سبق ولحق ولذلك أخبر عنه بالجملة الإسمية ولم يقله عليه السلام بطريق الإمتنان بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به والإقتصار في الكيل على ذكر الإيفاء لأن معاملته عليه السلام معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم في مراعات مواجب العدل وأما الضيافة فليس للناس فيها حق فخصهم في ذلك بما شاء

فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون (60) قالوا
سنراود عنه أباه وأنا لفاعلون (61) وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم
في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون (62)
فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا
أخانا نكتل وإنما له لحافظون (63)

يوسف الآية 60 61 62 63

فإن لم تأتوين به فلا كيل لكم عندي من بعد فضلا عن إيفائه
ولا تقربون بدخول بلادي فضلا عن الإحسان في الإنزال والضيافة
وهو إما نهى أو نفى معطوف على محل الجزاء وفيه دليل على
أنهم كانوا على نية الإمتيار مرة بعد أخرى وأن ذلك كان معلوما له
عليه السلام
قالوا سنراود عنه أباه أي سنخادعه عنه ونحتال في انتزاعه من يده
ونجتهد في ذلك وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مناله
وإننا لفاعلون ذلك غير مفرطين فيه ولا متوانين أو لقادرون عليه لا
نتعانى به
وقال يوسف

لفتيانه غلمانة الكياليين جمع فتى وقرىء لفتيته وهي جمع قلة له
اجعلوا بضاعتهم في رحالهم فإنه وكل بكل رجل رجلا يعبى فيه
بضاعتهم التي شروا بها الطعام وكانت نعالا وأدما وإنما فعله عليه
السلام تفضلا عليهم وخوفا من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به
مرة أخرى وكل ذلك لتحقيق ما يتوخاه من رجوعهم بأخيه كما يؤذن
به قوله

لعلهم يعرفونها أي يعرفون حق ردها والتكرم في ذلك أو لكي
يعرفوها وهو ظاهر التعلق بقوله
إذا انقلبوا إلى أهلهم فإن معرفتهم لها مقيدة بالرجوع وتفرغ
الأوعية قطعا وأما معرفة حق التكرم في ردها فهي وإن كانت في
ذاتها غير مقيدة بذلك لكن لما كان ابتداءؤها حينئذ قيدت به
لعلهم يرجعون حسبما أمرتهم به فإن التفضل عليهم بإعطاء
البديلين ولا سيما عند إعواز البضاعة من أقوى الدواعي إلى الرجوع
وما قيل إنما فعله عليه السلام لما لم ير من الكرم أن يأخذ من

أبيه وإخوته ثمنا فكلام حق في نفسه ولكن ياباه التعليل المذكور
وأما أن علية الجعل المذكور للرجوع من حيث إن ديانتهم تحملهم
على رد البضاعة لأنهم لا يستحلون إمساكهم فمداره حسابهم أنها
بقيت في رحالهم نسيانا وظاهر أن ذلك مما لا يخطر ببال أحد أصلا
فإن هيئة التعبية تنادي بأن ذلك بطريق التفضل ألا يرى أنهم كيف
جزموا بذلك حين رأوها وجعلوا ذلك دليلا على التفضلات السابقة
كما ستحط به خيرا

فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع
يابانا منع منا الكيل أي فيما بعد وفيه ما لا يخفى من الدلالة على أن
كون الإمتيار مرة بعد مرة معهودا فيما بينهم وبينه عليه السلام
فأرسل معنا أخانا بنيامين إلى مصر وفيه إيذان بأن مدار المنع عدم
كونه معهم

نكتل بسببه من الطعام ما نشاء وقرأ حمزة

قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير
حافظا وهو أرحم الراحمين (64) ولما فتحوا متاعهم وجدوا
بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا
ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير (65)

يوسف الآية 64 65 والكسائي بالياء على إسناده إلى الأخ لكونه
سببا للإكتيال أو يكتل لنفسه مع اكتيالنا
وإننا له لحافظون من أن يصيبه مكروه
قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه يوسف
من قبل وقد قلت في حقه أيضا ما قلت ثم فعلتم به ما فعلتم فلا
أثق بكم ولا بحفظكم وإنما أفوض الأمر إلى الله
فالله خير حافظا وقرىء حفظا وانتصابهما على التمييز والحالية
على القراءة الأولى توهم تقييد الخيرية بتلك الحالة
وهو أرحم الراحمين فأرجو أن يرحمني بحفظه ولا يجمع على
مصيبتين وهذا كما ترى ميل منه عليه السلام إلى الإيذان والإرسال
لما رأى فيه من المصلحة
ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم أي تفضلا وقد علموا
ذلك بما مر من دلالة الحال وقرىء بنقل حركة الدال المدغمة إلى

الراء كما قيل في قيل وكيل
وقالوا استئناف مبني على السؤال كأنه قيل ماذا قالوا حينئذ فقيل
قالوا لأبيهم ولعله كان حاضرا عند الفتح
يا أبانا ما نبغي إذا فسر البغي بالطلب فما إما استفهامية منصوبة
به فالمعنى ماذا نبتغي وراء ما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا
وكرمه الداعي إلى امثال أمره والمراجعة إليه في الحوايج وقد
كانوا أخبروه بذلك وقالوا له إنا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا
كرامة لو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته وقوله تعالى
هذه بضاعتنا ردت إلينا جملة مستأنفة موضحة لما دل عليه الإنكار
من بلوغ اللطف غايته كأنهم قالوا كيف لا وهذه بضاعتنا ردها إلينا
تفضلا من حيث لا ندري بعدما من علينا من المنن العظام هل من
مزيد على هذا فنطلبه ولم يريدوا به الإكتفاء بذلك مطلقا أو التقاعد
عن طل بنظائره بل أرادوا الإكتفاء به في استيجاب الامثال لأمره
والإلتجاء إليه في استجلاب المزيد كما أشرنا إليه وقوله تعالى ردت
إلينا حال من بضاعتنا والعامل معنى الإشارة وإيثار صيغة البناء
للمفعول للإيدان بكمال الإحسان الناشئ عن كمال الإخفاء
المفهوم من كمال غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله
وقوله عز وجل

ونمير أهلنا أي نجلب إليهم الطعام من عند الملك معطوف على
مقدر ينسحب عليه رد البضاعة أي فنستظهر بها ونمير أهلنا
ونحفظ أخانا من المكاره حسبا وعدنا فما يصيبه من مكروه
ونزداد أي بواسطته ولذلك وسط الإخبار بحفظه بين الأصل والمزيد
كيل بغير أي وسق بغير زائدا على أوساق أباعرنا على قضية
التقسيط

ذلك أي ما يحمله أباعرنا
كيل يسير أي مكيل قليل لا يقوم بأودنا فهو استئناف وقع تعليلا لما
سبق كأنه قيل أي حاجة إلى الإزدياد فقيل ما قيل أو ذلك الكيل
الزائد شيء قليل لا يضايقنا فيه الملك أو سهل عليه لا يتعاضمه أو
أي مطلب نطلب من مهماتنا والجملة الواقعة بعده توضيح

قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتني به إلا أن
يحاط بكم فلما أتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل (66)

يوسف آية 66 وبيان لما يشعر به الإنكار من كونهم فائزين ببعض المطالب أو متمكنين من تحصيله فكأنهم قالوا بضاعتنا حاضرة فنستظهر بها ونمير أهلنا ونحفظ أخانا فما يصيبه شيء من المكاره ونزداد بسببه غير ما نكتاله لأنفسنا كيل بعير فأى شيء نتبغي وراء هذه المباغي وقرىء ما تبغي على خطاب يعقوب عليه السلام أي أي شيء تبغي وراء هذه المباغي المشتملة على سلامة أخينا وسعة ذات أيدينا أو وراء ما فعل بنا الملك من الإحسان داعيا إلى التوجه إليه والجملة الإستئنافية موضحة لذلك أو أي شيء تبغي شاهدا على صدقنا فيما وصفنا لك من إحسانه والجملة المذكورة عبارة عن الشاهد المدلول عليه بفحوى الإنكار وإما نافية فالمعنى ما نبغي شيئا غير ما رأينا من إحسان الملك في وجوب المراجعة إليه أو ما نبغي غير هذه المباغي وقيل ما نطلب منك بضاعة أخرى والجملة المستأنفة تعليل له وأما إذا فسر البغي بمجازة الحد فما نافية فقط والمعنى ما نبغي في القول وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا وكرمه الموجب لما ذكر والجملة المستأنفة لبيان ما ادعوا من عدم البغي وقوله ونمير أهلنا عطف على ما نبغي أي ما نبغي فيما ذكرنا من إحسانه وتحصيل أمثاله من مير أهلنا وحفظ أخينا فإن ذلك أهون شيء بواسطة إحسانه وقد جوز أن يكون كلاما مبتدأ أي جملة اعتراضية تذييلية على معنى وينبغي أن نمير أهلنا وشبه ذلك بقولك سعيت في حاجة فلان ويجب أن أسعى وأنت خير بأن شأن الجمل التذييلية أن تكون مؤكدة لمضمون الصدر ومقررة له كما في المثال المذكور وقولك فلان ينطق بالحق فالحق أبلغ وإن قوله ونمير الخ وإن ساعدنا في حمله على معنى ينبغي أن نمير أهلنا بمعزل من ذلك أو ما نبغي في الرأي وما نعدل عن الصواب فيما نشير به عليك من إرسال أخينا معنا والجملة إلى آخرها تفصيل وبيان لعدم بغيم وإصابة رأيهم أي بضاعتنا حاضرة نستظهر بها ونمير أهلها ونصنع كيت وذيت فتأمل قال لن أرسله معكم بعدما عاينت منكم ما عاينت حتى تؤتوني موثقا من الله أي ما أتوثق به من جهة الله عز وجل وإنما جعله موثقا منه تعالى لأن تأكيد اليهود به مأذون فيه من جهته تعالى فهو إذن منه عز وجل لتأتيني به جواب القسم إذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتيني به إلا أن يحاط بكم أي إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا به أو إلا أن تهلكوا

وأصله من إحاطة العدو فإن من أحاط به العدو فقد هلك غالبا وهو استثناء من أعم الأحوال أو أعم العلل على تأويل الكلام بالنفي الذي ينساق إليه أي لتأتني به ولا تمتنع منه في حال من الأحوال أو لعله من العلل إلا حال الإحاطة بكم أو لعله الإحاطة بكم ونظيره قولهم أقسمت عليك لما فعلت وإلا فعلت أي ما أريد منك إلا فعلك وقد جوز الأول بلا تأويل أيضا أي لتأتني به على كل حال إلا حال الإحاطة بكم وأنت تدري أنه حيث لم يكن الإتيان به من الأفعال الممتدة الشاملة للأحوال على سبيل المعية كما في قولك لألزمك إلا أن تعطيني حقي ولم يكن مراده عليه السلام مقارنته على سبيل البدل لما عدا الحال المستثناة كما إذا قلت صل إلا أن تكون

وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتكلم المتوكلون (67)

يوسف آية 67 محدثا بل مجرد تحققه ووقوعه من غير إخلال به كما في قولك لأحجن العام إلا أن أحصر فإن مرادك إنما هو الإخبار بعدم منع ما سوى حال الإحصار عن الحج إلا الإخبار بمقارنته لتلك الأحوال على سبيل البدل كما هو مرادك في مثال الصلاة كان اعتبار الأحوال معه من حيث عدم منعها منه قال المعنى إلى التأويل المذكور

فلما أتوه موثقهم عهدهم من الله حسبما أراد يعقوب عليه السلام قال الله على ما نقول أي على ما قلنا في أثناء طلب الموثق وإيتائه من الجانبين وإيثار صيغة الإستقبال لاستحضار صورته المؤدي إلى تثبتهم ومحافظةهم على تذكره ومراقبته وكيل مطلع رقيب يريد به عرض ثقته بالله تعالى وحثهم على مراعاة ميثاقهم

وقال ناصحا لهم لما أزمع على إرسالهم جميعا يا بني لا تدخلوا مصر

من باب واحد نهاهم عن ذلك حذارا من إصابة العين فإنهم كانوا ذوي جمال وشارة حسنة وقد كانوا تجملوا في هذه الكرة أكثر مما في المرة الأولى وقد اشتهروا في مصر بالكرامة والزلفى لدى

الملك بخلاف النوبة الأولى فكانوا مئنة لدنو كل ناظر وطموح كل طامح وإصابة العين بتقدير العزيز الحكيم ليست مما ينكر وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم إن العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر وقد كان صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسنين رضي الله عنهما بقوله أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة وكان صلى الله عليه وسلم يقول كان أبوكما يعوذ بها إسماعيل وإسحاق عليهم السلام رواه البخاري في صحيحه وقد شهدت بذلك التجارب ولما لم يكن عدم الدخول من باب واحد مستلزما للدخول من أبواب متفرقة وكان في دخولهم من بايين أو ثلاثة بعض ما في الدخول من باب واحد من نوع اجتماع مصحح لوقوع المحذور قال وادخلوا من أبواب متفرقة بيانا لما هو المراد بالنهي وإنما لم يكتف بهذا الأمر مع كونه مستلزما له إظهار لكمال العناية وإيدانا بأنه المراد بالأمر المذكور لا تحقيق لشيء آخر وما أغنى عنكم أي لا أنفعكم ولا أذع عنكم بتدبير من الله من شيء أي شيئا مما قضى عليكم فإن الحذر لا يمنع القدر ولم يرد به عليه السلام إلغاء الحذر بالمرة كيف لا وقد قال عز قائلًا ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وقال خذوا حذرکم بل أراد بيان أن ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة بل هو تدبير في الجملة وإنما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير وأن ذلك ليس بمدافعة للقدر بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه إليه

إن الحكم مطلقا
إلا لله لا يشاركه أحد ولا يمانعه شيء
عليه لا على أحد سواه
توكلت في كل ما آتي وأذر وفيه دلالة على أن ترتيب الأسباب غير
مخل بالتوكل
وعليه دون غيره

فليتوكل المتوكلون جمع بين الحرفين في عطف الجملة على الجملة مع تقديم الصلة للإختصاص مقيدا بالواو وعطف فعل غيره من تخصيص التوكل بالله عز وجل على فعل نفسه وبإلقاء سببية فعله لكونه نبيا لفعل غيره من المقتدين به فيدخل فيهم بنوه دخولا أوليا وفيه ما لا يخفى من حسن هدايتهم وإرشادهم إلى التوكل فيما هم بصده على الله عز وجل غير مغترين

وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون (67) ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون (68)

يوسف آية 68 بما وصاهم به من التدبير ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم من الأبواب المتفرقة من البلد قيل كانت له أربعة أبواب فدخلوا منها وإنما أكتفي بذكره لاستلزامه الإنتهاء عما نهوا عنه

ما كان ذلك الدخول

يغني فيما سيأتي عند وقوع ما وقع

عنهم عن الداخلين لأن المقصود به استدفاع الضرر عنهم والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل لتحقيق المقارنة الواجبة بين جواب لما ومدخوله فإن عدم الإغناء بالفعل إنما يتحقق عند نزول المحذور لا وقت الدخول وإنما المتحقق حينئذ ما أفاده الجمع المذكور من عدم كون الدخول المذكور مغنيا فيما سيأتي فتأمل

من الله من جهته

من شيء أي شيئا مما قضاه عليهم مع كونه مظنة لذلك في بادي الرأي حيث وصاهم به يعقوب عليه السلام وعملوا بموجبه واثقين بجدواه من فضل الله تعالى فليس المراد بيان سببية الدخول المذكور لعدم الإغناء كما في قوله تعالى فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا فإن مجيء النذير هناك سبب لزيادة نفورهم بل بيان عدم سببته للإغناء مع كونها متوقعة في بادي الرأي كما في قولك حلف أن يعطيني حقي عند حلول الأجل فلما حل لم يعطيني شيئا فإن المراد بيان عدم سببية حلول الأجل للإعطاء مع كونها مرجوة بموجب الحلف لا بيان سببته لعدم الإعطاء فالمآل بيان عدم ترتب الغرض المقصود على التدبير المعهود مع كونه مرجو الوجود لا بيان ترتب عدمه عليه ويجوز أن يراد ذلك أيضا بناء على ما ذكره عليه السلام في تضاعيف وصيته من أنه لا يغني عنهم من الله شيئا فكأنه قيل ولما فعلوا ما وصاهم به لم يفد ذلك شيئا ووقع الأمر

حسبما قال عليه السلام فلقوا ما لقوا فيكون من باب وقوع المتوقع فتأمل

إلا حاجة استثناء منقطع أي ولكن حاجة وحرارة كائنة في نفس يعقوب قضاها أي أظهرها ووصاهم بها دفعا للخاطرة غير معتقد أن للتدبير تأثيرا في تغيير التقدير وقد جعل ضمير الفاعل في قضاها للدخول على معنى أن ذلك الدخول قضى حاجة في نفس يعقوب وهي إرادته أن يكون دخولهم من أبواب متفرقة فالمعنى ما كان ذلك الدخول يغني عنهم من جهة الله تعالى شيئا ولكن قضى حاجة حاصلة في نفس يعقوب بوقوعه حسب إرادته فالإستثناء منقطع أيضا وعلى التقديرين لم يكن للتدبير فائدة سوى دفع الخاطرة وأما إصابة العين فإنما لم تقع لكونها غير مقدرة عليهم لا لأنها اندفعت بذلك مع كونها مقتضية عليهم وإنه ل ذو علم جليل

لما علمناه لتعليمنا إياه بالوحي ونصب الأدلة حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر وأن التدبير له حظ من التأثير حتى يتبين الخلل في رأيه عند تخلف الأثر أو حيث بت القول بأنه لا يغني عنهم من الله شيئا فكان الحال كما قال وفي تأكيد الجملة بأن واللام وتكثير العلم وتعليقه بالتعليم المسند إلى ذاته سبحانه من الدلالة على جلاله شأن يعقوب عليه السلام وعلو مرتبة علمه وفخامته ما لا يخفى

ولكن أكثر الناس لا يعلمون أسرار القدر ويزعمون أنه يغني عنه الحذر وأما ما يقال من أن المعنى لا يعلمون إيجاب الحذر مع أنه لا يغني شيئا من القدر فيأباه مقام بيان تخلف المطلوب عن المبادي

ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون (69) فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون (70)

يوسف آية 69 71

ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه بنيامين أي ضمه إليه في الطعام أو في المنزل أو فيهما روى أنهم لما دخلوا عليه قالوا له هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم أحسنتم وستجدون ذلك عندي

فأكرمهم ثم أضافهم وأجلسهم مثنى مثنى فبقي بنيامين وحيدا
فبكى وقال لو كان أخي يوسف حيا لأجلسني معه فقال يوسف
بقي أخوكم فريدا وأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله ثم أنزل
كل اثنين منهم بيتا فقال هذا لا ثاني معه فيكون معي فبات يوسف
يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح وسأله عن ولده فقال لي
عشرة بنين اشتقت أسماءهم من اسم أخ لي هلك فقال له أتحب
أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال من يجد أخا مثلك ولكن لم
يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وتعرف إليه
وعند ذلك

قال إني أنا أخوك يوسف
فلا تبتئس أي فلا تحزن

بما كانوا يعملون بنا فيما مضى فإن الله تعالى قد أحسن إلينا
وجمعنا بخير ولا تعلمهم بما أعلمتك قاله ابن عباس رضي الله
تعالى عنهما وعن وهب إنه لم يتعرف إليه بل قال له أنا أخوك بدل
أخيك المفقود ومعنى فلا تبتئس لا تحزن بما كنت تلقى منهم من
الحسد والأذى فقد أمنتهم وروى أنه قال له فأنا لا أفارقك قال قد
علمت باغتمام والدى بي فإذا حبستك يزداد غمه ولا سبيل إلى ذلك
إلا أن أنسبك إلى ما لا يجمل قال لا أبالي فأفعل ما بدا لك قال
أدس صاعى في رحلك ثم أنادى عليك بانك سرقته ليتها لي ردك
بعد تسريحك معهم قال افعل

فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية أي المشربة قيل كانت مشربة
جعلت صاعا يكال به وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال بها
الحبوب وكانت من فضة وقيل من ذهب وقيل من فضة مموهة
بالذهب وقيل كانت إناء مستطيلة تشبه المكوك الفارسي الذي
يلتقى طرفاه يستعمله الأعاجم وقيل كانت مرصعة بالجواهر
في رحل أخيه بنيامين وقرىء وجعل على حذف جواب لما تقديره
أمهلهم حتى انطلقوا ثم أذن مؤذن نادى مناد
أيتها العير وهي الإبل التي عليها الأحمال لأنها تعبر أي تذهب وتجيء
وقيل هي قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع
عير وأصلها فعل مثل سقف وسقف ففعل به ما فعل ببيض وغيد
والمراد أصحابها كما في قوله عليه السلام يا خيل الله اركبي روى
أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا منزلا وقيل خرجوا من
العمارة ثم أمر بهم فأدرکوا ونودوا
إنكم لسارقون هذا الخطاب إن كان يأمر يوسف فلعله أريد

بالسرقة أخذهم له من أبيه ودخول بنيامين فيه بطريق التغليب وإلا
فهو من قبل المؤذن بناء على زعمه والأول هو الأظهر الأوفق
للسياق وقرأ اليماني سارقون بلالام
قالوا أي الأخوة
وأقبلوا

قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون (71) قالوا نفقد صواع الملك
ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم (72) قالوا تالله لقد علمتم
ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين (73)

يوسف آية 72 73 عليهم جملة حالية من ضمير قالوا جيء بها
للدلالة على انزعاجهم مما سمعوه لمباينته لحالهم
ماذا تفقدون أي تعدمون تقول فقدت الشيء إذا عدتمه بأن ضل
عنك لا بفعلك والمال ماذا أضاع عنكم وصيغة المستقبل لاستحضار
الصورة وقرئ تفقدون من أفقدته إذا وجدته فقيدا وعلى
التقديرين فالعدول عما يقتضيه الظاهر من قولهم ماذا سرق منكم
ليبان كمال نزاهتهم بإظهار أنه لم يسرق منهم شيء فضلا أن
يكونوا هم السارقين له وإنما الممكن أن يضيع منهم شيء
فيسألونهم أنه ماذا وفيه إرشاد لهم إلى مراعاة حسن الأدب
والإحتراز عن المجازفة ونسبة البراء إلى ما لا خير فيه لا سيما
بطريق التوكيد فلذلك غيروا كلامهم حيث
قالوا في جوابهم

نفقد صواع الملك ولم يقولوا سرقتموه أو سرق وقرئ صاع
وصوع وصوع بفتح الصاد وضمها وبإهمال العين وإعجامها من
الصياغة ثم قالوا تربية لما تلقوه من قبلهم وإراءة لاعتقاد أنه إنما
بقي في رحلهم اتفاقا

ولمن جاء به من عند نفسه مظهرا له قبل التفتيش
حمل بعير من الطعام جعل له لا على نية تحقيق الوعد لجزمهم
بامتناع وجود الشرط وعزمهم على ما لا يخفى من أخذ من وجد
في رحله

وأنا به زعيم كفيل أؤديه إليه وهو قول المؤذن
قالوا تالله الجمهور على أن التاء بدل من الواو ولذلك لا تدخل إلا

على الجلالة المعظمة أو الرب المضاف إلى الكعبة أو الرحمن في قول ضعيف ولو قلت تالرحيم لم يجز وقيل من الباء وقيل أصل بنفسها وأيا ما كان ففيه تعجب
لقد علمتم علما جازما مطابقا للواقع
ما جئنا لنفسد في الأرض أي لنسرق فإنه من أعظم أنواع الإفساد أو لنفسد فيها أي إفساد كان مما عز أو هان فضلا عما نسبتمونا إليه من السرقة ونفي المجيء للإفساد وإن لم يكن مستلزما لما هو مقتضى المقام من نفي الإفساد مطلقا لكنهم جعلوا المجيء الذي يترتب عليه ذلك ولو بطريق الإتفاق مجيئا لغرض الإفساد مفعولا لأجله ادعاء إظهار لكمال قبحه عندهم وتربية لاستحالة صدوره عنهم كما قيل في قوله تعالى ما يبذل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد الدال بظاهره على نفي المبالغة في الظلم دون نفي الظلم في الجملة الذي هو مقتضى المقام من أن المعنى إذا عذبت من لا يستحق التعذيب كنت ظلما مفرطا في الظلم فكأنهم قالوا إن صدر عنا إفساد كان مجيئا لذلك مريدين به تقييح حاله وإظهار كمال نزاهتهم عنه يعنون أنه قد شاع بينكم في كرسي مجيئا ما نحن عليه وقد كانوا على غاية ما يكون من الديانة والصيانة فيما يأتون ويذرون حتى روى أنهم دخلوا مصر وأفواه رواحلهم مكمومة لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد وكانوا مثابرين على فنون الطاعات وعلمتم بذلك أنه لا يصدر عنا إفساد
وما كنا سارقين أي ما كنا نوصف بالسرقة قط وإنما حكموا بعلمهم ذلك لأن العلم بأحوالهم الشاهدة يستلزم العلم بأحوالهم الغائبة وإنما لم يكتفوا بنفي الأمرين المذكورين بل استشهدوا بعلمهم بذلك إلزاما للحجة عليهم وتحقيقا للتعجب المفهوم من تاء القسم

قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين (74)

يوسف الآية 74 76

قالوا أي أصحاب يوسف عليه السلام
فما جزاؤه الضمير للصواع على حذف المضاف أي فما جزاء
سرقة عندكم وفي شريعتكم
إن كنتم كاذبين لا في دعوى البراءة عن السرقة فإنهم صادقون

فيها بل فيما يستلزمه ذلك من نفي كون الصواع فيهم كما يؤذن به قوله عز وجل

قالوا جزاؤه من وجد أي أخذ من وجد الصواع في رحلة حيث ذكر بعنوان الوجدان في الرحل دون عنوان السرقة وإن كان ذلك مستلزماً لها في اعتقادهم المبني على قواعد العادة ولذلك أجابوا بما أجابوا فإن الأخذ والإسترقاق سنة إنما هو جزاء السارق دون من وجد في يده مال غيره كيفما كان فتأمل واحمل كلام كل فريق على ما لا يزاحم رأيه فإنه أقرب إلى معنى الكيد وأبعد من الإفتراء وقوله تعالى

فهو جزاؤه تقرير لذلك الحكم أي فأخذه جزاؤه كقولك حق الضيف أن يكرم فهو حقه ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية كما هي خبره على إقامة الظاهر مقام المضمرة والأصل جزاؤه من وجد في رحله فهو هو على أن الأول لمن والثاني للظاهر الذي وضع موضعه

كذلك أي مثل ذلك الجزاء الأوفى نجزي الظالمين بالسرقة تأكيد للحكم المذكور غب تأكيد وبيان لقبح السرقة ولقد فعلوا ذلك ثقة بكمال براءتهم عنها وهم عما فعل بهم غافلون

فبدأ يوسف بعد ما راجعوا إليه للتفتيش بأوعيتهم بأوعية الأخوة العشرة أي بتفتيشها قبل تفتيش وعاء أخيه بنيامين لنفي التهمة روى أنه لما بلغت النوبة إلى وعائه قال ما أظن هذا أخذ شيئاً فقالوا والله لا تتركه حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا

ثم استخرجها أي السقاية أو الصواع فإنه يذكر ويؤنث من وعاء أخيه لم يقل منه على رجوع الضمير إلى الوعاء أو من وعائه على رجعه إلى أخيه قصداً إلى زيادة كشف وبيان وقريء بضم الواو وبقلبها همزة كما في أشاح في وشاح كذلك نصب على المصدرية والكاف مقحمة الدلالة على فخامة المشار إليه وكذا ما في ذلك من معنى البعد أي مثل ذلك الكيد العجيب وهو عبارة عن إرشاد الأخوة إلى الإفتاء المذكور بإجرائه على ألسنتهم وبحملهم عليه بواسطة المستفتين من حيث لم

يحتسبوا فمعنى قوله عز وجل كدنا ليوسف صنعنا له ودبرنا لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التي رتبها من دس الصواع وما يتلوه فاللام ليست كما في قوله

فيكيدوا لك كيدا فإنها داخلة على المتضرر على ما هو الإستعمال
الشائع وقوله تعالى
ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك استئناف وتعليل لذلك الكيد
وصنعه لا تفسير وبيان له كما قيل كأنه قيل لماذا فعل ذلك فقيل
لأنه لم يكن ليأخذ أخاه بما فعله في دين الملك في أمر السارق أي
في سلطانه قاله ابن عباس

قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين (74) قالوا جزاؤه من وجد في
رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين (75) فبدأ بأوعيتهم قبل
وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان
ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء
وفوق كل ذي علم عليم (76)

أو في حكمه وقضائه قاله قتادة إلا به لأن جزاء السارق في دينه
إنما كان ضربه وتغريمه ضعف ما أخذ دون الإسترقاق والإستعباد
كما هو شريعة يعقوب عليه السلام فلم يكن يتمكن بما صنعه من
أخذ أخيه بالسرقة التي نسبها إليه في حال من الأحوال
إلا أن يشاء الله أي إلا حال مشيئته التي هي عبارة عن إرادته لذلك
الكيد أو إلا حال مشيئته للأخذ بذلك الوجه ويجوز أن يكون الكيد
عبارة عنه وعن مبادئه المؤدية إليه جميعا من إرشاد يوسف وقومه
إلى ما صدر عنهم من الأفعال والأقوال حسبما شرح مرتبا لكن لا
على أن يكون القصر المستفاد من تقديم المجرور مأخوذا بالنسبة
إلى غيره مطلقا على معنى مثل ذلك الكيد كدنا لا كيدا آخر إذ لا
معنى لتعليله بعجز يوسف عن أخذ أخيه في دين الملك في شأن
السارق قطعا إذا لا علاقة بين مطلق الكيد ودين الملك في أمر
السارق أصلا بل بالنسبة إلى بعضه على معنى مثل ذلك الكيد البالغ
إلى هذا الحد كدنا له ولم نكتف ببعض من ذلك لأنه لم يكن يأخذ
أخاه في دين الملك به إلا حال مشيئتنا له بإيجاد ما يجري مجرى
الجزاء الصوري من العلة التامة وهو إرشاد إخوته إلى الإفتاء
المذكور وعلى هذا ينبغي أن يحمل القصر في تفسير من فسر
قوله تعالى كدنا ليوسف بقوله علمناه إياه وأوحينا به إليه أي مثل
ذلك التعليم المستتبع لما شرح مرتبا علمناه دون بعض من ذلك

فقط الخ وعلى كل حال فالإستثناء من أعم الأحوال كما أشير إليه ويجوز أن يكون من أعم العلل والأسباب أي لم يكن يأخذ أخاه لعله من العلل أو بسبب من الأسباب إلا لعله مشيئته تعالى أو إلا بسبب مشيئته تعالى وأيا ما كان فهو متصل لأن أخذ السارق إذا كان ممن يرى ذلك ويعتقده دينا لا سيما عند رضاه وإفتائه به ليس مخالفا لدين الملك وقد قيل معنى الإستثناء إلا أن يشاء الله أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك وأنت تدري أن المراد بدينه ما عليه حينئذ فتغييره محل بالإتصال وإرادة مطلق ما يتدين به أعم منه ومما يحدث تفضي إلى كون الإستثناء من قبيل التطبيق بالمحال إذ المقصود بيان عجز يوسف عليه السلام عن أخذ أخيه حينئذ ولم تتعلق المشيئة بالجعل المذكور إذا ذاك وإرادة عجزه مطلقا تؤدي إلى خلاف المراد فإن استثناء حال المشيئة المذكورة من أحوال عجزه عليه السلام مما يشعر بعدم الحاجة إلى الكيد المذكور فتدبر وقد جوز الإنقطاع أي لكن أخذه بمشيئة الله تعالى وإذنه في دين غير دين الملك

نرفع درجات أي رتبا كثيرة عالية من العلم وانتصابها على المصدرية أو الظرفية أو على نزع الخافض أي إلى درجات والمفعول قوله تعالى

من نشاء أي نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة كما رفعنا يوسف وإيثار صيغة الإستقبال للإشعار بأن ذلك سنة مستمرة غير مختصة بهذه المادة والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب

وفوق كل ذي علم من أولئك المرفوعين
عليم لا ينالون شأوه واعمل أنه إن جعل الكيد عبارة عن المعنيين الأولين فالمراد برفع يوسف عليه السلام ما اعتبر فيه بالشرطية أو الشطرية من إرشاده عليه السلام إلى دس الصواع في رحل أخيه وما يتفرع عليه من المقدمات المرتبة لاستبقاء أخيه مما يتم من قبله والمعنى أرشدنا أخوته إلى الإفتاء المذكور لأنه لم يكن متمكنا من أخذ أخيه بدونه أو أرشدنا كلا منهم ومن يوسف وأصحابه إلى ما صدر عنهم ولم نكتف بما تم من قبل يوسف فقط لأنه لم يكن متمكنا من أخذ أخيه بذلك فقله تعالى نرفع درجات إلى

قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه

ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون (77)

يوسف الآية 77 قوله تعالى عليم توضيح لذلك على معنى أن الرفع المذكور لا يوجب تمام مرامه إذ ليس ذلك بحيث لا يعزب عن علمه شيء بل إنما نرفع كل من نرفع حسب استعداده وفوق كل واحد منهم عليم لا يقادر قدر علمه ولا يكتنه كنهه يرفع كلا منهم إلى ما يليق به من معارج العلم ومدارجه وقد رفع يوسف إلى ما يليق به من الدرجات العالية وعلم أن ما حواه دائرة علمه لا يفي بمرامه فأرشد إخوته إلى الإفتاء المذكور فكان ما كان وكأنه عليه السلام لم يكن على يقين من صدور الإفتاء المذكور عن إخوته وإن كان على طمع منه فإن ذلك إلى الله عز وجل وجودا وعلمًا والتعرض لوصف العلم لتعيين جهة الفوقية وفي صيغة المبالغة مع التنكير والإلتفات إلى الغيبة من الدلالة على فخامة شأنه عز وعلًا وجلالة مقدار علمه المحيط ما لا يخفى وأما إن جعل عبارة عن التعليم المستتبع للإفتاء المذكور فالرفع عبارة عن ذلك التعليم والإفتاء وإن لم يكن داخلًا تحت قدرته عليه السلام لكنه كان داخلًا تحت عمله بواسطة الوحي والتعليم والمعنى مثل ذلك التعليم البالغ إلى هذا الحد علمناه ولم نقتصر على تعليم ما عدا الإفتاء الذي سيصدر عن إخوته إذ لم يكن متمكنًا من أخذ أخيه إلا بذلك فقوله نرفع درجات من نشاء توضيح لقوله كدنا وبيان لأن ذلك من باب الرفع إلى الدرجات العالية من العلم ومدح ليوسف برفعه إليها وقوله وفوق كل ذي علم عليم تذييل له أي نرفع درجات عالية من العلم من نشاء رفعه وفوق كل منهم عليم هو أعلى درجة قال ابن عباس رضي الله عنهما فوق كل عالم عالم إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى والمعنى أن إخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء إلا أن يوسف عليه السلام أفضل منهم وقرىء درجات من نشاء بالإضافة والأول أنسب بالتذييل حيث نسب فيه الرفع إلى من نسب إليه الفوقية لا إلى درجته ويجوز أن يكون العليم في هذا التفسير أيضا عبارة عن الله عز وجل أي وفوق كل من أولئك المرفوعين عليم يرفع كلا منهم إلى درجته اللائقة به والله تعالى أعلم قالوا إن يسرق يعنون بنيامين فقد سرق أخل له من قبل يريدون به يوسف عليه السلام وما جرى عليه من جهة عمته على ما قيل من أنها كانت تحضنه فلما شب

أراد يعقوب عليه السلام انتزاعه منها وكانت لا تصبر عنه ساعة
وكانت لها منطقة ورثتها من أبيها إسحق عليه السلام فاحتالت
لاستيقاء يوسف عليه السلام فعمدت إلى المنطة فحزمتها عليه من
تحت ثيابه ثم قالت فقدت منطة إسحاق عليه السلام فانظروا من
أخذها فوجدوها محزومة على يوسف فقالت إنه لي سلم أفعل به
ما أشاء فخلاه يعقوب عليه السلام عندها حتى ماتت وقيل كان أخذ
في صباحه صنما لأبي أمه فكسره وألقاه في الجيف وقيل دخل
كنيسة فأخذ تمثالا صغيرا من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه
فأسرها يوسف أي أكن الحزازة الحاصلة مما قالوا
في نفسه لا أنه أسرها لبعض أصحابه كما في قوله تعالى وأسرت
لهم إسرارا
ولم يبدها لهم لا قولا ولا فعلا صفحا عنهم وحلما وهو تأكيد لما سبق
قال أي في نفسه وهو استئناف

قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيئا كبيرا فخذ أحدا مكانه إنا نراك
من المحسنين (78) قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا
عنده إنا إذا لظالمون (79)

يوسف الآية 78 79 80 مبني على سؤال نشأ من الإخبار بالإسرار
المذكور كأنه قيل فماذا قال في نفسه في تضاعيف ذلك الإسرار
فقيل قال
أنتم شر مكانا أي منزلة حيث سرقتهم أخاكم من أبيكم ثم طفقتهم
تفترون على البريء وقيل بدل من أسرها والضمير للمقالة
المفسرة بقوله أنتم شر مكانا
والله أعلم بما تصفون أي عالم علما بالغا إلى أقصى المراتب بأن
الأمر ليس كما تصفون من صدور السرقة منا بل إنما هو افتراء
علينا فالصيغة لمجرد المبالغة لا لتفضيل علمه عز وجل على علمهم
كيف لا وليس لهم بذلك من علم
قالوا عندما شاهدوا مخايل أخذ بنيامين مستطفين
بأيها العزيز إن له أبا لم يريدوا بذلك الإخبار بأن له أبا فإن ذلك
معلوم مما سبق وإنما أرادوا الإخبار بأن له أبا
شيئا كبيرا في السن لا يكاد يستطيع فراقه وهو علالة به يتعلل عن

شقيقه الهالك
فخذ أحدنا مكانه فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة
إنا نراك من المحسنين إلينا فأتمم إحسانك بهذه التتمة أو
المتعودين بالإحسان فلا تغير عادتك
قال معاذ الله أي نعوذ بالله معاذًا من
أن نأخذ فحذف الفعل وأقيم مقامه المصدر مضافًا إلى المفعول به
بعد حذف الجار
إلا من وجدنا متاعنا عنده لأن أخذنا له إنما هو بقضية فتواكم فليس
لنا الإخلال بموجبها وإيثار صيغة التكلم مع الغير مع كون الخطاب
من جانب إخوته على التوحيد من باب السلوك إلى سنن الملوك أو
للإشعار بأن الأخذ والإعطاء ليس مما يستبد به بل هو منوط بأراء
أولى الحل والعقد وإيثار من وجدنا متاعنا عنده دون سرق متاعنا
لتحقيق الحق والإحتراز عن الكذب في الكلام مع تمام المرام فإنهم
لا يحملون وجدان الصواع في الرحل على محمل غير السرقة
إنا إذا أي إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده ولو برضاه
لظالمون في مذهبكم وما لنا ذلك وهذا المعنى هو الذي أريد
بالكلام في أثناء الحوار وله معنى باطن هو أن الله عز وجل إنما
أمرني بالوحي أن آخذ بنيامين لمصالح علمها الله في ذلك فلو
أخذت غيره كنت ظالما وعاملا بخلاف الوحي
فلما استيئسوا منه أي يئسوا من يوسف وإجباته لهم أشد بأس
بدلالة صيغة الإستفعال وإنما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس
لما شاهدوه من عوذه بالله مما طلبوه الدال على كون ذلك عنده
في أقصى مراتب الكراهة وأنه مما يجب أن يحترز عنه ويعاذ منه
بالله عز وجل ومن تسميته ظلما بقوله إنا إذا لظالمون
خلصوا اعتزلوا وانفردوا عن الناس
نجيا أي ذوي نجوى على أن يكون بمعنى النجوى والتناجي أو فوجا
نجيا على أن يكون بمعنى المناجي كالشعير والسمير بمعنى
المعاشر والمسامر

فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد
أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح
الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين (80)
ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما

علمنا وما كنا للغيب حافظين (81)

يوسف الآية 81 ومنه قوله تعالى وقربناه نجيا ويجوز أن يقال هم نجى كما يقال هم صديق لأنه بزنة المصادر من الزفير والزئير قال كبيرهم في السن وهو روبيل أو في العقل وهو يهوذا أو رئيسهم شمعون

ألم تعلموا كأنهم أجمعوا عند التناجي على الانقلاب جملة ولم يرض به فقال منكرنا عليهم ألم تعلموا

أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله عهدا يوثق به وهو حلفهم بالله تعالى وكونه من الله لإذنه فيه وكون الحلف باسمه الكريم ومن قبل أي ومن قبل هذا

ما فرطتم في يوسف قصرتم في شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم وقد قلت وإننا له لناصحون وإننا له لحافظون وما مزيدة أو مصدرية ومحل المصدر النصب عطفا على مفعول تعلموا أي ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقا وتفريطكم السابق في شأن يوسف عليه السلام ولا ضمير في الفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف وقد جوز النصب عطفا على اسم أن والخبر في يوسف أو من قبل على معنى ألم تعلموا أن تفريطكم السابق وقع في شأن يوسف عليه السلام أو أن تفريطكم الكائن أو كائنا في شأن يوسف عليه السلام وقع من قبل وفيه أن مقتضى المقام إنما هو الإخبار بوقوع ذلك التفريط لا يكون تفريطهم السابق واقعا في شأن يوسف كما هو مفاد الأول ولا يكون تفريطهم الكائن في شأنه واقعا من قبل كما هو مفاد الثاني على أن الظرف المقطوع عن الإضافة لا يقع خبرا ولا صفة ولا صلة ولا حالا عند البعض كما تقرر في موضعه وقيل محله الرفع على الإبتداء والخبر من قبل وفيه ما فيه وقيل ما موصولة أو موصوفة ومحلها النصب عطفا على مفعول تعلموا أي ما فرطتموه بمعنى قدمتموه في حقه من الخيانة وأما النصب عطفا على اسم أن والرفع على الإبتداء فقد عرفت حاله فلن أبرح الأرض متفرع على ما ذكره وذكره إياهم من ميثاق أبيه وقوله لتأتني به إلا أن يحاط بكم أي فلن أفارق أرض مصر جاريا على قضية الميثاق

حتى يأذن لي أبي في البراح بالإنصراف إليه وكان أيمانهم كانت معقودة على عدم الرجوع بغير إذن يعقوب عليه السلام

أو يحكم الله لي بالخروج منها على وجه لا يؤدي إلى نقض الميثاق
أو بخلاص أخي بسبب من الأسباب روى أنهم كلموا العزيز في
إطلاقه فقال روبيل أيها الملك لتردن إلينا أخانا أو لأصبحن صيحة لا
تبقى بمصر حامل إلا ألفت ولدها ووقفت كل شعرة في جسده
فخرجت من ثيابه وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لا يطاقون خلا أنه إذا
مس من غضب واحد منهم سكن غضبه فقال يوسف لابنه قم إلى
جنبه فمسه فمسه فقال روبيل من هذا إن في هذا البلد بذرا من
بذر يعقوب

وهو خير الحاكمين إذا لا يحكم إلا بالحق والعدل
ارجعوا أنتم

إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق على ظاهر الحال وقرىء
سرق أي نسب إلى السرقة

وما شهدنا عليه

إلا بما علمنا وشاهدنا أن الصواع استخرجت من وعائه

وما كنا للغيب أي باطن الحال

حافظين فما ندري أن حقيقة الأمر كما شاهدنا أم بخلافه أو وما كنا
عالمين حين أعطيناك الموثق أنه سيسرق أو أنا

واسأل القرية التي كنا فيها والغير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون (82)
قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن
يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم (83) وتولى عنهم وقال يا
أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم (84)

يوسف الآية 82 84 نلاقي هذا الأمر أو أنك تصاب به كما أصبت

بيوسف

واسأل القرية التي كنا فيها أي مصر أو قرية بقربها لحقهم المنادي

عندها أي أرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة

والغير التي أقبلنا فيها أي أصحابها فإن القصة معروفة فيما بينهم

وكانوا قوما من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام وقيل من

صنعاء

وإنا لصادقون تأكيد في محل القسم

قال أي يعقوب عليه السلام وهو استئناف مبني على سؤال نشأ

مما سبق فكأنه قيل فماذا كان عند قول المتوقف لإخوته ما قال
فقيل قال يعقوب عندما رجعوا إليه فقالوا له ما قالوا وإنما حذف
للإيدان بأن مسارعتهم إلى قبوله ورجوعهم به إلى أبيهم أمر مسلم
غني عن البيان وإنما المحتاج إليه جواب أبيهم
بل سولت أي زينت وسهلت وهو إضراب لا عن صريح كلامهم فإنهم
صادقون في ذلك بل عما يقتضيه من ادعاء البراءة عن التسبب
فيما نزل به وأنه لم يصدر عنهم ما يؤدي إلى ذلك من قول أو فعل
كأنه قيل لم يكن الأمر كذلك بل زينت
لكم أنفسكم أمرا من الأمور فأتيتموه يريد بذلك فتياهم بأخذ
السارق بسرقة

فصبر جميل أي فأمرني صبر جميل أو فصبر جميل أجمل
عسى الله أن يأتيني بهم جميعا بيوسف وأخيه والمتوقف بمصر
إنه هو العليم بحالي وحالهم
الحكيم الذي لم يبتلني إلا لحكمة بالغة
وتولى أي أعرض

عنهم كراهة لما سمع منهم
وقال يا أسفا على يوسف الأسف أشد الحزن والحسرة أضافه إلى
نفسه والألف بدل من الياء فناداه أي يا أسفي تعالى فهذا أوانك
وإنما أسف على يوسف مع أن الحادث مصيبة أخويه لأن رزاه كان
قاعدة الأرزاء غضا عنده وإن تقادم عهده آخذا بمجامع قلبه لا ينساه
ولأنه كان واثقا بحياتهما عالما بمكانهما طامعا في إياهما وأما
يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرك سلسلة رجائه سوى رحمه الله
تعالى وفضله وفي الخبر لم تعط أمة من الأمم إنا لله وإنا إليه
راجعون إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ألا يرى إلى يعقوب
حين أصابه ما أصابه لم يسترجع بل قال ما قال والتجانس بين
لفظي الأسف ويوسف مما يزيد النظم الكريمة بهجة كما في قوله
عز وجل وهم ينهون عنه وينأون عنه وقوله أثاقلتم إلى الأرض
أرضيتم وقوله ثم كلي من كل الثمرات وجئتكم من سبا بنبا يقين
ونظائرها

وابيضت عيناه من الحزن الموجب للبكاء فإن العبرة إذا كثرت
محقت سواد العين وقلبته إلى بياض كدر قيل قد عمي بصره وقيل
كان يدرك إدراكا ضعيفا روى أنه ما جفت عينا يعقوب من يوم فراق
يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاما وما على وجه الأرض أكرم على
الله عز وجل من يعقوب عليه السلام وعن رسول الله صلى الله

عليه وسلم أنه سأل جبريل عليه السلام ما بلغ من وجد يعقوب
عليه السلام

قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين
(85) قال إنما أشكو بشي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا
تعلمون (86) يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا
من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون (87)

يوسف الآية 85 87 على يوسف قال وجد سبعين ثكلى قال فما
كان له من الأجر قال أجر مائة شهيد وما ساء ظنه بالله ساعة قط
وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند النوائب فإن الكف عن
ذلك مما لا يدخل تحت التكليف فإنه قل من يملك نفسه عند
الشدائد ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده
إبراهيم وقال القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب
وإننا عليك يا إبراهيم لمحزونون وإنما الذي لا يجوز ما يفعله الجهلة
من الصياح والنياحة ولطم الخدود والصدور وشق الجيوب وتمزيق
الثياب وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه بكى على ولد بعض
بناته وهو يجود بنفسه فقيل يا رسول الله تيكى وقد نهيتنا عن
البكاء فقال ما نهيتهم عن البكاء وإنما نهيتكم عن صورتين أحمقين
صوت عند الفرح وصوت عند الترح
فهو كظيم مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له في قلبه لا
يظهره فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله تعالى وهو مكظوم من
كظم السقاء إذا شده على ملئه أو بمعنى فاعل كقوله والكاظمين
الغيظ من كظم الغيظ إذا اجترعه وأصله كظم البعير جرتة إذا ردها
في جوفه

قالوا تالله تفتأ أي لا تفتأ ولا تزال
تذكر يوسف تفجعا عليه فحذف حرف النفي كما في قوله ... فقلت
... يمينا الله أبرح قاعدا
لعدم الإلتباس بالإثبات فإن القسم إذا لم يكن معه علامة الإثبات
يكون على النفي البتة
حتى تكون حرضا مريضا مشفيا على الهلاك وقيل الحرص من أذابه
هم أو مرض وهو في الأصل مصدر ولذلك لا يؤنث ولا يثنى ولا

يجمع والنعته منه بالكسر كدنف وقد قرىء به وبضمين كجنب
وغرب
أو تكون من الهالكين أي الميتين
قال إنما أشكو بثي البث أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه
فيثته إلى الناس أي ينشره فكأنهم قالوا له ما قالوا بطريق التسلية
والإشكاء فقال لهم إنني لا أشكو ما بي إليكم أو إلى غيركم حتى
تتصدوا لتسليتي وإنما أشكو همي
وحزني إلى الله تعالى ملتجئاً إلى جنبه متضرعاً لدى بابه في دفعه
وقري بفتحيتين وضميتين
وأعلم من الله ما لا تعلمون من لطفه ورحمته فأرجو أن يرحمني
ويلطف بي ولا يخيب رجائي أو أعلم وحياً أو إلهاماً من جهته ما لا
تعلمون من حياة يوسف قيل رأى ملك الموت في المنام فسأله
عنه فقال هو حي وقيل علم من رؤيا يوسف عليه السلام أنه سيخر
له أبواه وإخوته سجداً
يا بني اذهبوا فتحسسوا أي تعرفوا وهو تفعل من الحس وقرىء
بالجيم من الحس وهو الطلب أي تطلبوا
من يوسف وأخيه أي من خبرهما ولم يذكر الثالث لأن غيبته
اختيارية لا يعسر إزالتها
ولا تياسوا من روح الله لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه وقرىء بضم
الراء أي من رحمته التي يحيي بها العباد وهذا إرشاد لهم إلى بعض
ما أبهم في قوله وأعلم من الله ما لا

فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة
مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين)
(88) قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون (89)

يوسف آية 88 89 تعلمون ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه
بقوله
إنه لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون لعدم علمهم بالله
تعالى وصفاته فإن العارف لا يقنط في حال من الأحوال
فلما دخلوا عليه أي على يوسف بعد ما رجعوا إلى مصر بموجب
أمر أبيهم وإنما لم يذكر ذلك إيذاناً بمسارعتهم إلى ما أمروا به

وإشعارا بأن ذلك أمر محقق لا يفتقر إلى الذكر والبيان
قالوا يا أيها العزيز أي الملك القادر المتمنع
مسنا وأهلنا الضر الهزال من شدة الجوع
وجئنا ببضاعة مزجاة مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارا
لها من أزجيته إذا دفعته وطرده والريح تزجى السحاب قيل كانت
بضاعتهم من متاع الأعراب صوفا وسمنا وقيل الصنوبر وحب
الخضراء وقيل سويق المقل والأقط وقيل دراهم زيوفا لا تؤخذ إلا
بوضيعة وإنما قدموا ذلك ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم ببعث
الشفقة وهز العطف والرأفة وتحريك سلسلة المرحمة ثم قالوا
فأوف لنا الكيل أي أتممه لنا وتصدق علينا برد أخينا إلينا قاله
الضحاك وابن جريج وهو الأنسب بحالهم نظرا إلى أمر أبيهم أو
بالإيفاء أو بالمسامحة وقبول المزجاة أو بالزيادة على ما يساويها
تفضلا وإنما سموه تصدقا تواضعا أو أرادوا التصديق فوق ما يعطيهم
بالثمن بناء على اختصاص حرمة الصدقة بنبينا وإنما لم يبدعوا بما
أمروا به استجلابا للرأفة والشفقة ليعثوا بما قدموا من رقة الحال
رقة القلب والحنو على أن ما ساقوه كلام ذو وجهين فإن قولهم
وتصدق علينا

إن الله يجزي المتصدقين يحتمل الحمل على المحملين فلعله عليه
السلام حمله على المحمل الأول ولذلك

قال مجيبا عما عرضوا به وضمنوه كلامهم من طلب رد أخيه
هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه وكان الظاهر أن يتعرض لما
فعلوا بأخيه فقط وإنما تعرض لما فعلوا بيوسف لاشتراكهما في
قوع الفعل عليهما فإن المراد بذلك أفرادهم له عن يوسف وإذلاله
بذلك حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذلة أي هل تبتم عن
ذلك بعد علمكم بقبحه فهو سؤال عن الملزوم والمراد لازمه
إذ أنتم جاهلون بقبحه فلذلك أقدمتم على ذلك أو جاهلون عاقبته
وإنما قاله نصحا لهم وتحريضا على التوبة وشفقة عليهم لما رأى
عجزهم وتمسكنهم لا معاتبة وتثريبا ويجوز أن يكون هذا الكلام منه
عليه السلام منقطعا عن كلامهم وتنبئها لهم على ما هو حقهم
ووظيفتهم من الإعراض عن جميع المطالب والتمحض في طلب
بنيامين بل يجوز أن يقف عليه السلام بطريق الوحي أو الإلهام على
وصية أبيه وإرساله إياهم للتحسس منه ومن أخيه فلما رأهم قد
اشتغلوا عن ذلك قال ما قال وقيل أعطوه كتاب يعقوب عليه
السلام وقد كتب فيه كتاب من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحق

ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر أما بعد فإننا أهل بيت موكل بنا البلاء أما جدى فشدت يده ورجلاه فرمى به في النار فنجاه الله تعالى وجعلت له بردا وسلاما وأما أبي فوضع السكين

قالوا أئنك لآنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين (90) قالوا تالله لقد أثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين (91) قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين (92)

يوسف آية 90 91 92 على قفاه ليقتل ففداه الله تعالى وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادى إلي فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخا بالدم فقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناى من بكائي عليه ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا إنه سرق وإنك حبسته وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فإن رددته على وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابيع من ولدك والسلام فلما قرأه لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ما قال وقيل لما قرأه بكى وكتب الجواب اصبر كما صبروا تظفروا كما تظفروا

قالوا أئنك لآنت يوسف استفهام تقرير ولذلك أكدوه بإن واللام قالوه استغرابا وتعجبا وقرىء إنك بالإيجاب قيل عرفوه بروائه وشمائله حين كلمهم به وقيل تبسم فعرفوه بثناياه وقيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارة ويعقوب مثلها وقرىء أئنك أو أنت يوسف على معنى أئنك يوسف أو أنت يوسف فحذف الأول لدلالة الثاني عليه وفيه زيادة استغراب قال أنا يوسف جوابا عن مسألتهم وقد زاد عليه قوله وهذا أخي أي من أبوى مبالغة في تعريف نفسه وتفخيما لشأن أخيه وتكملة لما أفاده قوله هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه حسبما يفيدته قوله

قد من الله علينا فكأنه قال هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال فأنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا بالخلاص عما ابتلينا به والاجتماع بعد الفرقة والعزة بعد الذلة والأنس بعد الوحشة ولا يبعد أن يكون فيه إشارة إلى الجواب عن طلبهم لرد بنيامين بأنه

أخى لا أخوكم فلا وجه لطلبكم ثم علل ذلك بطريق الإستئناف
التعليقي بقوله
إنه من يتق أي يفعل التقوى في جميع أحواله أو يق نفسه عما
يوجب سخط الله تعالى وعذابه
ويصبر على المحن أو على مشقة الطاعات أو عن المعاصي التي
تستلذها النفس
فإن الله لا يضيع أجر المحسنين أي أجرهم وإنما وضع المظهر
موضع المضمّر تنبيها على أن المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون
بالإحسان
قالوا تالله لقد آثرك الله علينا اختارك وفضلك علينا بما ذكرت من
النعوت الجليلة
وإن كنا وإن الشأن كنا
لخاطئين لمتعمدين للذنب إذ فعلنا بك ما فعلنا ولذلك أعزك وأذلنا
وفيه إشعار بالتوبة والإستغفار ولذلك
قال لا تشرب أي لا عتب ولا تأنيب
عليكم وهو تفعيل من الثرب وهو الشحم الغاشي للكرش ومعناه
إزالته كما أن التجليد إزالة الجلد والتقرع إزالة القرع لأنه إذا ذهب
كان ذلك غاية الهزال فضرب مثلا للتقرع الذي يذهب بماء الوجوه
وقوله عز وعل
اليوم منصوب بالتشريب أو بالمقدر خيرا للأى لا أثر بكم أو لا تشريب
مستقر عليكم اليوم الذي هو مظنة له فما ظنكم بسائر الأيام

أذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم
أجمعين (93) ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف
لولا أن تفندون (94) قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم (95)
فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم
إني أعلم من الله ما لا تعلمون (96)

يوسف الآية 93 94 95 96 أو بقوله
يغفر الله لكم لأنه حينئذ صفح عن جريمتهم وعفا عن جريرتهم بما
فعلوا من التوبة
وهو أرحم الرحمن يغفر الصغائر والكبائر ويتفضل على التائب

بالقبول ومن كرمه عليه الصلاة والسلام أن إخوته أرسلوا إليه إنك تدعوننا إلى طعامك بكرة وعشيا ونحن نستحي منك بما فرط منا فيك فقال عليه الصلاة والسلام إن أهل مصر وإن ملكت فيهم كانوا ينظرون إلي بالعين الأولى ويقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما ما بلغ ولقد شرفت بكم الآن وعظمت في العيون حيث علم الناس إنكم إخوتي وأني من حفدة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

أذهبوا بقميصي هذا قيل هو الذي كان عليه حينئذ وقيل هو القميص المتوارث الذي كان في التعويذ أمره جبريل بإرساله إليه وأوحى إليه أن فيح ريح الجنة لا يقع على مبتلى إلا عوفي فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا يكن بصيرا أو يأت إلي بصيرا وينصره قوله

وأتوني بأهلكم أجمعين أي بأبي وغيره ممن ينتظمه لفظ الأهل جميعا من النساء والذراري قيل إنما حمل القميص يهوذا وقال أنا أحزنته بحمل القميص ملطخا بالدم إليه فأفرحه كما أحزنته وقيل حمله وهو حاف حاسر من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخا

ولما فصلت العير خرجت من عريش مصر يقال فصل من البلد فصولا إذا انفصل منه وجاوز حيطانه وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انفصل العير

قال أبوهم يعقوب عليه الصلاة والسلام لمن عنده إنني لأجد ريح يوسف أوجده الله سبحانه ما عبق بالقميص من ريح يوسف من ثمانين فرسخا حين أقبل به يهوذا

لولا أن تفندون أي تنسبوني إلى الفند وهو الخرف وإنكار العقل وفساد الرأي من هرم يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفند إذ لم تكن في شبيبته ذات رأي فتفند في كبرها وجواب لولا محذوف أي لصدقتموني

قالوا أي الحاضرون عنده

تالله إنك لفي ضلالك القديم لفي ذهابك عن الصواب قدما في إفراط محبتك ليوسف ولهجك بذكره ورجائك للقاءه وكان عندهم أنه قد مات

فلما أن جاء البشير وهو يهوذا

ألقاه أي ألقى البشير القميص

على وجهه أي وجهه يعقوب أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه

فارتد عاد
بصيرا لما انتعش فيه من القوة
قال ألم أقل لكم يعني قوله إنني لأجد ريح يوسف فالخطاب لمن
كان عنده بكنعان أو قوله ولا تياسوا من روح الله فالخطاب لبنيه
وهو الأنسب بقوله
إنني أعلم من الله ما لا تعلمون

قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين (97) قال سوف
أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم (98) فلما دخلوا على
يوسف أوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين (99)

يوسف الآية 97 98 99 فإن مدار النهي المذكور إنما هو العلم
الذي أوتي يعقوب من جهة الله سبحانه وعلى هذا يجوز أن يكون
هذا مقول القول أي ألم أقل لكم حين أرسلتكم إلى مصر وأمرتكم
بالتحسس ونهيتكم عن اليأس من روح الله تعالى وأعلم من الله ما
لا تعلمون من حياة يوسف عليه الصلاة والسلام روى أنه سأل
البشير كيف يوسف فقال هو ملك مصر قال ما أصنع بالملك على
أي دين تركته قال على دين الإسلام قال الآن تمت النعمة
قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبا إنا كنا خاطئين ومن حق من اعترف
بذنبه أن يصفح عنه ويستغفر له فكأنهم كانوا على ثقة من عفوه
عليه الصلاة والسلام ولذلك اقتصروا على استدعاء الإستغفار
وأدرجوا ذلك في الإستغفار

قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم وهذا مشعر
بعفوه قيل آخر الإستغفار إلى وقت السحر وقيل إلى ليلة الجمعة
ليتحرى به وقت الإجابة وقيل أخره إلى أن يستحل لهم من يوسف
عليه الصلاة والسلام أو يعلم أنه قد عفا عنهم فإن عفو المظلوم
شرط المغفرة ويعضده أنه روى عنه أنه استقبل القبلة قائما يدعو
وقام يوسف خلفه يؤمن وقاموا خلفهما أدلة خاشعين عشرين سنة
حتى بلغ جهدهم ووطنوا أنها الهلكة نزل جبريل عليه الصلاة والسلام
فقال إن الله قد أجاب دعوتك في ولدك وعقد موثيقهم بعدك على
النبوة فإن صح ثبتت نبوتهم وإن ما صدر عنهم إنما صدر قبل
الإستنباء وقيل المراد الإستمرار على الدعاء فقد روى أنه كان

يستغفر كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة وقيل قام إلى الصلاة في وقت السحر فلما فرغ رفع يديه فقال اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم فأوحى الله إليه إن الله قد غفر لك ولهم أجمعين فلما دخلوا على يوسف روى أنه وجه يوسف إلى أبيه جهازا ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه فاستقبله يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم فتلقوا يعقوب عليه الصلاة والسلام وهو يمشي متوكئا على يهودا فنظر إلى الخيل والناس فقال يا يهودا أهذا فرعون مصر قال لا بل ولدك فلما لقيه قال عليه الصلاة والسلام عليك يا مذهب الأحزان وقيل قال له يوسف يا أبت بكيت علي حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعا فقال بلى ولكني خشيت أن يسلب دينك فيحال بيني وبينك وقيل إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وكانوا حين خرجوا مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلا سوى الذرية والهرمي وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف

أوى إليه أبويه أي أباه وخالته وتنزّلها منزلة الأم كتنزّل العم منزلة الأب في قوله عز وجل وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق أو لأن يعقوب عليه الصلاة والسلام تزوجها بعد أمه وقال

ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم (100)

يوسف الآية 100 الحسن وابن إسحق كانت أمه في الحياة فلا حاجة إلى التأويل ومعنى أوى إليه ضمهما إليه واعتناقهما وكأنه عليه الصلاة والسلام ضرب في الملتقى مضربا فنزل فيه فدخلوا عليه فأواهما إليه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين من الشدائد والمكاره قاطبة والمشيمة متعلقة بالدخول على الأمن ورفع أبويه عند نزولهم بمصر على العرش على السرير تكرمة لهما فوق ما فعله لإخوته

وخرّوا له أي أبواه وإخوته
سجدا تحية له فإنه كان السجود عندهم جاريا مجرى التحية
والتكرمة كالقيامة والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها من عادات الناس
الفاشية في التعظيم والتوقير وقيل ما كان ذلك إلا انحناء دون
تعفير الجباه ويأباه الخرور وقيل خرّوا لأجله سجدا لله شكرا ويرده
قوله تعالى

وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي التي رأيتها وقصصتها عليك
من قبل في زمن الصبا

قد جعلها ربي حقا صدقا واقعا بعينه والإعتذار بجعل يوسف لمنزلة
... القبلة وجعل اللام كما في قوله ... أليس أول من صلى لقبلكم
يخفى وتأخيره عن الرفع على العرش ليس بنص في ذلك لأن
الترتيب الذكرى لا يجب كونه على وفق الترتيب الوقوعي فلعل
تأخيره عنه ليصل به ذكر كونه تعبيراً لرؤياه وما يتصل به من قوله
وقد أحسن بي المشهور استعمال الإحسان بالي وقد يستعمل بالباء
أيضا كما في قوله عز اسمه وبالوالدين إحسانا وقيل هذا بتضمين
لطف وهو الإحسان الخفي كما يؤذن به قوله تعالى إن ربي لطيف
لما يشاء وفيه فائدة لا تخفى أي لطف بي محسنا إلى غير هذا
الإحسان

إذا أخرجني من السجن بعدما ابتليت به ولم يصرح بقصة الجب
حذارا من تشريب إخوته لأن الظاهر حضورهم لوقوع الكلام عقيب
خرورهم سجدا واكتفاء بما يتضمنه قوله تعالى
وجاء بكم من البدو أي البادية

من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي أي أفسد بيننا بالإغواء
وأصله من نخس الرائض الدابة وحملها على الجري يقال نزغ
ونسغه إذا نخسه ولقد بالغ عليه الصلاة والسلام في الإحسان حيث
أسند ذلك إلى الشيطان

إن ربي لطيف لما يشاء أي لطيف التدبير لأجله رفيق حتى يجيء
على وجه الحكمة والصواب ما من صعب إلا وهو بالنسبة إلى
تدبيره سهل

إنه هو العليم بوجوه المصالح
الحكيم الذي يفعل كل شيء على قضية الحكمة روى أن يوسف
أخذ بيد يعقوب عليهما الصلاة والسلام فطاف به في خزائنه فأدخله
في خزائن الورق والذهب وخزائن الحلي وخزائن الثياب وخزائن
السلاح وغير ذلك فلما أدخله خزائن القراطيس قال يا بني ما أعقك

عندك هذه القراطيس وما كتبت إلى علي ثماني مراحل قال أمرني جبريل قال أو ما تسأله قال أنت أبسط إليه مني فسأله قال جبريل الله تعالى أمرني بذلك لقولك أخاف أن يأكله الذئب قال فهلا خفتني وروى أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم مات وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحق فمضى بنفسه ودفنه ثمة ثم عاد إلى مصر وعاش بعد

رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقتني بالصالحين (101) ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون (102)

يوسف الآية 101 102 أبيه ثلاثاً وعشرين سنة فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم له تاقت نفسه إلى الملك الدائم الخالد فتمنى الموت فقال

رب قد آتيتني من الملك أي بعضاً منه عظيماً وهو ملك مصر وعلمتني من تأويل الأحاديث أي بعضاً من ذلك كذلك إن أريد بتعليم تأويل الأحاديث تفهيم غوامض أسرار الكتب الإلهية ودقائق سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فالترتيب ظاهر وأما إن أريد به تعليم تعبير الرؤيا كما هو الظاهر فلعل تقديم إيتاء الملك عليه في الذكر لأنه بمقام تعداد النعم الفائضة عليه من الله سبحانه والملك أعرق في كونه نعمة من التعليم المذكور وإن كان ذلك أيضاً نعمة جليلة في نفسه ولا يمكن تمشية هذا الإعتذار فيما سبق لأن التعليم هناك وارد على نهج العلة الغائية للتمكين فإن حمل على معنى التملك لزم تأخره عنه وأما الواقع ههنا فمجرد التأخير في الذكر والعطف بحرف الواو لا يستدعي ذلك الترتيب في الوجود فاطر السموات والأرض مبدعهما وخالقهما نصب على أنه صفة للمنادي أو منادى آخر وصفه تعالى به بعد وصفه بالربوبية مبالغة في ترتيب مبادي ما يعقبه من قوله أنت وليي مالك أموري في الدنيا والآخرة أو الذي يتولاني بالنعمة فيهما إذ قد أتممت علي نعمة الدنيا

توفني اقبضني
مسلمًا وألحقني بالصالحين من آبائي أو بعامة الصالحين في الرتبة
والكرامة فإنما تتم النعمة بذلك قيل لما دعا توفاه الله عز وجل
طيبًا طاهرًا فتخاصم أهل مصر في دفنه وتشاحوا في ذلك حتى
هموا بالقتال فرأوا أن يصنعوا له تابوتًا من مرمر فجعلوه فيه
ودفنوه في النيل ليمر عليه ثم يصل إلى مصر ليكونوا شرعًا واحداً
في التبرك به وولد له أفرايم وميشا وإفرايم نون ولنون يوشع
فتى موسى عليه الصلاة والسلام ولقد توارثت الفراعنة من
العمالقة بعده مصر ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا
دين يوسف وآبائه إلى أن بعث الله تعالى موسى عليه الصلاة
والسلام

ذلك إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف وما فيه من معنى البعد لما
مر مرارًا من الدلالة على بعد منزلته أو كونه بالإنقضاء في حكم
البعيد والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره
من أنباء الغيب الذي لا يحوم حوله أحد وقوله
نوحيه إليك خبر بعد خبر أو حال من الضمير في الخبر ويجوز أن
يكون ذلك اسماً موصولاً ومن أنباء الغيب صلته ويكون الخبر نوحيه
إليك

وما كنت لديهم يريد إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام
إذ أجمعوا أمرهم وهو جعلهم إياه في غيابة الجب
وهم يمكرون به ويبغون له الغوائل حتى تقف على ظواهر
أسرارهم وبواطنها وتطلع على سرائرهم طراً وتحيط بما لديهم
خبراً وليس المراد مجرد نفي حضوره عليه الصلاة والسلام في
مشهد إجماعهم ومكرهم فقط بل في سائر المشاهد أيضاً وإنما
تخصيصه بالذكر لكونه مطلع القصة وأخفى أحوالها كما ينبىء عنه
قوله وهم يمكرون والخطاب وإن كان لرسول الله صلى الله عليه
وسلم لكن

وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين (103) وما تسألهم عليه من
أجر إن هو إلا ذكر للعالمين (104) وكأين من آية في السماوات
والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون (105) وما يؤمن
أكثرهم بالله إلا وهم مشركون (106) أفأمنوا أن تأتيهم غاشية
من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون (107)

يوسف الآية 103 104 105 106 107 المراد إلزام المكذبين
والمعنى ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك إذ لا سبيل إلى معرفتك
إياه سوى ذلك إذ عدم سماعك ذلك من الغير وعدم مطالعتك
للكتب أمر لا يشك فيه المكذبون أيضا ولم تكن بين ظهرا نبيهم عند
وقوع الأمر حتى تعرفه كما هو فتبلغه إليهم وفيه تهكم بالكفار
فكانهم يشكون في ذلك فيدفع شكهم وفيه أيضا إيذان بأن ما ذكر
من النبأ هو الحق المطابق للواقع وما ينقله أهل الكتاب ليس على
ما هو عليه يعني أن مثل هذا التحقيق بلا وحي لا يتصور إلا بالحضور
والمشاهدة وإذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي ومثله قوله تعالى
وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وقوله وما كنت
بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر
وما أكثر الناس يريد به العموم أو أهل مكة
ولو حرصت أي على إيمانهم وبالغت في إظهار الآيات القاطعة
الدالة على صدقك

بمؤمنين لتصميمهم على الكفر وإصرارهم على العناد روى أن
اليهود وقريشا لما سألوا عن قصة يوسف وعدوا أن يسلموا فلما
أخبرهم بها على موافقة التوراة فلم يسلموا حزن النبي صلى الله
عليه وسلم ف قيل له ذلك
وما تسألهم عليه أي على الأنبياء أو القرآن
من أجر من جعل كما يفعله حملة الأخبار
إن هو إلا ذكر عظة من الله تعالى
للعالمين كافة لا أن ذلك مختص بهم
وكأين من آية أي كأي عدد شئت من الآيات والعلامات الدالة على
وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته وحكمته غير هذه الآية
التي جئت بها

في السموات والأرض أي كائنة فيهما من الأجرام الفلكية وما فيها
من النجوم وتغير أحوالها ومن الجبال والبحار وسائر ما في الأرض
من العجائب الفاتنة للحصر
يمرون عليها أي يشاهدونها ولا يعبتون بها وقرىء برفع الأرض على
الإبتداء ويمرون خبره وقرىء بنصبها على معنى وبطئون الأرض
يمرون عليها وفي مصحف عبدالله والأرض يمشون عليها والمراد
ما يرون فيها من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من الآيات والعبء

وهم عنها معرضون غير ناظرين إليها ولا متفكرين فيها
وما يؤمن أكثرهم بالله في إقرارهم بوجوده وخالقيته
إلا وهم مشركون بعبادتهم لغيره أو باتخاذهم الأبحار والرهبان
أرباب أو بقولهم باتخاذهم تعالى ولدا سبحانه وتعالى عن ذلك علوا
كبيراً أو بالنور والظلمة وهي جملة حالية أي لا يؤمن أكثرهم إلا في
حال شركهم قيل نزلت الآية في أهل مكة وقيل في المنافقين
وقيل في أهل الكتاب
أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أي عقوبة

قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان
الله وما أنا من المشركين (108) وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً
نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف
كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا
تعقلون (109) حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا
جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين)
(110)

يوسف الآية 108 109 110 تغشاهم وتشملهم
أو تأتيهم الساعة بغتة فجأة من غير سابقة علامة
وهم لا يشعرون بإتيانها غير مستعدين لها
قل هذه سبيلي وهي الدعوة إلى التوحيد والإيمان والإخلاص
وفسرها بقوله
أدعو إلى الله على بصيرة بيان وحجة واضحة غير عمياء أو حال من
الضمير في سبيلي والعامل فيها معنى الإشارة
أنا تأكيد للمستكن في أدعو أو على بصيرة لأنه حال منه أو مبتدأ
خبره على بصيرة
ومن اتبعني عطف عليه
وسبحان الله وما أنا من المشركين مؤكداً لما سبق من الدعوة إلى
الله
وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً رد لقولهم لو شاء الله لأنزل ملائكة
نوحى إليهم كما أوحينا إليك وقرىء بالياء
من أهل القرى لأنهم أعلم وأحلم وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء

والقسوة
أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم
من المكذبين بالرسل والآيات فيحذروا تكذيبك
ولدار الآخرة أي الساعة أو الحياة الآخرة
خير للذين اتقوا الشرك والمعاصي
أفلا تعقلون فتستعملوا عقولكم لتعرفوا خيرية دار الآخرة وقرىء
بالياء على أنه غير داخل تحت قل
حتى إذا استيأس الرسل غاية لمحذوف دل عليه السياق أي لا
يغرنهم تماديهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء فإن من قبلهم قد
أمهلوا حتى آيس الرسل عن النصر عليهم في الدنيا أو عن إيمانهم
لانهماكهم في الكفر وتماديهم في الطغيان من غير وازع
وظنوا أنهم قد كذبوا كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون
عليه أو كذبهم رجأؤهم فإنه يوصف بالصدق والكذب والمعنى إن
مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله تعالى قد
تطاولت وتمادت حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم
في الدنيا
جاءهم نصرنا فجأة وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وظنوا
أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر فإن صح ذلك عنه فلعله
أراد بالظن ما يخطر بالبال من شبه الوسوسة وحديث النفس وإنما
عبر عنه بالظن تهويلا للخطب وأما الظن الذي هو ترجح أحد
الجانبيين على الآخر فلا يتصور ذلك من أحاد الأمة فما ظنك بالأنبياء
عليهم الصلاة والسلام وهم هم ومنزلتهم في معرفة شئون الله
سبحانه منزلتهم وقيل الضميران للمرسل إليهم وقيل الأول لهم
والثاني للرسل وقرىء بالتشديد أي ظن الرسل أن القوم كذبوهم
فيما أوعدوهم وقرىء بالتخفيف على بناء الفاعل على أن الضمير
للرسل أي ظنوا أنهم كذبوا عند قومهم فيما حدثوا به لما تراخى
عنهم ولم يروا له أثرا

لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن
تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم
يؤمنون (111)

يوسف الآية 111 أو على أن الأول لقومهم
فنجى من نشاء هم الرسل والمؤمنون بهم وقرىء فننجي على
لفظ المستقبل بالتخفيف والتشديد وقرىء فنجا
ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين إذا نزل بهم وفيه بيان لمن تعلق
بهم المشيئة
لقد كان في قصصهم أي قصص الأنبياء وأممهم وينصره قراءة من
قرا بكسر القاف أو قصص يوسف وإخوته
عبرة لأولي الألباب لذوي العقول المبرأة عن شوائب أحكام الحس
ما كان أي القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة
حديثا يفترى ولكن كان
تصديق الذي بين يديه من الكتب السماوية وقرىء بالرفع على أنه
خبر مبتدأ محذوف أي ولكن هو تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل
شيء مما يحتاج إليه في الدين إذ ما من أمر ديني إلا وهو يستند
إلى القرآن بالذات أو بوسط
وهدى من الضلالة
ورحمة ينال بها خير الدارين
لقوم يؤمنون أي يصدقونه لأنهم المنتفعون به وأما من عداهم فلا
يهتدون بهداه ولا ينتفعون بجدواه عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم علموا أرقاءكم سورة يوسف فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها
أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة
أن لا يحسد مسلما تم الجزء الرابع وبلية الجزء الخامس وأوله
سورة الرعد

المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر
الناس لا يؤمنون (1) الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم
استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل
مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون (2)

الرعد 21
سورة الرعد مدنية وقيل مكية إلا قوله ويقول الذين كفروا الآية
وأيها ثلاث وأربعون
بسم الله الرحمن الرحيم

المر اسم للسورة ومحله إما الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هذه السورة مسماة بهذا الاسم وهو أظهر من الرفع على الابتداء إذ لم يسبق العلم بالتسمية كما مر مرارا وقوله تعالى تلك على الوجه الأول مبتدأ مستقل وعلى الوجه الثاني مبتدأ ثان أو بدل من الأول أشير به إليه إيذانا بفخامته وأما النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اقرأ أو اذكر فتلك مبتدأ كما إذا جعل المر مسرودا على نمط التعديد أو بمعنى أنا الله أعلم وأرى على ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما والخبر على التقادير قوله تعالى آيات الكتاب أي الكتاب العجيب الكامل الغني عن الوصف به المعروف بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به فهو عبارة عن جميع القرآن أو عن الجميع المنزل حينئذ حسبما مر في مطلع سورة يونس إذ هو المتبادر من مطلق الكتاب المستغنى عن النعت وبه يظهر ما أريد من وصف الآيات بوصف ما أضيفت إليه من نعوت الكمال بخلاف ما إذا جعل عبارة عن السورة فإنها ليست بتلك المثابة من الشهرة في الاتصاف بذلك المغنية عن التصريح بالوصف على أنها عبارة عن جميع آياتها فلا بد من جعل تلك إشارة إلى كل واحدة منها وفيه مالا يخفى من التعسف الذي مر تفصيله في سورة يونس والذي أنزل إليك من ربك أي الكتاب المذكور بكماله لا هذه السورة وحدها الحق الثابت المطابق للواقع في كل ما نطق به الحقيق بأن يخص به الحقية لعراقته فيها وليس فيه ما يدل على إن ما عداه ليس بحق أصلا على أن حقيقته مستتبعة لحقية سائر الكتب السماوية لكونه مصدقا لما بين يديه ومهيما عليه وفي التعبير عنه بالموصول وإسناد الإنزال إليه بصيغة المبني للمفعول والتعرض لوصف الربوبية مضافا إلى ضميره عليه السلام من الدلالة على فخامة المنزل التابعة لجلالة شأن المنزل وتشريف المنزل إليه والإيماء إلى وجه بناء الخبر مالا يخفى ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بذلك الحق المبين لآخلائهم بالنظر والتأمل فيه فعدم إيمانهم متعلق بعنوان حقيقته لأنه المرجع للتصديق والتكذيب لا بعنوان كونه منزلا كما قيل ولانه وارد على طريقة الوصف دون الأخبار الله الذي رفع السموات

وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم

يتفكرون (3)

الرعد 3 أي خلقهن مرتفعات على طريقة قولهم سبحان من كبر الفيل وصغر البعوض لا أنه رفعها بعد أن لم تكن كذلك والجملة مبتدأ وخبر كقوله وهو الذي مد الأرض بغير عمد أي بغير دعائم جمع عماد كإهاب وأهب وهو ما يعمد به أي يسند يقال عمدت الحائط أي أدمته وقرىء عمد على جمع عمود بمعنى عماد كرسول ورسول إيراد صيغة الجمع لجمع السموات لا لأن المنفي عن كل واحدة منها عمد لا عماد ترونها استئناف استشهد به على ما ذكر من رفع السموات بغير عمد وقيل صفة لعمد جيء بها إيهاماً لأن لها عمداً غير مرئية هي قدرة الله تعالى ثم استوى أي استولى على العرش بالحفظ والتدبير أو استوى أمره وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة لله عز وجل بلا كيف وأياماً كان فليس المراد به القصد إلى إيجاد العرش وخلقها فلا حاجة إلى جعل كلمة ثم للتراخي في الرتبة وسخر الشمس والقمر ذللهما وجعلهما طائعين لما أريد منهما من الحركات وغيرها كل من الشمس والقمر يجري حسبما أريد منها لأجل مسمى لمدة معينة فيها تتم دورته كالسنة للشمس والشهر للقمر فإن كل منهما يجري كل يوم على مدار معين من المدارات اليومية أو لمدة ينتهي فيها حركاتها ويخرج جميع ما أريد منهما من القوة إلى الفعل أو لغاية يتم عندها ذلك والجملة بيان لحكم تسخيرهما يدبر بما صنع من الرفع والاستواء والتسخير أي يقضي ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة الأمر الخلق كله وأمر ملكوته وربو بيته يفصل الآيات الدلالة على كمال قدرته وبالغ حكمته أي يأتي بها مفصلة وهي ما ذكر من الأفعال العجيبة وما يتلوها من الأوضاع الفلكية الحادثة شيئاً فشيئاً المستتعبة للآثار الغريبة في السفليات على موجب التدبير والتقدير فالجملتان إما حالان من ضمير استوى وقوله وسخر الشمس والقمر من تنمة الاستواء وإما مفسرتان له أو الأولى حال منه والثانية من الضمير فيها أو كلاهما من ضمائر الأفعال المذكورة وقوله كل يجري لأجل مسمى من تنمة التسخير أو خبران عن قوله الله خبراً بعد خبر والموصول صفة للمبتدأ جيء به للدلالة على تحقيق الخبر وتعظيم شأنه كما في قول الفرزدق ... إن الذي سمك ... السماء بنى لنا

... بيتا دعائمه أعز وأطول

لعلكم عند معاينتكم لها وعثوركم على تفاصيلها بلقاء ربكم بملاقاته للجزاء توقنون فان من تدبرها حق التدبر أيقن أن من قدر على إبداع هذه الصنائع البديعة على كل شيء قدير وأن لهذه التدبيرات المتينة عواقب وغايات لا بد من وصولها وقد بينت على السنة الأنبياء عليهم السلام أن ذلك ابتلاء المكلفين ثم جزاؤهم حسب أعمالهم فإذن لا بد من الإيقان بالجزاء ولما قرر الشواهد العلوية أردفها بذكر الدلائل السفلية فقال وهو الذي مد الأرض أي بسطها طولاً وعرضاً قال الأصم المد هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه ففيه دلالة على بعد مداها وسعة أقطارها وجعل فيها رواسي أي جبالاً ثوابت في أحيازها من الرسو وهو ثبات الأجسام الثقيلة ولم يذكر الموصوف لاغناء غلبة الوصف بها

وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (3)

عن ذلك وانحصار مجيء فواعل جمعا لفاعل في فوارس وهو الك ونواكس إنما هو في صفات العقلاء وأما في غيرهم فلا يراعى ذلك أصلاً كما في قوله تعالى أياما معدودات وقوله الحج أشهر معلومات إلى غير ذلك فلا حاجة إلى أن يجعل مفرداً صفة لجمع القلة أعنى أجبالاً ويعتبر في جمع الكثرة أعنى جبالاً انتظامها لطائفة من جموع القلة وتنزيل كل منها منزلة مفرداً كما قيل على أنه لا مجال لذلك فان جمعية كل من صبغتي الجمعيتين إنما هي باعتبار الأفراد التي تحتها لا باعتبار انتظام جمع القلة للأفراد وجمع الكثرة لجموع القلة فكل منها جمع جبل لا أن جبالاً جمع أجبل كما أن طوائف جمع طائفة ولا إلى أن يلتجأ إلى جعل الوصف المذكور بالغلبة في عداد الأسماء التي تجمع على فواعل كما ظن على أنه لا وجه له لما أن الغلبة إنما هي في الجمع دون المفرد والتعبير عن الجبال بهذا العنوان لبيان تفرع قرار الأرض على ثباتها وأنهارا مجاري واسعة والمراد ما يجري فيها من المياه وفي نظمها مع الجبال في معمولية فعل واحد إشارة إلى أن الجبال منشأ للأنهار وبيان لفائدة

أخرى للجبال غير كونها حافظة للأرض عن الاضطراب المخل بثبات الإقدام وتقلب الحيوان متفرعة على تمكنه وتقلبه وهي تعيشه بالماء والكلاً ومن كل الثمرات متعلق بجعل في قوله تعالى جعل فيها زوجين اثنين أي اثنيينة حقيقية وهما الفردان اللذان كل منهما زوج الآخر وأكدبه الزوجين لئلا يفهم أن المراد بذلك الشفعان إذ يطلق الزوج على المجموع ولكن اثنيينة ذلك اثنيينة اعتبارية أي جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا ضر بين صنفين إما في اللون كالأبيض والأسود أو في الطعم كالحلو والحامض أو في القدر كالصغير والكبير أو في الكيفية كالحر والبارد وما أشبه ذلك ويجوز أن يتعلق بجعل الأول ويكون الثاني استثناءً لبيان كيفية ذلك الجعل يغشى الليل النهار استعارة تبعية تمثيلية مبنية على تشبيه إزالة نور الجو بالظلمة بتغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية أي يستر النهار بالليل والتركيب وان احتمل العكس أيضاً بالحمل على تقديم المفعول الثاني على الأول فان ضوء النهار أيضاً سائر لظلمة الليل إلا أن الأنسب بالليل أن يكون هو الغاشي وعد هذا في تضاعيف الآيات السفلية وان كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهراً باعتبار أن ظهوره في الأرض فان الليل إنما هو ظلها وفيما فرق موقع ظلها لا ليل أصلاً ولأن الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والإنضاج على أنهما أيضاً زوجان متقابلان مثلها وقرىء يغشى من التغشية إن في ذلك أي فيما ذكر من مد الأرض وابتادها بالرواسي وإجراء الأنهار وخلق الثمرات واغشاء الليل النهار وفي الإشارة بذلك تنبيه على عظم شأن المشار إليه في بابه لآيات باهرة وهي آثار تلك الأفاعيل البديعة جلت حكمت صانعها ففي على معناها فان تلك الآثار مستقرة في تلك الأفاعيل منوطة بها ويجوز أن يشار بذلك إلى تلك الآثار المدلول عليها بتلك الأفاعيل ففي تجريدية لقوم يتفكرون فان التفكير فيها يؤدي إلى الحكم بأن تكوين كل من ذلك على هذا النمط الرائق والأسلوب اللائق لا بد له من مكون قادر حكيم يفعل ما يشاء ويخار ما يريد لا معقب لحكمه وهو الحميد المجيد

وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (4)

الرعد 4 وفي الأرض قطع جملة مستأنفة مشتملة على طائفة أخرى من الآيات أي بقاع كثيرة مختلفة في الأوصاف فمن طيبة إلى سبخة وكريمة إلى زهيدة وصلبة إلى رخوة إلى غير ذلك متجاورات أي متلاصقات وفي بعض المصاحف قطعاً متجاورات أي جعل في الأرض قطعاً وجنات من أعناب أي بساتين كثيرة منها وزرع من كل نوع من أنواع الحبوب وإفراجه لمراعاة أصله ولعل تقديم ذكر الجنات عليه مع كونه عمود المعاش لظهور حالها في اختلافها ومباينتها لسائرهما ورسوخ ذلك فيها وتأخير قوله تعالى ونخيل لئلا يقع بينها وبين صفتها وهي قوله تعالى صنوان وغير صنوان فاصلة والصنوان جمع صنو كقنوان وقنو وهي النخلة التي لها رأسان وأصلها واحد وقرىء بضم الصاد على لغة بني تميم وقيس وقرىء جنات بالنصب عطفاً على زوجين وبالجر على كل الثمرات فلعل عدم نظم قوله تعالى وفي الأرض قطع متجاورات في هذا السلك مع أن اختصاص كل من تلك القطع بما لها من الأحوال والصفات بمحض جعل الخالق الحكيم جلت قدرته حين مد الأرض ودحاها للإيماء إلى كون تلك الأحوال صفات راسخة لتلك القطع وقرىء وزرع ونخيل بالجر عطفاً على أعناب أو جنات يسقي أي ما ذكر من القطع والجنات والزرع والنخيل وقرىء بالتأنيث مراعاة للفظ والأول أوفق بمقام بيان اتحاد الكل في حالة السقي بماء واحد اختلاف في طبيعه سواء كان السقي بماء الأمطار أو بماء الأنهار وتفضل مع تأخذ أسباب التشابه بمحض قدرتنا واختيارنا بعضها على بعض آخر منها في الأكل فيما يحصل منها من الثمر والطعم وقرىء بالياء على بناء الفاعل رداً على يدبر ويفصل ويغشى وعلى بناء المفعول وفيه ما لا يخفى من الفخامة والدلالة على أن عدم احتمال استناد الفعل إلى فاعل آخر مغن عن بناء الفعل للفاعل إن في ذلك الذي فصل من أحوال القطع والجنات آيات كثيرة عظيمة ظاهرة لقوم يعقلون يعلمون على قضية عقولهم فإن من عقل هذه الأحوال العجيبة لا يتعلم في الجزم بأن من قدر على إبداع هذه البدائع وخلق تلك الثمار المختلفة في الأشكال والألوان والطعوم والروائح في تلك القطع المتباينة المتجاورة وجعلها حدائق ذات بهجة قادر على إعادة ما أبداه بل هي أهون في القياس وهذه الأحوال وإن كانت هي الآيات أنفسها لا أنها

فيها إلا انه قد جردت عنها أمثالها مبالغة في كونها آية ففي تجريدية مثلها في قوله تعالى لهم فيها دار الخلد أو المشار إليه الأحوال الكلية والآيات أفرادها الحادثة شيئاً فشيئاً في الأزمنة وآحادها الواقعة في الأقطار والأمكنة المشاهدة لأهلها ففي على معناها وحيث كانت دلالة هذه الأحوال على مدلولاتها أظهر مما سبق علق كونها آيات بمحض التعقل ولذلك لم يتعرض لغير تفضيل بعضها على بعض في الأكل الظاهر لكل عاقل مع تحقق ذلك في الخواص والكيفيات مما يتوقف العثور عليه على نوع تأمل وتفكر كأنه لا حاجة في ذلك إلى التفكير أيضاً وفيه تعريض بأن المشركين غير عاقلين

وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (5) ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب (6)

الرعد 5 6 وان تعجب يا محمد من شيء فعجب لا أعجب منه حقيق بأن يقصر عليه التعجب قولهم بعد مشاهدة ما عدد لك من الآيات الشاهدة بأنه تعالى على كل شيء قدير أئذا كنا تراباً على طريقة الاستفهام الإنكاري المفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار وهو في محل الرفع على البدلية من قولهم على أنه بمعنى المقول أو في محل النصب على المفعولية منه على أنه مصدر فالعجب على الأول كلامهم وعلى الثاني تكلمهم بذلك والعامل في إذا ما دل عليه قوله أئنا لفي خلق جديد وهو نبعث أو نعاد وتقديم الظرف لتقوية الإنكار بالبعث بتوجيهه إليه في حالة منافية له وتكرير الهمزة في قولهم أئنا لتأكيد الإنكار وليس مدار إنكارهم كونهم ثابتين في الخلق الجديد بالفعل عند كونهم بعريضة ذلك واستعدادهم له وفيه من الدلالة على عتوهم وتماديهم في النكير ما لا يخفى وقيل إن تعجب من قولهم في إنكار البعث فعجب قولهم والمآل وان تعجب فقد تعجبت في موضع التعجب وقيل وان تعجب من إنكارهم البعث فعجب قولهم الدال عليه فتأمل وقد جوز كون الخطاب لكل من

يصلح له أي إن تعجب يا من ينظر في هذه الآيات من قدرة من هذه أفعاله فازدد تعجبا ممن ينكر مع هذه الدلائل قدرته تعالى على البعث وهو أهون من هذه والأنسب بقوله ويستعجلونك بالسيئة هو الأول وقوله تعالى فعجب خبر قدم على المبتدأ للقصر والتسجيل من أول الأمر بكون قولهم ذاك أمرا عجيبا ويجوز أن يكون مبتدأ لكونه موصوفا بالوصف المقدر كما أشير إليه فالمعنى وإن تعجب فالعجب الذي لا عجب وراءه قولهم هذا فاعجب منه وعلى الأول وإن تعجب فقولهم هذا عجب لا عجب فوقه أولئك مبتدأ والموصول خبره أي أولئك المنكرون لقدرة تعالى على البعث ريثما عاينوا ما فصل من الآيات الباهرة الملجئة لهم إلى الإيمان لو كانوا يبصرون الذين كفروا بربهم وتمادوا في ذلك فإن إنكارهم لقدرة عز وجل كفر به وأي كفر وأولئك مبتدأ خبره قوله الأغلال في أعناقهم أي مقيدون بقيود الضلال لا يرجى خلاصهم أو مغلولون يوم القيامة وأولئك الموصوفون بما ذكر من الصفات أصحاب النار هم فيها خالدون لا ينفكون عنها وتوسيط ضمير الفصل ليس لتخصيص الخلود بمنكري البعث خاصة بل بالجميع المدلول عليه بقوله تعالى أولئك الذين كفروا بربهم ويستعجلونك بالسيئة بالعقوبة التي أنذروها وذلك حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره قبل الحسنه أي العافية والإحسان إليهم بالإمهال وقد خلت من قبلهم المثالات أي عقوبات أمثالهم من المكذبين فما لهم لا يعتبرون بها ولا يحترزون حلول مثلها

ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد (7) الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار (8)

الرعد 8 7 بهم والجملة الحالية لبيان ركاكة رأيهم في الاستعجال بطريق الاستهزاء أي يستعجلونك بها مستهزئين بإنذارك منكرين لوقوع ما أنذرتهم إياه والحال أنه قد مضت العقوبات النازلة على أمثالهم من المكذبين والمستهزئين والمثلة بوزن السمرة العقوبة سميت بها لما بينها وبين المعاقب عليه من المماثلة ومنه المثال

القصاص وقرىء المثلات بضميتين باتباع الفاء العين والمثلات بفتح الميم وسكون الثاء كما يقال السمرة والمثلات بضم الميم وسكون الثاء تخفيف المثلات جمع مثلة كركبة وركبات وان ربك لذو مغفرة عظيمة للناس على ظلمهم أنفسهم بالذنوب والمعاصي ومحلها النصب على الحالية أي ظالمين والعامل فيه المغفرة والمعنى إن ربك لغفور للناس لا يعجل لهم العقوبة وان كانوا ظالمين بل يمهلم بتأخيرها وان ربك لشديد العقاب يعاقب من يشاء منهم حين يشاء فتأخير ما استعجلوه ليس للإهمال وعنه عليه الصلاة والسلام لولا عفو الله وتجاوزه ما هنا لأحد العيش ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد ويقول الذين كفروا وهم المستعجلون أيضا وإنما عدل عن الإضمار إلى الموصول ذما لهم ونعيا عليهم كفرهم بآيات الله تعالى التي تخر لها صم الجبال حيث لم يرفعوا لها رأسا ولم يعدوها من جنس الآيات وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه مثل آيات موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام عنادا ومكابرة وإلا ففي أدنى آية أنزلت عليه الصلاة والسلام غنية وعبرة لأولي الألباب إنما أنت منذر مرسل للإنذار من سوء عاقبة ما يأتون ويذرون كدأب من قبلك من الرسل وليس عليك إلا الإتيان بما يعلم به نبوتك وقد حصل ذلك بما لا مزيد عليه ولا حاجة إلى إلزامهم وإلزامهم الحجر بالإتيان بما اقترحوا من الآيات ولكل قوم هاد معين لا بالذات بل بعنوان الهداية يعني لكل قوم نبي مخصوص له هداية مخصوصة يقتضي اختصاص كل منهم بما يختص به حكم لا يعلمها إلا الله أو لكل قوم هاد عظيم الشأن قادر على ذلك هو الله سبحانه وما عليك إلا إنذارهم فلا يهمنك عنادهم وإنكارهم للآيات المنزلة عليك وازدراؤهم بها ثم عقبه بما يدل على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقدره المبنيين على الحكم والمصالح تنبها على أن تخصيص كل قوم بنبي وكل نبي بجنس معين من الآيات إنما هو للحكم الداعية إلى ذلك إظهارا لكمال قدرته على هدايتهم لكن لا يهدي إلا من تعلق بهدأيته مشيئته التابعة لحكم استأثر بعلمها فقال الله يعلم ما تحمل كل أنثى أي تحمله فما موصولة أريد بها ما في بطنها من حين العلق إلى زمن الولادة لا بعد تكامل الخلق فقط والعلم متعدد إلى واحد أو أي شيء تحمل وعلى أي حال هو من الأحوال المتواردة عليه طورا فطورا فهي استفهامية معلقة للعلم أو حملها فهي مصدرية وما تغيض الأرحام وما تزداد أي تنقصه وتزداده في الجثة كالخديج والتام وفي المدة كالمولود في أقل مدة الحمل والمولود في

أكثرها وفيما بينهما قيل إن الضحاك ولد في سنتين وهرم بن حيان في أربع ومن ذلك سمي هرما وفي العدد كالواحد فما فوقه يروى أن شريكا كان رابع أربعة أو يعلم نقصها وإزديادها

عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال (9) سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار (10) له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال (11)

الرعد 11 9 لما فيها فالفعالان متعديان كما في قوله تعالى وغيض الماء وقوله تعالى وازدادوا تسعا وقوله تزداد كيل بغير أولا زمان قد أسند إلى الأرحام مجازا وهما لما فيها وكل شيء من الأشياء عنده بمقدار بقدر لا يمكن تجاوزه عنه كقوله انا كل شيء خلقناه بقدر فان كل حادث من الأعيان والأعراض له في كل مرتبة من مراتب التكوين ومبادئها وقت معين وحال مخصوص لا يكاد يجاوزه والمراد بالعندية الحضور العلمي بل العلم الحضورى فان تحقق الأشياء في أنفسها في أي مرتبة كانت من مراتب الوجود والاستعداد لذلك علم له بالنسبة إلى الله عز وجل عالم الغيب أي الغائب عن الحس والشهادة أي الحاضر له عبر عنهما بهما مبالغة وقيل أريد بالغيب المعدوم وبالشهادة الموجود وهو خبر مبتدأ محذوف أو خبر بعد خبر وقرىء بالنصب على المدح وهذا كالدليل على ما قبله من قوله تعالى الله يعلم الخ الكبير العظيم الشأن الذي كل شيء دونه المتعال المستعلي على كل شيء بقدرته أو المنزه عن نعوت المخلوقات وبعد ما بين سبحانه أنه عالم بجميع أحوال الإنسان في مراتب فطرته ومحيط بعالمي الغيب والشهادة بين أنه تعالى عالم بجميع ما يأتون وما يذرون من الأفعال والأقوال وأنه لا فرق بالنسبة إليه بين السر والعلن فقال سواء منكم من أسر القول في نفسه ومن جهر به أظهره لغيره ومن هو مستخف مبالغ في الاختفاء كأنه مختف بالليل وطالب للزيادة وسارب بارز يراه كل أحد بالنهار من سرب سروباً أي برز وهو عطف على من هو مستخف أو على مستخف ومن عبارة عن الاثنين كما في قوله تعالى فان عاهدتني لا

تخونني نكن مثل من يا ذئب يصطحبان كأنه قيل سواء منكم اثنان
مستخف بالليل وسارب بالنهار والاستواء وان أسند إلي من أسر
ومن جهر والى المستخفي والسارب لكنه في الحقيقة مسند إلي
ما أسره وما جهر به أو والى الفاعل من حيث هو فاعل كما في
الأخيرين وتقديم الأسرار والاستخفاء لإظهار كمال علمه تعالى
فكأنه في التعلق بالخفيات أقدم منه بالظواهر والا فنسبته إلي
الكل سواء لما عرفته أنفا له أي لكل ممن أسر أو جهر
والمستخفي أو السارب معقبات ملائكة تعتقب في حفظه جمع
معقبة من عقبه مبالغة عقبه إذا جاء على عقبه كان بعضهم يعقب
بعضا أو لأنهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونه أو أعتقب فادغمت
التاء في القاف والتاء للمبالغة أو المراد بالمعقبات الجماعات
وقرىء معاقب جمع معقب أو معقبة على تعويض الياء من إحدى
القافين من بين يديه ومن خلفه من جميع جوانبه أو من الأعمال ما
قدم وآخر يحفظونه من أمر الله من بأسه حين أذنب بالاستمهال
والاستغفار له أو يحفظونه من المضار أو

هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال (12)

الرعد 12 13 يراقبون أحوال من أجل أمر الله تعالى وقد قرىء به
وقيل من بمعنى الباء وقيل من أمر الله صفة ثانية لمعقبات وقيل
المعقبات الحراس والجلالوزة حول السلطان يحفظونه في توهمه
من قضاء الله تعالى إن الله لا يغير ما بقوم من النعمة والعافية
حتى يغيروا ما بأنفسهم من الأعمال الصالحة أو ملكاتها التي هي
فطرة الله التي فطر الناس عليها إلى أضدادها وإذا أراد الله بقوم
سوءا لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك فلا مرد له فلا رد له
والعامل في إذا ما دل عليه الجواب وما لهم من دونه من وال يلي
أمرهم ويدفع عنهم السوء الذي أراد الله بهم بما قدمت أيديهم
من تغيير ما بهم وفيه دلالة على أن تخلف مراده تعالى محال
وإيدان بأنهم بما بأشروه من إنكار البعث واستعجال السيئة واقتراح
الآية قد غيروا ما بأنفسهم من الفطرة واستحقوا لذلك حلول غضب
الله تعالى وعذابه هو الذي يريكم البرق خوفا من الصاعقة وطمعا
في المطر فوجه تقديم الخوف على الطمع ظاهر لما أن المخوف

عليه النفس أو الرزق العتيد والمطموع فيه الرزق المترقب وقيل
الخوف أيضا من المطر لكن الخائف منه غير الطامع فيه كالخزاف
والحراث ويأباه الترتيب إلا أن يتكلف ما أشير إليه من أن المخوف
عتيد والمطموع فيه مترقب وانتصابهما إما على المصدرية أي
فتخافون خوفا وتطمعون طمعا أو على الحالية من البرق أو
المخاطبين باضمار ذوى أو بجعل المصدر بمعنى المفعول أو الفاعل
مبالغة أو على العلية بتقدير المضاف أي إرادة خوف وطمع أو
بتأويل الإخافة والإطماع ليتحد فاعل العلة والفعل المعلن وأما جعل
المعلل هي الرؤية التي تتضمنها الإرادة على طريقة قول النابغة ...
وحلت بيوتي في يفاع ممنع ... تخال به راعي الحمولة طائرا ...
... حذارا على أن لا ينال معاوني ... ولا نسوتي حتى يمتن حرائرا
أي أحللت بيوتي حذارا فلا سبيل إليه لأن ما وقع في معرض العلة
الغائبة لا سيما الخوف لا يصلح علة لرؤيتهم وينشئ السحاب الغمام
المنسحب في الجو الثقال بالماء وهي جمع ثقيلة وصف بها
السحاب لكونها اسم جنس في معنى الجمع والواحدة سحابة يقال
سحابة ثقيلة وسحاب ثقال كما يقال امرأة كريمة ونسوة كرام
ويسبح الرعد أي سامعوه من العباد الراجين للمطر ملتبسين
بحمده أي يضحون بسبحان الله والحمد لله وإسناده إلى الرعد
لحملة لهم على ذلك أو يسبح الرعد نفسه على أن تسيحه عبارة
عن دلالة على وحدانيته تعالى وفضله المستوجب لحمده وعن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول سبحان من يسبح الرعد
بحمده وإذا اشتد يقول اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك
وعافنا قبل ذلك وعن علي رضي الله عنه سبحان من سبحت له
وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن اليهود سألت النبي صلى الله
عليه وسلم عن الرعد فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه
مخاريق من نار

هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال (12)
ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب
بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال (13)

يسوق بها السحاب وعن الحسن خلق من خلق الله تعالى ليس

بملك والملائكة أي يسبح الملائكة من خيفته من هيئته واجلاله جل جلاله وقيل الضمير للرعء ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء فيهلكه بذلك وهم أي الكفرة المخاطبون في قوله تعالى هو الذي يريكم البرق وقد التفت إلى الغيبة ايدانا بإسقاطهم عن درجة الخطاب وإعراضا عنهم وتعديدا لجناياتهم لدى كل من يستحق الخطاب كأنه قيل هو الذي يفعل أمثال هذه الأفاعيل العجيبة من اراءة البرق وإنشاء السحاب الثقال وإرسال الصواعق الدالة على كمال علمه وقدرته ويعقلها من يعقلها من المؤمنين أو الرعد نفسه أو الملك الموكل به والملائكة ويعملون بموجب ذلك من التسييح والحمد والخوف من هيئته تعالى وهم أي الكفرة الذين حكيت هياتهم مع ذلهم وهوانهم وحقارة شأنهم يجادلون في الله أي في شأنه تعالى حيث يفعلون ما يفعلون من إنكار البعث واستعجال العذاب استهزاء واقتراح الآيات فالواو لعطف الجملة على ما قبلها من قوله تعالى هو الذي يريكم البرق الخ أو على قوله الله يعلم ما تحمل الخ وأما العطف على قوله تعالى ويقول الذين كفروا كما قيل فلا مجال له لأن قوله تعالى الله يعلم الخ استئناف لبيان بطلان قولهم ذلك ونظائره من استعجال العذاب وإنكار البعث قاطع لعطف ما بعده على ما قبله وقيل للحال أي فيصيب بالصواعق من يشاء وهم في الجدل وقد أريد به ما أصاب أريد بن ربيعه أخا لبيد فإنه أقبل مع عامر بن الطفيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبغيانه الغوائل فدخل المسجد وهو عليه الصلاة والسلام جالس في نفر من الأصحاب رضي الله عنهم فاستشرفوا الجمال عامر وكان من أجمل الناس وقد كان أوصى إلى أريد أنه إذا رأيتني أكلم محمدا صلى الله عليه وسلم فدر من خلفه واضربه بالسيف فجعل يكلمه صلى الله عليه وسلم فدار أريد من خلفه صلى الله عليه وسلم فاخترط من سيفه شبرا فحبسه الله تعالى فلم يقدر على سله وجعل عامر يومئذ إليه فرأى النبي صلى الله عليه وسلم الحال فقال اللهم اكفيهما بما تشئت فأرسل الله عز وجل على أريد صاعقة في يوم صحو صائف فأحرقته وولى عامر هاربا فنزل في بيت امرأة سلولية فلما أصبح ضم عليه سلاحه وتغير لونه وركب فرسه فجعل يركض في الصحراء ويقول ابرز يا ملك الموت ويقول الشعر ويقول واللات لئن أضحرت لي محمد وصاحبه يعني ملك الموت لأنفذتهما برمحي فأرسل الله تعالى ملكا فلطمه بجناحه فأرداه في التراب فخرجت على ركبته في الوقت

غدة عظيمة فعاد إلى بيت السلوية وهو يقول غرة كفرة البعير وموت في بيت سلوية ثم دعا بفرسه فركبه فأجراه حتى مات على ظهره وقيل أريد به ما روى عن الحسن أنه كان رجل من طواغيت العرب فبعث النبي صلى الله عليه وسلم نفرا من أصحابه يدعونه إلى الله عز وجل فقال لهم أخبروني عما تدعونني إليه ما هو ومم هو من ذهب أم من فضة أم من نحاس أم من حديد أم من در فاستعظموا مقالته فرجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا ما رأينا رجلا أكفر قلبا ولا أعتى على الله منه فقال صلى الله عليه وسلم ارجعوا إليه فرجعوا إليه فما زاد إلا مقالته الأولى وأخبت فرجعوا إليه صلى الله عليه وسلم وأخبروه بما صنع فقال صلى الله عليه وسلم ارجعوا إليه فرجعوا فيبينما هم عنده ينازعونه إذ ارتفعت سحابة ورعدت وبرقت ورمت بصاعقة فاحترق الكافر فجاءوا يسعون ليخبروه صلى الله عليه وسلم بالخبر فاستقبلهم الأصحاب فقالوا احترق صاحبكم قالوا من أين علمتم قالوا أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو شديد المحال أي والحال أنه شديدا لما حلة والمكابرة والمماكرة لأعدائه من محله إذا كاده وعرضه للهلاك ومنه تمحل إذا تكلف استعمال الحيل وقيل هو محال من

له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال (14) ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال (15)

الرعد 14 15 المحل بمعنى القوة وقيل محول من الحول أو الحيلة أعل على غير قياس ويعضده أنه قرىء بفتح الميم على أنه مفعول من حال يحول إذا احتال ويجوز أن يكون بمعنى الفقار فيكون مثلا في القوة والقدرة كقولهم فساعد الله أشد وموساه أحد له دعوة الحق أي الدعوة الثابتة الواقعة في محلها المجابة عند وقوعها والإضافة للإيدان بملابستها للحق واختصاصها به وكونه بمعزل من شائبة البطلان والضياع والضلال كما يقال كلمة الحق وقبل له دعوة الله سبحانه أي الدعوة اللائقة بحضرته كما في قوله صلى الله

عليه وسلم فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله والتعرض لوصف الحقية لتربية معنى الاستجابة والأولى هو الأول لقوله تعالى وما دعاء الكافرين إلا في ضلال وتعلق الجملتين بما قبلهما من حيث أن إهلاك أربد وعامر محال من الله تعالى وإجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما إن كانت الآية نزلت في شأنهما أو من حيث انه وعيد للكفرة على مجادلة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم وتحذير لهم بإجابة دعوته عليهم والذين يدعون أي الأصنام الذين يدعوهم المشركون فحذف العائد من دونه من دون الله عز وجل لا يستجيبون لهم بشيء من طلباتهم إلا كباسط كفيه إلى الماء أي إلا استجابة كائنة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد فالاستجابة مصدر من المبني للفاعل على ما يقتضيه الفعل الظاهر عني لا يستجيبون ويجوز أن يكون من المبني للمفعول ويضاف إلى الباسط بناء على استلزام المصدر من المبني للفاعل للمصدر من المبني للمفعول وجودا وعدما فكأنه قيل لا يستجيبون لهم بشيء فلا يستجاب لهم إلا استجابة كائنة كاستجابة من بسط كفيه إلى الماء كما في قوله ... وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع ... من ... المال إلا مسحت أو مجلف

أي لم تدع فلم يبق إلا مسحت أو مجلف ليبلغ أي الماء بنفسه من غير أن يؤخذ بشيء من إناء ونحوه فاه وما هو أي الماء ببالغه ببالغ فيه أبدا لكونه جمادا لا يشعر بعطشه ولا ببسط يده إليه فضلا عن الاستطاعة لما أراده من البلوغ إلى فيه شبه حال المشركين في عدم حصولهم في دعاء آلهتهم على شيء أصلا وركاكة رأيهم في ذلك بحال عطشان هائم لا يدري ما يفعل قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصوله إلى فيه من غير ملاحظة التشبيه في جميع مفردات الأطراف فان الماء في نفسه شيء نافع بخلاف آلهتهم والمراد نفي الاستجابة رأسا إلا انه قد أخرج الكلام مخرج التهكم بهم فقيل لا يستجيبون لهم شيئا من الاستجابة كائنة في هذه الصورة التي ليست فيها شائبة الاستجابة قطعاً فهو في الحقيقة من باب التعليق بالمحال وقرئ تدعون بالتاء وكباسط بالتنوين وما دعاء الكافرين إلا في ضلال أي ذهاب وضياع وخسار ولله وحده يسجد يخضع وينقاد لا لشيء غيره استقلالا ولا اشتراكا فالقصر ينتظم القلب والأفراد من في السموات والأرض من الملائكة والثقلين طوعا وكرها أي الطائعين وكارهين أو انقياد طوع وكره أو

حال طوع وكره فان خضوع الكل لعظمة الله عز

قل من رب السماوات والأرض قل الله قل أفأخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار (16)

الرعد 16 وجل وانقيادهم لإحداث ما أراده فيهم من أحكام التكوين والإعدام شاءوا أو أبوا وعدم مداخلة حكم غيره بل غير حكمه تعالى في تلك الشئون مما لا يخفى على أحد وظلالهم أي وتنقاد له تعالى ظلال من له ظل منهم أعني الإنس حيث تتصرف على مشيئته وتتأتى لإرادته في الامتداد والتقلص والفيء والزوال بالغدو والآصال ظرف السجود المقدر أو حال من الظلال وتخصيص الوقتين بالذكر مع أن انقيادها متحقق في جميع أوقات وجودها لظهور ذلك فيهما والغدو جميع غداة كفتى في جمع فتاة والآصال جمع أصيل وقيل جمع أصل وهو جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب وقيل الغدو مصدر ويؤيده أنه قرىء والإيصال أي الدخول في الأصيل هذا وقد قيل إن المراد حقيقة السجود فان الكفرة حال الاضطراب وهو المعنى بقوله تعالى وكرها يخلصون السجود به سبحانه قال تعالى فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ولا يبعد أن يخلق الله تعالى في الظلال أفهاما وعقولا بها تسجد لله سبحانه كما خلقها للجبال حتى اشتغلت بالتسيب وظهر فيها آثار التجلي كما قاله ابن الأنباري ويجوز أن يراد بسجودها ما يشاهد فيها من هيئة السجود تبعا لأصحابها وأنت خبير بأن اختصاص سجود الكافر حالة الضرورة والشدة بالله سبحانه لا يجدى فان سجودهم لأصنامهم حالة الرخاء تخل بالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور فالوجه حمل السجود على الانقياد ولأن تحقيق انقياد الكل في الإبداع والإعدام له تعالى أدخل في التوبيخ على اتخاذ أولياء من دونه من تحقيق سجودهم له تعالى وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم أيضا كذلك لأنهم العمدة وانقيادهم دليل انقياد غيرهم على أنه بين ذلك بقوله عز وجل قل من رب

السموات والأرض فانه لتحقيق أن خالقهما ومتولي أمرهما مع ما
فيهما على الإطلاق هو الله سبحانه وقوله تعالى قل الله أمر
بالجواب من قبله صلى الله عليه وسلم إشعارا بأنه متعين للجوابية
فهو والخصم في تقريره سواء أو أمر بحكاية اعترافهم إيذانا بأنه
أمر لا بد لهم من ذلك كأنه قيل أحك اعترافهم فبكتهم بما يلزمهم
من الحجة وألقمهم الحجر أو أمر بتلقينهم ذلك إن تلعثوا في
الجواب حذرا من الإلزام فانهم لا يتمالكون إذ ذاك ولا يقدرين على
إنكاره قل إلزاما لهم وتبكيता أفأخذتم لأنفسكم والهمزة لإنكار
الواقع كما في قولك أضربت أباك لا لإنكار الوقوع كما في قولك
أضربت أبي والفاء للعطف على مقدر بعد الهمزة أي أعلمتم أن
ربهما هو الله الذي ينقاد لأمره من فيهما كافة فاتخذتم عقيه من
دونه أولياء عاجزين لا يملكون لأنفسهم نفعا يستجلبونه ولا ضرا
يدفعونه عن أنفسهم فضلا عن القدرة على جلب النفع لغيره ودفع
الضرر عنه لا على الإنكار متوجها إلى المعطوفين معا كما في قوله
تعالى أفلا تعقلون إذا قدر المعطوف عليه ألا تسمعون بل إلى
ترتب الثاني على الأول مع

أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زيدا رابيا
ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك
يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع
الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال (17)

وجوب أن يترتب عليه نقيضه كما إذا قدر أتسمعون والمعنى أبعده
أن علمتم أن ربهما هو الله جل جلاله اتخذتم من دونه أولياء عجزه
والحال أن قضية العلم بذلك إنما هو الاقتصار على توليه فعكستم
الأمر كما في قوله تعالى كان من الجن ففسق عن أمر ربه
افتتخذونه وذريته أولياء من دوني ووصف الأولياء ههنا بعدم المالكية
للنفع والضرر في ترشيح الإنكار وتأكيد كنعقيد اتخاذ هناك بالجملة
الحالية أعنى قوله تعالى وهم لكم عدو فان كلا منهما مما ينفي
الاتخاذ المذكور ويؤكد إنكاره قل تصويرا لآرائهم الركيكة بصورة
المحسوس هل يستوي الأعمى الذي هو المشرك الجاهل بالعبادة
ومستحقها والبصير الذي هو الموحد العالم بذلك أو الأول عبارة عن

المعبود الغافل والثاني إشارة إلى المعبود العالم بكل شيء أم هل تستوي الظلمات التي هي عبارة عن الكفر والضلال والنور الذي هو عبارة عن التوحيد والإيمان وقرىء بالياء ولما دل النظم الكريم على أن الكفر فيما فعلوا من اتخاذ الأصنام أولياء من دون الله سبحانه في الضلال المحض والخطأ البحت بحيث لا يخفى بطلانه على أحد وأنهم في ذلك كالأعمى الذي لا يهتدي إلى شيء أصلا وليس لهم في ذلك شبهة تصلح أن تكون منشأ لغلطهم وخطئهم فضلا عن الحجة أكد ذلك فقل أم جعلوا الله أي بل اجعلوا له شركاء خلقوا كخلقه سبحانه والهمزة لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع مع وقوعه وقوله خلقوا كخلقه هو الذي يتوجه إليه الإنكار وأما نفس الجعل فهو واقع لا يتعلق به الإنكار بهذا المعنى والمعنى أنهم لم يجعلوا لله تعالى شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم بسبب ذلك وقالوا هؤلاء خلقوا كخلقه تعالى فاستحقوا بذلك العبادة كما استحقها ليكون ذلك منشأ لخطئهم بل إنما جعلوا له شركاء ما هو بمعزل من ذلك بالمرّة وفيه ما لا يخفى من التعريض بركاكة رأيهم والتهكم بهم قل تحقيقا للحق وإرشادا لهم إليه الله خالق كل شيء كافة لا خالق سواه فيشاركه في استحقاق العبادة هو الواحد المتوحد بالألوهية المتفرد بالربوبية القهار لكل ما سواه فكيف يتوهم أن يكون له شريك وبعد مثل المشرك والشرك بالأعمى والظلمات والموحد والتوحيد بالبصير والنور مثل الحق الذي هو القرآن العظيم في فيضانه من جناب القدس على قلوب خالية عنه متفاوتة الاستعداد وفي جريانه عليها ملاحظة وحفظا وعلى الألسنة مذاكرة وتلاوة وفي ثباته فيهما مع كونه ممدا لحياتها الروحانية وما يتلوها من الملكات السننية والأعمال المرضية بالماء النازل من السماء السائل في أودية يابسة لم تجر عاداتها بذلك سيلانا مقدرًا بمقدار اقتضته الحكمة في إحياء الأرض وما عليها الباقي فيها حسبما يدور عليه منافع الناس وفي كونه حلية تتحلى به النفوس وتصل إلى البهجة الأبدية ومتاعا يتمتع به في المعاش والمعاد بالذهب والفضة وسائر الفلزات التي يتخذ منها أنواع الآلات والأدوات وتبقى منتفعا بها مدة طويلة ومثل الباطل الذي ابتلى به الكفرة لقصور نظرهم بما يظهر فيهما من غير مداخله له فيهما واخلال بصفتائهما من الزبد الرابي فوقهما المضمحل سريعا فقل

أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زيدا رابيا
ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك
يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع
الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال (17)

الرعد 17

أنزل من السماء أي من جهتها ماء أي كثيرا أو نوعا منه وهو ماء
المطر فسالت بذلك أودية واقعة في واقعة لا جميع الأودية إذ
الأمطار لا نستوعب الأقطار وهو جمع واد وهو مفرج بين جبال أو
تلال أو أكام على الشذوذ كناد وأودية وناج وأنجية قالوا وجهه أن
فاعلا يجيء بمعنى فعيل كناصر ونصير وشاهد وشهيد وعالم وعليم
وحيث جمع فعيل على أفعله كجريب وأجربة جمع فاعل أيضا على
أفعلة فان أريد بها ما يسيل فيها مجازا فاسناد السيلان إليها حقيقي
وان أريد معناها الحقيقي فالإسناد مجازي كما في جرى النهر وإيثار
التمثيل بها على الأنهار المستمرة الجريان لوضوح المماثلة بين
شأنها وشأن ما مثل بها كما أشير إليه بقدرها أي سالت ملتبسة
بمقدارها الذي عينه الله تعالى واقتضته حكمته في نفع الناس أو
بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة بحسب تفاوت محالها صغرا وكبرا لا
بكونها مائة لها منطبقة عليها بل بمجرد قلتها بصغرها المستلزم
لقلة موارد الماء وكثرتها بكبرها المستدعي لكثرة الموارد فان
مورد السيل الجاري في الوادي الصغير أقل من مورد السيل
الجاري في الوادي الكبير هذا ان أريد بالأودية ما يسيل فيها أما أن
أريد بها معناها الحقيقي فالمعنى سالت مياها بقدر تلك الأودية
على نحو ما عرفته أنفا أو يراد بضميرها مياها بطريق الاستخدام
ويراد بقدرها ما ذكر أولا من المعنيين فاحتمل السيل الجاري في
تلك الأودية أي حمل معه زيدا أي غثاء ورغوة وإنما وصف ذلك
بقوله تعالى رابيا أي عاليا منتفخا فوقه بيانا لما أريد بالاحتمال
المحتمل لكون الحميل غير طاف كالأشجار الثقيلة وإنما لم يدفع
ذلك الاحتمال بأن يقال فاحتمل السيل فوقه للإيدان بأن تلك
الفوقية مقتضى شأن الزبد لا من جهة المحتمل تحقيقا للمماثلة بينه
وبين ما مثل به من الباطل الذي شأنه الظهور في بادي الرأي من
غير مداخله في الحق ومما يوقدون عليه في النار أي يفعلون
الإيقاد عليه كائنا في النار والضمير للناس أضمر مع عدم سبق

الذكر لظهوره وقرىء بالخطاب ابتغاء حلية أو متاع أي لطلب اتخاذ حلية وهي ما يتزين ويتجمل به كالحلي المتخذة من الذهب والفضة أو اتخاذ متاع وهو ما يتمتع به من الأواني والآلات المتخذة من الرصاص والحديد وغير ذلك من الفلزات زبد خبث مثله مثل ما ذكر من زبد الماء في كونه رابيا فوقه فقله زبد مبتدأ خبره الظرف المقدم ومن ابتدائية دالة على مجرد كونه مبتدأ وناشئا منه لا تبعية معربة عن كونه بعضا منه كما قيل لاخلال ذلك بالتمثيل وفي التعبير عن ذلك بالموصول والتعرض لما في حيز الصلة من إيقاد النار عليه جرى على سنن الكبرياء باظهار التهاون به كما في قوله تعالى فأوقدلي يا هامان على الطين وإشارة إلى كيفية حصول الزبد منه بذوبانه وفي زيادة في النار إشعار بالمبالغة في الاعتمال للإذابة وحصول الزبد كما أشير إليه وعدم التعرض لآخراجه من

للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب وماوهم جهنم وبئس المهاد (18)

الرد 18 الأرض لعدم دخل ذلك العنوان في التمثيل كما أن لعنوان إنزال الماء من السماء دخلا فيه حسبما فصل فيما سلف بل له إخلال بذلك كذلك أي مثل ذلك الضرب البديع المشتمل على نكت رائقة يضرب الله الحق والباطل أي مثل الحق ومثل الباطل والحذف للأنباء عن كمال التماثل بين الممثل والممثل به كأن المثل المضروب عين الحق والباطل وبعد تحقيق التمثيل مع الإيماء في تضاعيف ذلك إلى وجوه المماثلة على أبداع وجوه وأنقها حسبما أشير إليه في مواقعها بين عاقبة كل من الممثلين على وجه التمثيل مع التصريح ببعض ما به المماثلة من الذهاب والبقاء تنمة للغرض من التمثيل من الحث على اتباع الحق الثابت والردع عن الباطل الزائد فقل فاما الزبد من كل منهما فيذهب جفاء أي مرميا به وقرىء جفالا والمعنى واحد وأما ما ينفع الناس منهما كالماء الصافي والفلز الخاص فيمكنك في الأرض أما الماء فيثبت بعضه في منافعه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقنا والآبار

وأما الفلز فيصاغ من بعضه أنواع الحلي ويتخذ من بعضه أصناف الآلات والأدوات فينتفع بكل من ذلك أنواع الانتفاعات مدة طويلة فالمراد ابا لمكث في الأرض ما هو أعم من المكث في نفسها ومن البقاء في أيدي المتقلبين فيها وتغيير ترتيب اللف الواقع في الفذلكة الموافق للترتيب الواقع في التمثيل لمراعاة الملاءمة بين حالتها الذهاب والبقاء وبين ذكريهما فان المعتبر إنما هو بقاء الباقي بعد ذهاب الذاهب لا قبله كذلك يضرب الله أي مثل ذلك الضرب العجيب يضرب الأمثال في كل باب إظهارا لكمال اللطف والعناية في الإرشاد والهداية وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله كذلك يضرب الله الحق والباطل إما باعتبار ابتناء هذا على التمثيل الأول أو بجعل ذلك إشارة إليهما جميعا وبعد ما بين شأن كل من الحق والباطل حالا ومالا أكمل بيان شرع في بيان حال أهل كل منهما مالا تكميلا للدعوة ترغيبا وترهيبا فليل للذين استجابوا لربهم إذ دعاهم إلى الحق بفنون الدعوة التي من جملتها ضرب الأمثال فإنه اللطف ذريعة إلى تفهيم القلوب الغبية وأقوى وسيلة إلى تسخير النفوس الأبية كيف لا وهو تصوير للمعقول بصورة المحسوس وإبراز لا وابد المعاني في هيئة المأنوس فاي دعوة أولى منه بالاستجابة والقبول الحسنى أي المثوبة الحسنى وهي الجنة والذين لم يستجيبوا له وعاندوا الحق الجلي لو أن لهم ما في الأرض من أصناف الأموال جميعا بحيث لم يشذ منه شاذ في أقطارها أو مجموعا غير متفرق بحسب الأزمان ومثله معه لافتدوا به أي بما في الأرض ومثله معه جميعا ليتخلصوا عما بهم وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا يحيط به البيان فالموصول مبتدأ والشرطية كما هي خبره لكن لا على أنها وضعت موضع السوءى فوقع في مقابلة الحسنى الواقعة في القرينة الأولى لمراعاة حسن المقابلة فصار كأنه قيل والذين لم يستجيبوا له السوءى كما يوهم فإن الشرطية وإن دلت على كما سوء حالهم لكنها بمعزل من القيام مقام لفظ السوءى مصحوبا باللام الداخلة على الموصول أو ضميره

أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب (19) الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق (20)

الرعد 19 20 وعليه يدور حصول المرام وإنما الواقع في تلك
المقابلة سوء الحساب في قوله تعالى أولئك لهم سوء الحساب
وحيث كان اسم الإشارة الواقع مبتدأ في هذه الجملة عبارة عن
الموصول الواقع مبتدأ في الجملة السابقة كان خبرها أعني الجملة
الظرفية خبرا عن الموصول في الحقيقة ومبينا لإبهام مضمون
الشرطية الواقعة خبرا عنه أولا ولذلك ترك العطف فصار كأنه قيل
والذين لم يستجيبوا له لهم سوء الحساب وذلك في قوة أن يقال
وللذين لم يستجيبوا له سوء الحساب مع زيادة تأكيد فتم حسن
المقابلة على أبلغ وجه وأكده ثم بين مؤدى ذلك فقيل وماوَاهم أي
مرجعهم جهنم وفيه نوع تأكيد لتفسير الحسنى بالجنة وبئس المهاد
أي المستقر والمخصوص بالذم محذوف وقيل اللام في قوله تعالى
للذين استجابوا لربهم متعلقة بقوله يضرب الله الأمثال أي الأمثال
السالفة وقوله الحسنى صفة للمصدر أي استجابوا الاستجابة
الحسنى وقوله والذين لم يستجيبوا له معطوف على الموصول
الأول وقوله لو أن لهم الخ كلام مستأنف مسوق لبيان ما أعد لغير
المستجيبين من العذاب والمعنى كذلك يضرب الله الأمثال
للمؤمنين المستجيبين والكافرين المعاندين أي هما مثلا الفريقين
وأنت خير بأن عنوان الاستجابة وعدمها لا مناسبة بينه وبين ما يدور
عليه أمر التمثيل وأن الاستعمال المستفيض دخول اللام على من
يقصد تذكيره بالمثل نعم قد يستعمل في هذا المعنى أيضا كما في
قوله سبحانه ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ونظائره
على أن بعض الأمثال المضروبة لا سيما المثل الأخير الموصول
بالكلام ليس مثل الفريقين بل مثل للحق والباطل ولا مساع لجعل
الفريقين مضروبا لهم أيضا بأن يجعل في حكم أن يقال كذلك
يضرب الله الأمثال للناس إذ لا وجه حينئذ لتنويهم إلى المستجيبين
وغير المستجيبين فنأمل أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك من
القرآن الذي مثل بالماء المنزل من السماء والإبريز الخالص في
المنفعة والجدوى الحق الذي لا حق وراءه أو الحق الذي أشير إليه
بالأمثال المضروبة فيستجيب له كمن هو أعمى عمى القلب لا
يشاهده وهو نار على علم ولا يقدر قدره وهو في أقصى مراتب
العلو والعظم فيبقى حائرا في ظلمات الجهل وغيا هب الضلال أو لا
يتذكر بما ضرب من الأمثال أي كمن لا يعلم ذلك إلا أنه أريد زيادة

تقبيح حاله فعبر عنه بالأعمى وإيراد الفاء بعد الهمزة لتوجيه الإنكار إلى ترتب توهم المماثلة على ظهور حال كل منهما بما ضرب من الأمثال وبين المصير والمآل كأنه قيل أبعد ما بين حال كل من الفريقين ومآلهما يتوهم المماثلة بينهما ثم استؤنف فقبل إنما يتذكر بما ذكر من المذكرات فيقف على ما بينهما من التفاوت والتناهي أولو الألباب أي العقول الخالصة المبرأة من مشايعة الإلف ومعارضة الوهم الذين يوفون بعهد الله بما عقدوا على أنفسهم من الإعتراف بربوبيته تعالى حين قالوا بلى أو ما عهد الله عليهم في كتبه ولا ينقضون الميثاق ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين

والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب (21) والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويद्रؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار (22) جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب (23)

الرعد 21 23 العباد وهو تعميم بعد تخصيص وفيه تأكيد للإستمرار المفهوم من صيغة المستقبل والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل من الرحم وموالة المؤمنين والإيمان بجميع الأنبياء المجمعين على الحق من غير تفريق بين أحد منهم ويندرج فيه مراعاة جميع حقوق الناس بل حقوق كل ما يتعلق بهم من الهر والدجاج ويخشون ربهم خشية جلال وهيبة ورهبة فلا يعصونه فيما أمر به ويخافون سوء العذاب فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا وفيه دلالة على كمال فظاعته حسبما ذكر فيما قبل والذين صبروا على كل ما تكرهه النفس من الأفعال والتروك ابتغاء وجه ربهم طلبا لرضاه خاصة من غير أن ينظر إلى جانب الخلق رياء وسمعة ولا إلى جانب النفس زينة وعجبا وحيث كان الصبر على الوجه المذكور ملاك الأمر في كل ما ذكر من الصلوات السابقة واللاحقة أورد على صيغة الماضي اعتناء بشأنه ودلالة على وجوب تحققه فإن ذلك مما لا بد منه إما في نفس الصلوات كما فيما عدا الأولى والرابعة والخامسة أو في إظهار أحكامها كما في الصلوات الثلاث

المذكورات فإنها وإن استغنت عن الصبر في أنفسها حيث لا مشقة على النفس في الإعراف بالربوبية والخشية والخوف لكن إظهار أحكامها والجرى على موجبها غير خال عن الإحتياج إليه وأقاموا الصلاة المفروضة وانفقوا مما رزقناهم أي بعضه الذي يجب عليهم إنفاقه سرا لمن لم يعرف بالمال أو لمن لا يتهم بترك الزكاة أو عند إنفاقه وإعطائه من تمنعه المروءة من أخذه ظاهرا وعلانية لمن لم يكن كما ذكر أو الأول في التطوع والثاني في الفرض ويدرءون بالحسنة أي يجازون الإساءة بالإحسان أو يتبعون الحسنة السيئة فمحوها عن أبي عباس رضي الله عنهما يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم وعن الحسن إذا حرموا أعطوا وإذا ظلموا عفوا وإذا قطعوا وصلوا وعن ابن كيسان إذا أذنبوا تابوا وقيل إذا رأوا منكرا أمروا بتغييره وتقديم المجرور على المنصوب لإظهار كما العناية بالحسنة أولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة والملكات الجميلة وهو مبتدأ خبره الجملة الظرفية أعنى قوله تعالى لهم عقبى الدار أي عاقبة الدنيا وما ينبغي أن يكون مآل أمر أهلها وهي الجنة وقيل الجار والمجرور خبر لأولئك وعقبى الدار فاعل الاستقرار وأياما كان فليس فيه قصر حتى يرد أن بعض ما في الصلة ليس من العزائم التي يخل إخلالها بالموصول إلى حسن العاقبة والجملة خبر للموصولات المتعاطفة أو استئناف لبيان ما استوجبه بتلك الصفات أن جعلت الموصولات المتعاطفة صفات لأولي الألباب على طريقة المدح من غير أن يقصد أن يكون للصلات المذكورة مدخل في التذكر جنات عدن بدل من عقبى الدار أو مبتدأ

سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار (24) والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار (25)

الرعد 24 25 خبره يدخلونها والعدن الإقامة ثم صار علما لجنة من الجنات أي جنات يقيمون فيها وقيل هو بطنان الجنة ومن صلح من آبائهم جمع أبوي كل واحد منهم فكأنه قيل من آبائهم وأمهاتهم وأزواجهم وذرياتهم وهو عطف على المرفوع في يدخلون وإنما

سأغ ذلك للفصل بالضمير الآخر أو مفعول معه والمعنى أنه يلحق بهم من صلح من أهلهم وإن لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعاً لهم تعظيماً لشأنهم وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة وأن الموصوف بتلك الصفات يقرب بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة في دخول الجنة زيادة في أنسهم وفي التقييد بالصلاح قطع للأطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبب الأنساب والملائكة يدخلون عليهم من كل باب من أبواب المنازل أو من أبواب الفتوح والتحف قائلين سلام عليكم بشاراً لهم بدوام السلامة بما صبرتم متعلق بعلينكم أو بمحذوف أي هذه الكرامة العظمى بما صبرتم أي بسبب صبركم أو بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه والمعنى لئن تعبتم في الدنيا لقد استرحتم الساعة وتخصيص الصبر بما ذكر من بين الصلوات السابقة لما قدمناه من أن له دخلاً في كل منها ومزية زائدة من حيث إنه ملاك الأمر في كل منها وإن شيئاً منها لا يعتد به إلا بأن يكون لإبتغاء وجه الرب تعالى وتقدس فنعم عقبى الدار أي فنعم عقبى الدار الجنة وقرىء بفتح النون والأصل نعم فسكن العين بنقل حركتها إلى النون تارة وبدونه أخرى وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وكذا عن الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم أجمعين والذين ينقضون عهد الله أريد بهم من يقابل الأولين ويعاندهم في الاتصاف بنقائص صفاتهم من بعد ميثاقه من بعد ما أوثقوه من الإعتراف والقبول ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل من الإيمان بجميع الأنبياء المجمعين على الحق حيث يؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعضهم ومن حقوق الأرحام وموالاتة المؤمنين وغير ذلك مما لا يراعون حقوقه من الأمور المعدودة فيما سلف وإنما لم يتعرض لنفي الخشية والخوف عنهم صريحاً لدلالة النقص والقطع على ذلك وأما عدم التعرض لنفي الصبر المذكور فلأنه إنما اعتبر تحققه في ضمن الحسنات المعدودة ليقعن معتداً بهن فلا وجه لنفيه عن بينه وبين الحسنات بعد المشرقين كما لا وجه لنفي الصلاة والزكاة ممن لا يحوم حول أصل الإيمان بالله تعالى فضلاً عن فروع الشرائع وإن أريد بالإنفاق التطوع فنفيه مندرج تحت قطع ما أمر الله تعالى بوصله وأما درء السيئة بالحسنة فانتفاؤه عنهم ظاهر مما سبق ولحق فإن من يجازى إحسانه عز وجل بنقض العهد ومخالفة الأمر ويباشر الفساد بدأ حسباً يحكيه قوله تعالى عز وعلا ويفسدون في الأرض أي

بالظلم وتهيج الفتن كيف يتصور منه مجازاة الإساءة بالإحسان على
أن يشعر بان له دخلا في الإفضاء إلى

الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة
الدنيا في الآخرة إلا متاع (26) ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه
آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب (27)

الرعد 26 27 العقوبة التي ينبيء عنها قوله تعالى أولئك الخ أي
أولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح لهم بسبب ذلك اللعنة أي
الإبعاد من رحمة الله تعالى ولهم مع ذلك سوء الدار أي سوء عاقبة
الدنيا أو عذاب جهنم فإنها دارهم لأن ترتيب الحكم على الموصول
مشعر بعلية الصلة له ولا يخفى أنه لا دخل له في ذلك على أكثر
التفاسير فإن مجازاة السيئة بمثلها مأذون فيها ودفع الكلام السيء
بالحسن وكذا الإعطاء عند المنع والعفو عند الظلم والوصل عند
القطع ليس مما يورث تركه تبعة وأما ما اعتبر اندراجة تحت الصلة
الثانية من الإخلال ببعض الحقوق المندوبة فلا ضير في ذلك لأن
اعتباره من حيث إنه من مستتبعات الإخلال بالعزائم بالكفر ببعض
الأنبياء وعقوق الوالدين وترك سائر الحقوق الواجبة وتكرير لهم
للتأكيد والإيدان باختلافهما واستقلال كل منهما في الثبوت الله
يبسط الرزق أي يوسعه لمن يشاء من عباده ويقدر أي يضيقه على
من يشاء حسبما تقتضيه الحكمة من غير أن يكون لأحد مدخل في
ذلك ولا شعور بحكمته فربما يبسطه للكافر إملاء واستدراجا وربما
يضيقه على المؤمن زيادة لأجره فلا يغتر ببسط الكافر كما لا يقنط
بقدره المؤمن وفرحوا أي أهل مكة فرح أشد وبطر لا فرح سرور
بفضل الله تعالى بالحياة الدنيا وما بسط لهم فيها من نعيمها وما
الحياة الدنيا وما يتبعها من النعيم في الآخرة أي في جنب نعيم
الآخرة الإمتاع إلا شيء نزر يتمتع به كعجالة الراكب وزاد الراعي
والمعنى أنهم رضوا بحظ الدنيا معرضين عن نعيم الآخرة والحال أن
ما أشروا به في جنب ما أعرضوا عنه شيء قليل النفع سريع النفاذ
ويقول الذين كفروا أي أهل مكة وإيثار هذه الطريقة على الإضمار
مع ظهور إرادتهم عقيب ذكر فرحهم بالحياة الدنيا لدمهم والتسجيل
عليهم بالكفر فيما حكى عنهم من قولهم لولا أنزل عليه آية من ربه

فإن ذلك في أقصى مراتب المكابرة والعناد كأن ما أنزل عليه السلام من الآيات العظام الباهرة ليس بأية حتى اقترحوا مالا تقتضيه الحكمة من الآيات المحسوسة التي لا يبقى لأحد بعد ذلك طاقة بعدم القبول ولذلك أمر في الجواب بقوله تعالى قل إن الله يضل من يشاء إضلاله مشيئته تابعة للحكمة الداعية إليها أي يخلق فيه الضلال لصرفه اختياره إلى تحصيله ويدعه منهم كما فيه لعلمه بأنه لا ينجع فيه اللطف ولا ينفعه الإرشاد كمن كان على صفتكم في المكابرة والعناد وشدة الشكيمة والغلو في الفساد فلا سبيل له إلى الاهتداء ولو جاءت كل آية ويهدي إليه أي إلى جنبه العلي الكبير هداية موصلة إليه لا دلالة مطلقة على ما يوصل إليه فإن ذلك غير مختص بالمهتدين وفيه من تشریفهم مالا يوصف من أناب أقبل

الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب (28) الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب (29)

الرعد 28 30 إلى الحق وتأمل في تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة وحقيقة الإنابة لدخول في نوبة الخير وإيثار إيرادها في الصلة على إيراد المشيئة كما في الصلة الأولى للتنبيه على الداعي إلى الهداية بل إلى مشيئتها والإشعار بما دعا إلى المشيئة الأولى من المكابرة وفيه حث للكفرة على الإقلاع عما هم عليه من العتو والعناد وإيثار صيغة الماضي للإيماء إلى استدعاء الهداية لسابقة الإنابة كما أن إيثار صيغة المضارع في الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم الذين آمنوا بدل ممن أناب فإن أريد بالهداية الهداية المستمرة فالأمر ظاهر لظهور كون الإيمان مؤدياً إليها وإن أريد إحداثها فالمراد بالذين آمنوا الذين صار أمرهم إلى الإيمان كما في قوله تعالى هدى للمتقين أي الصائرين إلى التقوى وإلا فالإيمان لا يؤدي إلى الهداية نفسها أو خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين آمنوا أو منصوب على المدح وتطمئن قلوبهم أي تستقر وتسكن بذكر الله بكلامه المعجز الذي لا ريب فيه كقوله تعالى وهذا ذكر مبارك أنزلناه وقوله إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ويعلمون أن لا أعظم منه فيقترحوها والعدول إلى صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان وتجده حسب تجدد الآيات وتعددتها

ألا بذكر الله وحده تطمئن القلوب دون غيره من الأمور التي تميل إليها النفوس من الدنياويات وهذا ظاهر وأما سائر المعجزات فالقصر من حيث إنها ليست في إفادة الطمأنينة بالنسبة إلى من لم يشاهدها بمثابة القرآن المجيد فإنه معجزة باقية إلى يوم القيامة يشاهدها كل أحد وتطمئن به القلوب كافة وفيه إشعار بأن الكفرة ليست لهم قلوب وأفئدتهم هواء حيث لم يطمئنوا بذكر الله تعالى ولم يعدوه آية وهو أظهر الآيات وأبهرها وقيل تطمئن قلوبهم بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته كقوله تعالى ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته أو بذكره جل وعلا نسا به وتبتلا إليه فالمراد بالهداية دوامها واستمرارها الذين آمنوا وعملوا الصالحات بدل من القلوب على حذف المضاف بدل الكل حسبما رمز إليه أي قلوب الذين آمنوا وفيه إيحاء إلى أن الإنسان إنما هو القلب أو مبتدأ خبره الجملة الدعائية على التأويل أعنى قوله طوبى لهم أو خبر مبتدأ مضمرة أو نصب على المدح فطوبى لهم حال عاملها الفعلان وطوبى مصدر من طاب كبشرى وزلفى والواو منقلبة من الياء كموقن وموسر وقرأ مكوزة الأعرابي طيبى لتسلم الياء والمعنى أصابوا خيرا ومحلها النصب كسلاما لك أو الرفع على الابتداء وإن كانت نكرة لكونها في معنى الدعاء كسلام عليك يدل على ذلك القراءة في قوله تعالى وحسن مآب بالنصب والرفع واللام في لهم للبيان مثلها في سقيا لك كذلك

كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب (30)

الرعد 31 مثل ذلك الإرسال العظيم الشأن المصحوب بهذه المعجزة الباهرة أرسلناك في أمة قد خلت أي مضت ومن قبلها أمم كثيرة قد أرسل إليهم رسل لتتلو لتقرأ عليهم الذي أوحينا إليك من الكتاب العظيم الشأن وتهديهم إلى الحق رحمة لهم وتقديم المجرور على المنصوب من قبيل الإبهام ثم البيان كما في قوله تعالى ووضعنا عنك وزرك وفيه مالا يخفى من ترقب النفس إلى ما

سيرد وحسن قبولها له عند وروده عليها وهم أي والحال أنهم يكفرون بالرحمن بالبليغ الرحمة الذي وسعت كل شيء رحمته وأحاطت به نعمته والعدول إلى المظهر المتعرض لوصف الرحمة من حيث إن الإرسال ناشئ منها كما قال تعالى وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين فلم يقدرُوا قدره ولم يشكروا نعمه لا سيما ما أنعم به عليهم بإرسال مثلك إليهم وإنزال القرآن الذي هو مدار المنافع الدينية والديناوية عليهم وقيل نزلت في مشركي مكة حين أمروا بالسجود فقالوا وما الرحمن قل هو أي الرحمن الذي كفرتم به وأنكرتم معرفته ربي الرب في الأصل بمعنى التربية وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً ثم وصف به مبالغة كالصوم والعدل وقيل هو نعت أي خالقي ومبلغي إلى مراتب الكمال وإيراده قبل قوله لا إله إلا هو أي لا مستحق للعبادة سواه تنبيه على أن استحقاق العبادة منوط بالربوبية وقيل إن أبا جهل سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول يا الله يا رحمن فرجع إلى المشركين فقال إن محمدا يدعو إلهين فنزلت ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن الآية عليه توكلت في جميع أموري لا سيما في النصره عليكم لا على أحد سواه وإليه خاصة متاب أي توبتي كقوله تعالى واستغفر لذنبك أمر عليه السلام بذلك إبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى وأنها صفة الأنبياء وبعثا للكفرة على الرجوع عما هم عليه بأبلغ وجه والطفه فإنه عليه السلام حيث أمر بها وهو منزه عن شائبة اقتراف ما يوجبها من الذنب وإن قل فتوبتهم وهو عاكفون على أنواع الكفر والمعاصي مما لا بد منه أصلا وقد فسر المتاب بمطلق الرجوع فليل مرجعي ومرجعكم وزيد فيحكم بيني وبينكم وقد قيل فيثبني على مصابرتكم فتأمل ولو أن قرآنا أي قرآنا ما وهو اسم أن والخبر قوله تعالى سيرت به الجبال وجواب لو محذوف لانسياق الكلام إليه بحيث يتلقفه السامع من التالي والمقصود إما بيان عظم شأن القرآن العظيم وفساد رأي الكفرة حيث لم يقدرُوا قدره العلي ولم يعدوه من قبيل الآيات فاقترحوا غيره مما أوتى موسى وعيسى عليهما السلام وإما بيان غلوهم في المكابرة والعناد وتماديهم في الضلال والفساد فالمعنى على الأول لو أن قرآنا سيرت به الجبال أي بإنزاله أو بتلاوته عليها وزعزعت عن مقارها كما فعل ذلك بالطور لموسى عليه الصلاة والسلام أو قطعت به الأرض أي شققت وجعلت أنهارا وعيونا كما فعل بالحجر حين ضربه عليه السلام بعصاه أو جعلت قطعاً

متصدعة أو كلم به الموتى أي بعد أن

كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب (30) ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد (31)

أحيى بقراءته عليها كما أحييت لعيسى عليه السلام لكان ذلك هذا القرآن لكونه الغاية القصوى في الإنطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى وهيبته عز وجل كقوله تعالى لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله لا في الإعجاز إذ لا مدخل له في هذه الآثار ولا في التذكير والإنذار والتخويف لاختصاصها بالعقلاء مع أنه لا علاقة لها بتكليم الموتى واعتبار فيض العقول إليها مخل بالمبالغة المقصودة وتقديم المجرور في المواضع الثلاثة على المرفوع لما مر غير مرة من قصد الإبهام ثم التفسير لزيادة التقرير لأن بتقديم ما حقه التأخير تبقى النفس مستشرفة ومترقبة إلى المؤخر أنه ماذا فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن وكلمة أو في الموضوعين لمنع الخلو لا لمنع الجمع واقتراحهم وإن كان متعلقا بمجرد ظهور مثل هذه الأفاعيل العجيبة على يده عليه السلام لا بظهورها بواسطة القرآن لكن ذلك حيث كان مبنيا على عدم اشتماله في زعمهم على الخوارق نيط ظهورها به مبالغة في بيان اشتماله عليها وأنه حقيق بأن يكون مصدرا لكل خارق وإبانة لركاكة رأيهم في شأنه الرفيع كأنه قيل لو أن ظهور أمثال ما اقترحوه من مقتضيات الحكمة لكان مظهرها هذا القرآن الذي لم يعدوه آية وفيه من تفخيم شأنه العزيز ووصفهم بركاكة العقل ما لا يخفى بل لله الأمر جميعا أي له الأمر الذي عليه يدور فلك الأكوان وجودا وعدما يفعل ما يشاء وبحكم ما يريد لما يدعو إليه من الحكم البالغة وهو إضراب عما تضمنه الشرطية من معنى النفي لا بحسب منطوقة بل باعتبار موجبة ومؤداه أي لو أن قرآنا

فعل به ما ذكر لكان ذلك هذا القرآن ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن لأن الأمر كله له وحده فالإضراب ليس بمتوجه إلى كون الأمر لله سبحانه بل إلى ما يؤدي إليه ذلك من كون الشأن على ما كان لما تقتضيه الحكمة من بناء التكليف على الإختبار أفلم ييأس الذين آمنوا أي أفلم يعلموا على لغة هوازن أو قوم من النخع أو على إستعمال اليأس في معنى العلم لتضمنه له ويؤيده قراءة علي وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أفلم يتبين بطريق التفسير والفاء للعطف على مقدر أي أغفلوا عن كون الأمر جميعا لله تعالى فلم يعلموا أن لو يشاء الله على حذف ضمير الشأن وتخفيف أن لهدى الناس جميعا بإظهار أمثال تلك الآثار العظيمة فالإنكار متوجه إلى المعطوفين جميعا أو اعلموا كون الأمر جميعا لله فلم يعلموا ما يوجبه ذلك العلم مما ذكر فهو متوجه إلى ترتب المعطوف على المعطوف عليه أي تخلف العلم الثاني عن العلم الأول وعلى التقديرين فالإنكار إنكار الوقوع كما في قوله تعالى ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا إنكار الواقع كما في قولك ألم تخف الله حتى عصيته ثم إن مناط الإنكار ليس عدم علمهم بمضمون الشرطية فقط بل مع عدم علمهم بعدم تحقق مقدمها كأنه قيل ألم يعلموا أن الله تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم وأنه لم يشأها وذلك لأنهم كانوا يودون أن يظهر ما اقترحوا من الآيات ليجمعوا على الإيمان وعلى الثاني لو أن قرآنا فعل به ما فصل من التعاجيب لما آمنوا به كقوله تعالى ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى الآية فالإضراب حينئذ متوجه إلى ما سلف من اقتراحهم مع كونهم في العناد على ما شرح أي فليس لهم ذلك بل لله الأمر جميعا إن شاء أتى بما اقترحوا وإن شاء لم يأت به حسبما تستدعيه داعية الحكمة من غير أن يكون لأحد عليه تحكم أو اقتراح واليأس بمعنى القنوط أي الم يعلم الذين آمنوا حالهم هذه فلم يقنطوا من إيمانهم حتى أحبوا ظهور مقترحاتهم فالإنكار متوجه

ولقد استهزئ برسلك من قبلك فأملت للذين كفروا ثم أخذتهم
فكيف كان عقاب (32)

الرد 32 إلى المعطوفين أو وأعلموا ذلك فلم يقنطوا من إيمانهم فهو متوجه إلى وقوع المعطوف بعد المعطوف عليه أي إلى تخلف القنوط عن العلم المذكور والإنكار على التقديرين إنكار الواقع كما في قوله تعالى أفلا تتقون ونظائره لا إنكار الوقوع فإن عدم قنوطهم منه مما لا مرد له وقوله تعالى أن لو يشاء الله الخ متعلق بمحدوف أي أفلم يياسوا من إيمانهم علما منهم أو عالمين بأنه لو يشاء الله لهدى الناس جميعا وأنه لم يشأ ذلك أو بأمنوا أي أفلم يقنط الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا على معنى أفلم يياس من إيمانهم المؤمنون بمضمون الشرطية وبعدم تحقق مقدمها المنفهم من مكابرتهم حسبما تحكيه كلمة لو فالوصف المذكور من دواعي إنكار يأسهم وقيل أن أبا جهل وأضرابه قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت نبيا سير بقرانك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا وتتخذ فيها لبساتين والقطائع وقد سخرت لداود عليه السلام فليست بأهون على الله منه إن كنت نبيا كما زعمت أو سخر لنا به الريح كما سخرت لسليمان عليه السلام لتتجر عليها إلى الشام فقد شق علينا قطع الشقة البعيدة أو ابعت لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا فنزلت فمعنى تقطيع الأرض حينئذ قطعها بالسير ولا حاجة حينئذ إلى الاعتذار في إسناد الأفاعيل المذكورة إلى القرآن كما احتيج إليه في الوجهين الأولين وعن القراء أنه متعلق بما قبله من قوله وهم يكفرون بالرحمن وما بينهما اعتراض وهو بالحقيقة دال على الجواب والتقدير ولو أن قرأنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن والتذكير في كلم به الموتى لتغليب المذكر من الموتى على غيره ولا يزال الذين كفروا من أهل مكة تصيبهم بما صنعوا أي بسبب ما صنعوه من الكفر والتمادي فيه وعدم بيانه إما للقصد إلى تهويله أو استهجانته وهو تصريح بما أشعر به بناء الحكم على الموصول من عليه الصلة له مع ما في صيغة الصنع من الإيدان برسوخهم في ذلك قارعة داهية تفرعهم وتقلقهم وهو ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب من القتل والأسر والنهب والسلب وتقديم المجرور على الفاعل لما مر مرارا من إرادة التفسير إثر الإبهام لزيادة التقرير والإحكام مع ما فيه من بيان أن مدار الإصابة من جهتهم أثر ذي أثر أو تحل تلك القارعة قريبا أي مكانا قريبا من دارهم فيفزعون منها أو يتطاير إليهم شرارها شبهت القارعة بالعدو المتوجه إليهم فاسند إليها الإصابة تارة والحلول

أخرى ففيه استعارة بالكناية وتخيل وترشيح حتى يأتي وعد الله أي موتهم أو القيامة فإن كلا منهما وعد محتوم ولا مرد له وفيه دلالة على أن ما يصيبهم عند ذلك من العذاب في غاية الشدة وأن ما ذكر سابقه نعمة يسيرة بالنسبة إليه ثم حقق ذلك بقوله تعالى إن الله لا يخلف الميعاد أي الوعد كالميلاد والميثاق بمعنى الولادة والتوثقة لاستحالة ذلك على الله سبحانه وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أراد بالقارعة السرايا التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها وكانوا بين إغارة واختطاف وتخويف بالهجوم عليهم في ديارهم فالإصابة والحلول حينئذ من أحوالهم ويجوز على هذا أن يكون قوله تعالى أو تحل قريبا من دارهم خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم مرادا به حلولة الحديدية والمراد بوعد الله ما وعد به من فتح مكة ولقد استهزىء برسول كثيرة حلت من قبلك فأملت للذين كفروا أي تركتهم ملاوة من الزمان في أمن

أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضل الله فما له من هاد (33)

الرعد 33 ودعة كما يملي للبهيمة في المرعى وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما لقي من المشركين من التكذيب والاقتراح على طريقة الاستهزاء به ووعيد لهم والمعنى إن ذلك ليس مختصا بك بل هو أمر مطرد قد فعل ذلك برسول كثيرة كائنة من قبلك فأمهلت الذين فعلوه بهم والعدول في الصلة إلى وصف الكفر ليس لأن المملى لهم غير المستهزئين بل لإرادة الجمع بين الوصفين أي فأملت للذين كفروا مع استهزائهم فقط ثم أخذتهم فكيف كان عقاب أي عقابي إياهم وفيه من الدلالة على تناهي كفيته في الشدة والفضاعة ما يخفى أفمن هو قائم أي رقيب مهيمن على كل نفس كائنة من كانت بما كسبت من خير أو شر لا يخفى عليه شيء من ذلك بل يجازي كلا بعمله وهو الله تعالى والخبر محذوف أي كمن ليس كذلك إنكارا لذلك وإدخال الفاء لتوجيه الإنكار إلى توهم المماثلة غب ما علم مما فعل تعالى

بالمستهزئين من الإملاء المديد والأخذ الشديد ومن كون الأمر كله لله تعالى وكون هداية الناس جميعا منوطة بمشيئته تعالى ومن تواتر القوارع على الكفرة الى أن يأتي وعد الله كأنه قيل الأمر كذلك فمن هذا شأنه كما ليس في عداد الأشياء حتى تشركوه به فالإنكار متوجه إلى ترتب المعطوف أعني توهم المماثلة على المعطوف عليه المقدر أعني كون الأمر كما ذكر كما في قولك اتعلم الحق فلا تعمل به لا إلى المعطوفين جميعا كما إذا قلت ألا تعلمه فلا تعمل به وقوله تعالى وجعلوا لله شركاء جملة مستقلة جيء بها للدلالة على الخبر أو حيلة أي أفمن هذه صفاته كما ليس كذلك وقد جعلوا له شركاء لا شريكا واحدا أو معطوفة على الخبر إن قدر ما يصلح لذلك أي أفمن هذا شأنه لم يوحدوه وجعلوا له شركاء ووضع المظهر للتنصيص على وحدانيته ذاتا وإسما وللتنبية على اختصاصه باستحقاق العبادة مع ما فيه من البيان بعد الإبهام بإيراده موصولا للدلالة على التفخيم وقوله تعالى قل سموهم تبكيت لهم إثر تبكيت أي سموهم من هم وماذا أسماؤهم أو صفوهم وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة أم تنبئونه أي بل أتنبئون الله بما لا يعلم في الأرض أي بشركاء مستحقين للعبادة لا يعلمهم الله تعالى ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض وقرىء بالتخفيف أم بظاهر من القول أي بل أتسمونهم بشركاء بظاهر من القول من غير أن يكون له معنى وحقيقة كتسمية الزنجي كافورا كقوله تعالى ذلك قولهم بأفواههم وهاتيك الأساليب البديعة التي ورد عليها الآية الكريمة منادية على أنها خارجة عن قدرة البشر من كلام خلاق القوى والقدر فتبارك الله رب العالمين بل زين للذين كفروا وضع الموصول موضع المضمرة ذما لهم وتسجيلا عليهم بالكفر مكرهم تمويههم الأباطيل أو كيدهم للإسلام بشركهم وصدوا عن سبيل الله أي سبيل الحق من صده صدا وقرىء بكسر الصاد على نقل حركة الدال إليها وقرىء بفتحها أي صدوا الناس أو

لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق (34) مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار (35) والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن

الأحزاب من ينكر بعضه قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به
إليه أدعو وإليه مآب (36)

الرعد 35 36 من صد صدودا ومن يضل الله أي يخلق فيه الضلال بسوء اختياره أو يخذله فما له من هاد وفقه للهدى لهم عذاب شاق في الحياة الدنيا بالقتل والأسر وسائر ما يصيبهم من المصائب فإنها إنما تصيبهم عقوبة على كفرهم ولعذاب الآخرة أشق من ذلك بالشدة والمدة وما لهم من الله من عذابه المذكور من واق من حافظ يعصمهم من ذلك فمن الأولى صلة للوقاية والثانية مزيدة للتأكيد مثل الجنة أي صفتها العجيبة الشأن التي في الغرابة كالمثل التي وعد المتقون عن الكفر والمعاصي وهو مبتدأ خبره محذوف عند سبويه أي فيما قصصنا عليك مثل الجنة وقوله تعالى تجرى من تحتها الأنهار تفسير لذلك المثل على أنه حال من الضمير المحذوف من الصلة العائد إلى الجنة أي وعدها وهو الخبر عند غيره كقولك شأن زيد يأتيه الناس ويعظمونه أو على حذف موصوف أي مثل الجنة جنة تجري الخ أكلها ثمرها دائم لا ينقطع وظلها أيضا كذلك لا تنسخه الشمس كما تنسخ ظلال الدنيا تلك الجنة المنعوتة بما ذكر عقبى الذين اتقوا الكفر والمعاصي أي مآلهم ومنتهى أمرهم وعقبى الكافرين النار لا غير وفيه ما لا يخفى من إطماع المتقين وإقناط الكافرين والذين آتيناهم الكتاب هم المسلمون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وإصراهما ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون بنجران وثمانية باليمن وأثنان وثلاثون بالحبشة يفرحون بما أنزل إليك إذ هو الكتاب الموعود في التوراة والإنجيل ومن الأحزاب أي من أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة نحو كعب بن الأشرف والسيد العاقب اسقفي نجران واتباعهما من ينكر بعضه وهو الشرائع الحادثة إنشاء أو نسخا لا ما يوافق ما حرفوه وإلا لنعي عليهم من أول الأمر أن مدار ذلك إنما هو جنایات أيديهم وأما ما يوافق كتبهم فلم ينكروه وإن لم يفرحوا به وقيل يجوز أن يراد بالموصول الأول عامتهم فإنهم أيضا يفرحون به لكونه مصداقا لكتبهم في الجملة فحينئذ يكون قوله تعالى ومن الأحزاب الخ تنمة بمنزلة أن يقال ومنهم من ينكر بعضه قل إلزاما لهم وردا لإنكارهم إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به أي شيئا

من الأشياء أو لا افعل الإشراك به والمراد قصر الأمر بالعبادة على الله تعالى لا قصر الأمر مطلقا على عبادته تعالى خاصة أي قل إنما أمرت فيما أنزل إلي بعبادة الله وتوحيده وظاهر أن لا سبيل

وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق (37) ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب (38)

الرعد 37 38 لكم إلى إنكاره لإطباق جميع الأنبياء والكتب على ذلك كقوله تعالى قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا فما لكم تشركون به عزيز أو المسيح وقرىء ولا أشرك به بالرفع على الاستئناف أي وأنا لا أشرك به إليه إلى الله تعالى خاصة على النهج المذكور من التوحيد أو إلى ما أمرت به من التوحيد أدعو الناس لا إلى غيره أو لا إلى شيء آخر مما لم يطبق عليه الكتب الإلهية والأنبياء عليهم الصلاة والسلام فما وجه إنكاركم وإليه إلى الله تعالى وحده ما ب مرجعي للجزاء وحيث كانت هذه الحجة الباهرة لازمة لهم لا يجدون عنها محيصا أمر عليه الصلاة والسلام بأن يخاطبهم بذلك إلزاما وتبكيता لهم ثم شرع في رد إنكارهم لفروع الشرائع الواردة ابتداء أو بدلا من الشرائع المنسوخة ببيان الحكمة في ذلك فقل وكذلك أنزلناه أي ما أنزل إليك وذلك إشارة إلى مصدر أنزلناه أو أنزل إليك ومحله النصب على المصدرية أي مثل ذلك الإنزال البديع المنتظم لأصول مجمع عليها وفروع متشعبة إلى موافقة ومخالفة حسبما تقتضيه قضية الحكمة والمصلحة أنزلناه حكما حاكما يحكم في القضايا والواقعات بالحق أو يحكم به كذلك والتعرض لذلك العنوان مع أن بعضه ليس بحكم لتربية وجوب مراعاته وتحتم المحافظة عليه عربيا مترجما بلسان العرب والتعرض لذلك للإشارة إلى أن ذلك إحدى مواد المخالفة للكتب السابقة مع أن ذلك مقتضى الحكمة إذ بذلك يسهل فهمه وإدراك إعجازه والاقتصار على اشتمال الإنزال على أصول الديانات المجمع عليها حسبما يفيدته قوله تعالى قل إنما أمرت أن أعبد الله الخ ياباه التعرض

لإتباع أهوائهم وحديث المحور والإثبات وأن لكل أجل كتاب فإن
المجمع عليه لا يتصور فيه الاستتباع والإتباع ولئن تبعت أهواءهم
التي يدعونك إليها من تقرير الأمور المخالفة لما أنزل إليك من
الحق كالصلاة إلى بيت المقدس بعد التحويل بعد ما جاءك من
العلم العظيم الشأن الفاضل من ذلك الحكم العربي أو العلم
بمضمونه مالك من الله من جنابه العزيز والالتفات من التكلم إلى
الغيبة وإيراد الاسم الجليل لتربية المهابة قال الأزهري لا يكون إلهها
حتى يكون معبودا وحتى يكون خالقا ورازقا ومدبرا من ولي يلي
أمرك وينصرك على من يبغيك الغوائل ولا واق يقيك من مصارع
السوء وحيث لم يستلزم نفي الناصر على العدو نفي الواقي من
نكايته أدخل على المعطوف حرف النفي للتأكيد كقولك مالي دينار
ولا درهم أو مالك من باس الله من ناصر وواق لاتباعك أهواءهم
وأمثال هاتيك القوارع إنما هي لقطع أطماع الكفرة وتهيج المؤمنين
على الثبات في الدين واللام في لئن موطئة ومالك ساد مسد
جوابي الشرط والقسم ولقد أرسلنا رسلا كثيرة كائنة من قبلك
وجعلنا لهم أزواجا وذريته

يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب (39) وإما نرينك بعض
الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب (40) أو
لم يروا أنا تأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب
لحكمه وهو سريع الحساب (41)

الرعد 39 41 نساء وأولادا كما جعلناها لك وهو رد لما كانوا يعيبونه
صلى الله عليه وسلم بالزواج والولاد كما كانوا يقولون ما لهذا
الرسول يأكل الطعام الخ وما كان لرسول منهم أي ما صح وما
استقام ولم يكن في وسعه أن يأتي أية مما اقترح عليه وحكم مما
التمس منه إلا بإذن الله ومشئته المنية على الحكم والمصالح التي
عليها يدور أمر الكائنات لا سيما مثل هذه الأمور العظام والالتفات
لما قدمناه ولتحقيق مضمون الجملة بالإيماء إلى العلة لكل أجل أي
لكل مدة ووقت من المدد والأوقات كتاب حكم معين يكتب على
العباد حسبما تقتضيه الحكمة فإن الشرائع كلها الإصلاح أحوالهم في
المبدأ والمعاد ومن قضية ذلك أنه يختلف حسب اختلاف أحوالهم

المتغيرة حسب تغيرا الأوقات كاختلاف العلاج حسب اختلاف أحوال
المرضى بحسب الأوقات يمحو الله ما يشاء أي ينسخ ما يشاء
نسخه من الأحكام لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت ويثبت بدله ما
فيه المصلحة أو يبقيه على حاله غير منسوخ أو يثبت ما شاء إثباته
مطلقا أعم منهما ومن الإنشاء ابتداء أو يمحو من ديوان الحفظه
الذين يدينهم كتب كل قول وعمل مالا يتعلق به الجزاء ويثبت
الباقى أو يمحو سيئات التائب ويثبت مكانها الحسنه أو يمحو قرنا
ويثبت آخرين أو يمحو الفاسدات من العالم الجسماني ويثبت
الكائنات أو يمحو الرزق ويزيد فيه أو يمحو الأجل أو السعادة
والشقاوة وبه قال ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهم والقائلون
به يتضرعون إلى الله تعالى أن يجعلهم سعداء وهذا رواه جابر عن
النبي صلى الله عليه وسلم والأنسب تعميم كل من المحو والإثبات
ليشمل الكل ويدخل في ذلك مواد الإنكار دخولا أولياء وقرىء
بالتشديد وعنده أم الكتاب أي أصله وهو اللوح المحفوظ إذ ما من
شيء من الذاهب والثابت إلا وهو مكتوب فيه كما هو وإما نرينك
أصله إن نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ومن ثمة ألحقت
النون بالفعل بعض الذي نعدهم أي وعدناهم من إنزال العذاب
عليهم والعدول إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية أو نعدهم
وعدا متجددا حسبما تقتضيه الحكمة من إنذار غب إنذار وفي إيراد
البعض رمزا إلى إرادة بعض الموعود أو تتوفينك قبل ذلك فإنما
عليك البلاغ أي تبليغ إحكام الرسالة بتمامها لا تحقيق مضمون ما
بلغته من الوعيد الذي هو من جملتها وعلينا لا عليك الحساب
محاسبة أعمالهم السيئة والمؤاخذه بها أي كيفما دارت الحال
أريناك بعض ما وعدناهم من العذاب الدنيوي أو لم تركه فعلينا ذلك
وما عليك إلا تبليغ الرسالة فلا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيك ونتم
ما وعدناك من الظفر ولا يضجرك تأخره فإن ذلك لما نعلم من
المصالح الخفية ثم طيب نفسه عليه الصلاة والسلام بطلوع
تابشيره فقال أولم يروا استفهام إنكاري والواو للعطف على مقدر
يقتضيه المقام أي أنكروا نزول

وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعا يعلم ما تكسب كل
نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار (42)

الرعد 42 ما وعدناهم أو أشكوا أو ألم ينظروا في ذلك ولم يروا أنا
نأتي الأرض أي أرض الكفر ننقصها من أطرافها بأن نفتحها على
المسلمين شيئاً فشيئاً ونلحقها بدار الإسلام ونذهب منها أهلها
بالقتل والأسر والإجلاء أليس هذا من ذلك ومثله قوله عز سلطانه
أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون وقوله
ننقصها حال من فاعل نأتي أو من مفعوله وقرىء ننقصها بالتشديد
وفي لفظ الإتيان المؤذن بالإستواء المحتوم والاستيلاء العظيم من
الفخامة ما لا يخفى كما في قوله عز وجل وقدمنا إلى ما عملوا من
عمل فجعلناه هباء منثورا والله يحكم ما يشاء كما يشاء وقد حكم
للإسلام بالعزة والإقبال وعلى الكفر بالذلة والإدبار حسبما يشاهد
من المخايل والآثار وفي الإلتفات من التكلم إلى الغيبة وبناء الحكم
على الاسم الجليل من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق
مضمون الخبر بالإشارة إلى العلة ما لا يخفى وهي جملة اعتراضية
جاء بها لتأكيد فحوى ما تقدمها وقوله تعالى لا معقب لحكمه
اعتراض في اعتراض لبيان علو شأن حكمه جل جلاله وقيل نصب
على الحالية كأنه قيل والله يحكم نافذا حكمه كما تقول جاء زيد لا
عمامة على رأسه أي حاسرا والمعقب من يكر على الشيء فيبطله
وحقيقته من يعقبه ويقفيه بالرد والإبطال ومنه قيل لصاحب الحق
معقب لأنه يقفى غريمه بالاقتضاء والطلب وهو سريع الحساب
فعما قليل يحاسبهم ويجازيهم في الآخرة بأفانين العذاب غب ما
عذبهم بالقتل والأسر والإجلاء حسبما يرى وقال ابن عباس رضي
الله عنهما سريع الانتقام وقد مكر الكفار الذين خلوا من قبلهم من
قبل كفار مكة بأنبيائهم والمؤمنين كما مكر هؤلاء وهذا تسلية
لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لا عبرة بمكرهم ولا تأثير بل
لا وجود له في الحقيقة ولم يصرح بذلك اكتفاء بدلالة القصر
المستفاد من تعليله أعني قوله تعالى فله المكر أي جنس المكر
جميعا لا وجود لمكرهم أصلا إذ هو عبارة عن إيصال المكروه إلى
الغير من حيث لا يشعر به وحيث كان جميع ما يأتون وما يذرون
بعلم الله تعالى وقدرته وإنما لهم مجرد الكسب من غير فعل ولا
تأثير حسبما بيّنه قوله عز وجل يعلم ما تكسب كل نفس ومن
قضيته عصمة أوليائه وعقاب الماكرين بهم توفية لكل نفس جزاء
ما تكسبه ظهر ا ليس لمكرهم بالنسبة إلى من مكروا بهم عين ولا
أثر وأن المكر كله لله تعالى حيث يؤاخذهم بما كسبوا من فنون

المعاصي التي من جملتها مكرهم من حيث لا يحتسبون أو لله المكر الذي بأشروه جميعا لا لهم على معنى أن ذلك ليس مكرًا منهم بالأنبياء بل هو بعينه مكر من الله تعالى بهم وهم لا يشعرون حيث لا يحيق المكر السيء إلا بأهله وسيعلم الكفار حين يقضي بمقتضى علمه فيوفى كل نفس جزاء ما تكسبه لمن عقبى الدار أي العاقبة الحميدة من الفريقين وإن جهلوا ذلك يومئذ وقيل السنين لتأكيد وقوع ذلك وعلمهم به حينئذ وقرىء سيعلم الكافر على إرادة الجنس والكافرون والكفر أي أهله والذين كفروا وسيعلم على صيغة المجهول من الإعلام أي سيخبر

ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب (43)

الرعد 43 ويقول الذين كفروا لست مرسلا قيل قاله رؤساء اليهود وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاء تعجيبا منها أو للدلالة على تجدد ذلك واستمراره منهم قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم فإنه قد أظهر على رسالتي من الحجج القاطعة والبيّنات الساطعة ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر ومن عنده علم الكتاب أي علم القرآن وما عليه من النظم المعجز أو من هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا لأنهم يشهدون بنعته عليه الصلاة والسلام في كتبهم والآية مدنية بالاتفاق أو من عنده علم اللوح المحفوظ وهو الله سبحانه أي كفى به شاهدا بيننا بالذي يستحق العبادة فإنه قد شحن كتابه بالدعوة إلى عبادته وأيدني بأنواع التأييد وبالذي يختص بعلم ما في اللوح من الأشياء الكائنة الثابتة التي من جملتها رسالتي وقرىء من عنده بالكسر وعلم الكتاب على الأول مرتفع بالظرف المعتمد الموصول أو مبتدأ خبره الظرف وهو متعين على الثاني ومن عنده علم الكتاب بالكسر وبناء المفعول ورفع الكتاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الرعد أعطي من الأجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله عز وجل والله أعلم بالصواب

الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن
ربهم إلى صراط العزيز الحميد (1)

سورة إبراهيم عليه السلام آيتي ثمانية وعشرون وتسعة وعشرون
فمدنيتان وآيتها إثنان وخمسون
بسم الله الرحمن الرحيم
الر مر الكلام فيه وفي محله غير مرة وقوله تعالى كتاب خبر له
على تقدير كون الر مبتدأ أو لمبتدأ مضمراً على تقدير كونه خبراً
لمبتدأ محذوف أو مسروداً على نمط التعديد ويجوز أن يكون خبراً
ثانياً لهذا المبتدأ المحذوف وقوله تعالى أنزلناه إليك صفة له وقوله
تعالى لتخرج الناس متعلق بأنزلناه أي لتخرجهم كافة بما في
تضاعيفه من البيئات الواضحة المفصحة عن كونه من عند الله عز
وجل الكاشفة عن العقائد الحقّة وقرىء ليخرج الناس من الظلمات
أي ليخرج به الناس من عقائد الكفر والضلال التي كلها ظلمات
محضة وجهالات صرفة إلى النور إلى الحق الذي هو نور بحت لكن
لا كيفما كان فإنك لا تهدي من أحببت بل بإذن ربهم أي بتيسيره
وتوفيقه وللأنبياء عن كون ذلك منوطاً بإقبالهم إلى الحق كما يفصح
عنه قوله تعالى ويهدي إليه من أناب لستعير له الإذن الذي هو
عبارة عن تسهيل الحجاب لمن يقصد الورود وأضيف إلى ضميرهم
اسم الرب المفصح عن الترية التي هي عبارة عن تبليغ الشيء
إلى كماله المتوجه إليه وشمول الإذن بهذا المعنى للكل واضح
وعليه يدور كون الإنزال لإخراجهم جميعاً وعدم تحقق الإذن بالفعل
في بعضهم لعدم تحقق شرطه المستند إلى سوء اختيارهم غير
مخل بذلك والياء متعلقة بتخرج أو بمضمرة وقع حالا من مفعوله أي
ملتبسين بإذن ربهم وجعله حالا من فاعله ياباه إضافة الرب إليهم لا
إليه وحيث كان الحق مع وضوحه في نفسه وإيضاحه لغيره موصلاً
إلى الله عز وجل استعير له النور تارة والصراط أخرى فقيل إلى
صراط العزيز الحميد على وجه الإبدال بتكرير العامل كما في قوله
تعالى للذين استضعفوا لمن أمن منهم وإخلال البدل والبيان
بالاستعارة إنما هو في الحقيقة لا في المجاز كما في قوله سبحانه
حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر وقيل هو
استئناف مبنى على سؤال كأنه قيل إلى أي نور فقيل إلى صراط

العزیز الحمید وإضافة الصراط إليه تعالى لأنه مقصده أو المبین له وتخصیص الوصفین بالذكر للترغیب فی سلوكه بیان ما فیہ من الأمن والعاقبة الحميدة الله بالجر عطف بیان للعزیز الحمید لجرایانه مجرى الأعلام الغالبة بالاختصاص بالمعبود بالحق

الله الذي له ما فی السماوات وما فی الأرض وویل للكافرين من عذاب شديد (2) الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ویصدون عن سبیل الله ویبغونها عوجا أولئك فی ضلال بعيد (3)

إبراهيم 3 كالنجم فی الثريا وقرىء بالرفع على هو الله أي العزیز الحمید الذي أضيف إليه الصراط الله الذي له ملكا وملكاً ما فی السماوات وما فی الأرض أي ما وجد فیهما داخلاً فیهما أو خارجاً عنهما متمكناً فیهما كما مر فی آية الكرسي فیہ على القراءتين بیان لكمال فخامة شأن الصراط وإظهار لتحتّم سلوكه على الناس قاطبة وتجويز الرفع على الابتداء يجعل الموصول خبراً مبناه الغفول عن هذه النکة وقوله عز وجل وویل للكافرين وعید لمن كفر بالكتاب ولم یخرج به من الظلمات إلى النور بالویل وهو نقيض الوال وهو النجاة وأصله النصب كسائر المصادر ثم رفع رفعها للدلالة على الثبات كسلام عليك من عذاب شديد متعلق بویل على معنى یولولون ویبضجون منه قائلین یاویلاه كقوله تعالى دعوا هنالك ثبورا الذين يستحبون الحياة الدنيا أي یؤثرونها استفعال من المحبة فإن المؤثر للشيء على غیره كأنه یطلب من نفسه أن یكون أحب إليها وأفضل عندها من غیره على الآخرة أي الحياة الآخرة الأبدية ویصدون الناس عن سبیل الله التي بین شأنها والاقتصار على الإضافة إلى الاسم الجلیل المنطوي على كل وصف جمیل لروم الاختصار وهو من صده صدا وقرىء یصدون من أصد المنقول من صد صدوداً إذا نكب وهو غیر فصیح كأوقف فإن فی صده ووقفه لمندوحة عن تكلف النقل ویبغونها أي یبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمیر أي یطلبون لها عوجاً أي زیغاً واعوجاجاً وهي أبعد شيء من ذلك أي یقولون لمن یريدون صده وإضلاله إنها سبیل ناکبة وزائغة غیر مستقيمة ومحل موصول هذه الصلوات الجر على أنه بدل من الكافرين أو صفة له فیعتبر كل وصف من

أوصافهم بإزار ما يناسبه من المعاني المعتبرة في الصراط فالكفر
المنبئ عن الستر بإزاد كونه نورا وأستحباب الحياة الدنيا الفانية
المفصحة عن وخامة العاقبة بمقابلة كون سلوكه محمود العاقبة
والصد عنه بإزاء كونه مأمونا وفيه من الدلالة على تماديهم في
الغي ما لا يخفى أو النصب على الذم أو الرفع على الابتداء والخبر
قوله تعالى أولئك في ضلال بعيد وعلى الأول جملة مستأنفة وقعت
معللة لما سبق من لحوق الويل بهم تأكيدا لما شعر به بناء الحكم
على الموصول أي أولئك الموصوفون بالقبائح المذكورة من
استحباب الحياة الدنيا على الآخرة وصد الناس عن سبيل الله
المستقيمة ووصفها بالاعوجاج وهي منه بنزه في ضلال عن طريق
الحق بعيد بالغ في ذلك غاية الغايات القاصية والبعيد وإن كان من
أحوال الضال إلا أنه قد وصف به وصفه مجازا للمبالغة كجد جده
وداهية دهياء ويجوز أن يكون المعنى في ضلال ذي بعد أو فيه بعد
فإن الضال قد يضل عن الطريق مكانا قريبا وقد يضل بعيدا وفي
جعل الضلال محيطا بهم إحاطة الظرف بما فيه ما لا يخفى من
المبالغة

وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من
يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم (4)

إبراهيم 4 وما أرسلنا أي في الأمم الخالية من قبلك كما سيذكر
إجمالا من رسول إلا ملتبسا بلسان قومه متكلمًا بلغة من أرسل
إليهم من الأمم المتفقة على لغة سواء بعث فيهم أولا وقرىء
بلسن وهو لغة فيه كرىش ورياش وبلسن بضمين وضمة وسكون
كعمد وعمد ليبين لهم ما أمروا به فإلتقوا منه ببسر وسرعة ويعملوا
بموجه من غير حاجة إلى الترجمة ممن لم يؤمر به وحيث لم
يمكن مراعاة هذه القاعدة في شأن سيدنا محمد صلى الله عليه
وسلم وعليهم أجمعين لعموم بعثته للثقيلين كافة على اختلاف
لغاتهم وكان تعدد نظم الكتاب المنزل إليه حسب تعدد ألسنة الأمم
أدعى إلى التنازع واختلاف الكلمة وتطرق أيدي التحريف مع أن
استقلال بعض من ذلك بالإعجاز دون غيره مثنة لقدح القادحين
واتفاق الجميع فيه أمر قريب من الإلجاء وحصر البيان بالترجمة

والتفسير اقتضت الحكمة اتحاد النظم المنبئ عن العزة وجلالة الشأن المستتبع لفوائد غنية عن البيان على أن الحاجة إلى الترجمة تتضاعف عند التعدد إذ لا بد لكل أمة من معرفة توافق الكل وتحاذيه حذو القذة بالقذة من غير مخالفة ولو في خصلة فذة وإنما يتم ذلك بمن يترجم عن الكل واحدا أو متعددا وفيه من التعذر ما يتاخم الامتناع ثم لما كان أشرف الأقسام وأولاهم بدعوته عليه الصلاة والسلام قومه الذين بعث فيهم ولغتهم أفضل اللغات نزل الكتاب المتين بلسان عربي مبين وانتشرت أحكامه فيما بين الأمم أجمعين وقيل الضمير في قومه لمحمد صلى الله عليه وسلم فإنه تعالى أنزل الكتب كلها عربية ثم ترجمها جبريل عليه الصلاة والسلام أو كل من نزل عليه من الأنبياء عليهم السلام بلغة من نزل عليهم ويرده قوله تعالى ليبين لهم فإنه ضمير القوم وظاهر أن جميع الكتب لم ينزل لتبيين العرب وفي رجعه إلى قوم كل نبي كأنه قيل وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قوم محمد صلى الله عليه وسلم ليبين الرسول لقومه الذين أرسل إليهم ما لا يخفى من التكلف فيضل الله من يشاء إضلاله أي يخلق فيه الضلال لمباشرة أسبابه المؤدية إليه أو يخذله ولا يلفظ به لما يعلم أنه لا ينجع فيه الألفاظ ويهدي بالتوفيق ومنح الألفاظ من يشاء هدايته لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق والالتفات بإسناد الفعلين إلى الاسم الجليل المنطوي على الصفات لتفخيم شأنهما وترشيح مناط كل منهما والفاء فصيحة مثلها في قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانقلب كأنه قيل فبينوه لهم فأضل الله منهم من شاء إضلاله لما لا يليق إلا به وهدى من شاء هدايته لاستحقاقه لها والحذف للإيدان بأن مسارعة كل رسول إلى ما أمر به وجريان كل من أهل الخذلان والهداية على سنته أمر محقق غني عن الذكر والبيان والعدول إلى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدد والاستمرار حسب تجدد البيان من الرسل المتعاقبة عليهم السلام وتقديم الإضلال على الهداية إما لأنه إبقاء ما كان على من كان والهداية إنشاء ما لم يكن أو للمبالغة في بيان أن لا تأثير للتبيين والتذكير من قبل الرسل وأن مدار الأمر إنما هو مشيئته تعالى بإيهام أن ترتب الضلالة على ذلك أسرع من

ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور

وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور (5) وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم (6)

إبراهيم 5 ترتب الإهتداء وهذا محقق لما سلف من تقييد الإخراج من الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى وهو العزيز فلا يغالب في مشيئته الحكيم الذي لا يفعل شيئاً من الإضلال والهداية إلا لحكمة بالغة وفيه أن ما فوض إلى الرسل إنما هو تبليغ الرسالة وتبيين طريق الحق وأما الهداية والإرشاد إليه فذلك بيد الله سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ولقد أرسلنا موسى شروع في تفصيل ما أجمل في قوله عز وجل وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم الآية بآياتنا أي ملتبساً بها وهي معجزاته التي أظهرها لبني إسرائيل أن أخرج قومك بمعنى أي أخرج لأن الإرسال فيه معنى القول أو بأن أخرج كما في قوله تعالى وأن أقم وجهك فإن صيغ الأفعال في الدلالة على المصدر سواء وهو المدار في صحة الوصل والمراد بذلك إخراج بني إسرائيل بعد مهلك فرعون من الظلمات من الكفر والجهالات التي أدتهم إلى أن يقولوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم إلهة إلى النور إلى الإيمان بالله وتوحيده وسائر ما أمروا به وذكرهم بأيام الله أي بنعمائه وبلائه كما ينبىء عنه قوله اذكروا نعمة الله عليكم لكن لا بما جرى عليهم فقط بل عليهم وعلى من قبلهم من الأمم في الأيام الخالية حسبما ينبىء عنه قوله تعالى ألم يأتكم نبياً الذين من قبلكم الآيات أو بآيامه المنطوية على ذلك كما يلوح به قوله تعالى إذ أنجاكم والالتفات من التكلم إلى الغيبة بإضافة الأيام إلى الاسم الجليل للإيدان بفخامة شأنها والإشعار بعدم اختصاص ما فيها من المعاملة بالمخاطب وقومه كما توهمه الإضافة إلى ضمير المتكلم أي عظمهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد وقيل أيام الله وقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم وأيام العرب وقائعها وحروبها وملاحمها أي أنذرهم وقائعه التي دهمت الأمم الدارجة ويرده ما تصدى له صلى الله عليه وسلم بصدد الإمتثال من التذكير بكل من السراء والضراء مما جرى عليهم وعلى غيرهم حسبما يتلى عليك إن في ذلك أي في التذكير بها أو في مجموع تلك النعماء والبلاء أو في أيامها لآيات عظيمة أو كثيرة

دالة على وحدانية الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته فهي على
الأول عبارة عن الأيام سواء أريد بها أنفسها أو ما فيها من النعماء
والبلاء ومعنى ظرفية التذكير لها كونه مناطا لظهورها وعلى الثالث
عن تلك النعماء والبلاء ومعنى الظرفية ظاهر وأما على الثاني وهو
كونه إشارة إلى مجموع النعماء فعن كل واحدة من تلك النعماء
والبلاء والمشار إليه المجموع المشتمل عليها من حيث هو مجموع
أو كلمة في تجريدية مثلها في قوله تعالى لهم فيها دار الخلد لكل
صبار على بلائه شكور لنعمائه وقيل مؤمن والتعبير عنهم بذلك
للإشعار بأن الصبر والشكر عنوان المؤمن أي لكل من يليق بكمال
الصبر والشكر أو الإيمان ويصير أمره إليها لا لمن اتصف بها بالفعل
لأنه تعليل للأمر بالتذكير المذكور السابق على التذكير المؤدى إلى
تلك المرتبة فإن من تذكر ما فاض أو نزل عليه أو على من قبله
من النعماء والبلاء وتنبه لعاقبة الشكر والصبر أو الإيمان لا يكاد
يفارقها وتخصيص الآيات بهم لأنهم المنتفعون بها لا لأنها خافية

وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد
(7)

إبراهيم 76 عن غيرهم فإن النبيين حاصل بالنسبة إلى الكل
وتقديم الصبار على الشكور لتقدم متعلق الصبر أعنى البلاء على
متعلق الشكر أعنى النعماء وكون الشكر عافية الصبر وإذ قال
موسى لقومه شروع في بيان تصديه عليه الصلاة والسلام لما أمر
به من التذكير للإخراج المذكور وإذ منصوب على المفعولية بمضمرة
خوطف به النبي وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما
وقع فيه من الحوادث قد مر سره غير مرة أي أذكر لهم وقت قوله
عليه الصلاة والسلام لقومه اذكروا نعمة الله عليكم بدأ عليه الصلاة
والسلام بالترغيب لأنه عند النفس أقبل وهي إليه أميل والظرف
متعلق بنفس النعمة إن جعلت مصدرا أو بمحذوف وقع حالا منها إن
جعلت اسما أي اذكروا إنعامه عليكم واذكروا نعمته كائنة عليكم
وكذلك كلمة إذ في قوله تعالى إذ أنجاكم من آل فرعون إي اذكروا
إنعامه عليكم وقت إنجائه إياكم من آل فرعون أو اذكروا نعمة الله
مستقرة عليكم وقت إنجائه إياكم منهم أو بدل اشتغال من نعمة

الله مرادا بها الإنعام أو العطية يسومونكم يبغونكم من سامه خسفا إذا أولاه ظلما وأصل السوم الذهاب في طلب الشيء سوء العذاب السوء مصدر ساء يسوء والمراد به جنس العذاب السيء أو استبعادهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة والاستهانة بهم وغير ذلك مما لا تحصرو نصبه على أنه مفعول ليسومونكم ويذبحون أبناءكم المولودين وإنما عطفه على يسومونكم إخراجا له عن مرتبة العذاب المعتاد وإنما فعلوا ذلك لأن فرعون رأى في المنام أو قال له الكهنة أنه سيولد منهم من يذهب بملكه فاجتهدوا في ذلك فلن يغن عنهم من قضاء الله شيئا ويستحيون نساءكم أي يقونهن في الحياة مع الذل والصغار ولذلك عد من جملة البلاء والجمل أحوال من آل فرعون أو من ضمير المخاطبين أو منهما جميعا لأن فيها ضمير كل منهما وفي ذلكم أي فيما ذكر من أفعالهم الفظيعة بلاء من ربكم أي ابتلاء منه لا أن البلاء عين تلك الأفعال اللهم إلا أن تجعل في تجريدته فنسبته إلى الله تعالى إما من حيث الخلق أو الأقدار والتمكين عظيم لا يطاق ويجوز أن يكون المشار إليه الإنجاء من ذلك والبلاء الابتلاء بالنعمة وهو الأنسب كما يلوح به التعرض لوصف الربوبية وعلى الأول يكون ذلك باعتبار المال الذي هو الإنجاء أو باعتبار أن بلاء المؤمن تربية له وإذ تأذن ربكم من جملة موسى عليه الصلاة والسلام لقومه معطوف على نعمة الله أي اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم أي أذن إيدانا بليغا لا تبقى معه شائبة لما في صيغة التفعّل من معنى التكلّف المحمول في حقه سبحانه على غايته التي هي الكمال وقيل هو معطوف على قوله تعالى إذ أنجاكم أي اذكروا نعمته تعالى في هذين الوقتين فإن هذا التأذن أيضا نعمة من الله تعالى عليهم ينالون بها خيري الدنيا والآخرة وفي قراءة ابن مسعود رضي الله تعالى عنه وإذ قال ربكم ولقد ذكرهم عليه الصلاة والسلام أولا بنعمائه تعالى

وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد (8) ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وشمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب (9)

إبراهيم 9 8 عليهم صريحا وضمنه تذكير ما أصابهم قبل ذلك من الضراء ثم أمرهم ثانيا بذكر ما جرى من الله سبحانه من الوعد بالزيادة على تقدير الشكر والوعيد بالعذاب على تقدير الكفر والمراد بتذكير الأوقات تذكير ما وقع فيها من الحوادث مفصلة إذ هي محيطة بذلك فإذا ذكرت ذكر ما فيها كأنه مشاهد معين لئن شكرتم يا بني إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وإهلاك العدو وغير ذلك من النعم والآلاء الفائلة للحصر وقابلتموه بالإيمان والطاعة لأزيدنكم نعمة إلى نعمة ولئن كفرتم ذلك وغمصتموه إن عذابي لشديد فعسى يصيبكم منه ما يصيبكم ومن عادة الكرام التصريح بالوعد والتعريض الوعيد فما ظنك بأكرم الأكرمين ويجوز أن يكون المذكور تعليلا للجواب المحذوف أي لأعذبنكم واللام في الموضوعين موطئة للقسم وكل من الجوابين ساد مسد جوابي الشرط والقسم والجملة إما مفعول لتأذن لانه ضرب من القول أو لقول مقدر بعده كأنه قيل وإذ تأذن ربكم فقال الخ وقال موسى إن تكفروا نعمه تعالى ولم تشكروها أنتم يا بني إسرائيل ومن في الأرض من الخلائق جميعا فإن الله لغني عن شكركم وشكر غيركم حميد مستوجب للحمد بذاته لكثرة ما يوجهه من أياديه وإن لم يحمده أحد أو محمود يحمده الملائكة بل كل ذرة من ذرات العالم ناطقة بحمده والحمد حيث كان بمقابلة النعمة وغيرها من الفضائل كان أدل على كماله سبحانه وهو تعليل لما حذف من جواب إن أي إن تكفروا لم يرجع وباله إلا عليكم فإن الله تعالى لغني عن شكر الشاكرين ولعله عليه الصلاة والسلام إنما قاله عند ما عاين منهم دلائل العناد ومخايل الإصرار على الكفر والفساد وتيقن أنه لا ينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب أو قاله غب تذكيرهم من قول الله عز سلطانه وتحقيقا لمضمونه وتحذيرا لهم من الكفران ثم شرع في الترهيب بتذكير ما جرى على الأمم الخالية فقال ألم يأتيكم نبأ الذين من قبلكم ليتدبروا ما أصاب كل واحد من حزبي المؤمن والكافر فيقلعوا عما هم عليه من الشر وينيبوا إلى الله تعالى وقيل هو ابتداء كلام من الله تعالى خطابا للكفرة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فيختص تذكير موسى عليه الصلاة والسلام بما اختص ببني إسرائيل من السراء والضراء والأيام بالأيام الجارية عليهم فقط وفيه مالا يخفى من البعد وأيضا لا يظهر حينئذ

وجه تخصيص تذكير الكفرة الذين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بما اصاب أولئك المعدودين مع أن غيرهم أسوة لهم في الخلو قبل هؤلاء قوم نوح بدل من الموصول أو عطف بيان وعاد معطوف على قوم نوح وثمرود والذين من بعدهم أي من هؤلاء المذكورين عطف عام على قوم نوح وما عطف

قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين (10)

إبراهيم 10 عليه وقوله تعالى لا يعلمهم إلا الله اعتراض أو الموصول مبتدأ ولا يعلمهم إلى آخره خبره والجملة اعتراض والمعنى أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله سبحانه وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون وكان ابن مسعود رضي الله تعالى عنه إذا قرأ هذه الآية قال كذب النسابون يعني أنهم يدعون علم الأنساب وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد جاءتهم رسلهم استئناف لبيان نبئهم بالبينات بالمعجزات الظاهرة والبينات الباهرة فبين كل رسول لأمة طريق الحق وهداهم إليه ليخرجهم من الظلمات إلى النور فردوا أيديهم في أفواههم مشيرين بذلك إلى ألسنتهم وما يصدر عنها من المقالة اعتناء منهم بشأنها وتنبئها للرسول على تلقيها والمحافظة عليها وإقناطاً لهم عن التصديق والإيمان بإعلام أن لا جواب لهم سواه وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به أي على زعمكم وهي البينات التي أظهرها حجة على صحة رسالاتهم كقوله تعالى ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ومرادهم بالكفر بها الكفر بدلالاتها على صحة رسالاتهم أو فعضوها غيضا وضجرا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى عضوا عليكم الأنامل من الغيظ أو وضعوها عليها تعجبا منه واستهزاء به كمن غلبه الضحك أو إسكانا للأنبياء عليهم السلام وأمرهم بإطباق الأفواه أو ردوها في أفواه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يمنعونهم من التكلم تحقيقا أو تمثيلا أو جعلوا أيدي الأنبياء في أفواههم تعجبا من عتوهم وعتادهم كما ينبىء عنه تعجبهم

بقولهم أفي الله شك الخ وقيل الأيدي بمعنى الأيدي عبر بها عن مواعظهم ونصائحهم وشرائعهم التي مدار النعم الدينية والدنياوية لأنهم لما كذبوها فلم يقبلوها فكأنهم ردوها إلى حيث جاءت منه وأنا لفي شك عظيم مما تدعوننا إليه من الإيمان بالله والتوحيد فلا ينافي شكهم في ذلك كفرهم القطعي بما أرسل به الرسل من البيئات فإنهم كفروا بها قطعاً حيث لم يعتدوا بها ولم يجعلوها من جنس المعجزات ولذلك قالوا فأتونا بسلطان مبين وقرىء تدعون بالإدغام مريب موقع في الريبة من أراهه أو ذى ريبة من أراب الرجل وهي قلق النفس وعدم اطمئنانها بالشيء قالت رسلهم استئناف مبني على سؤال ينساق إليه المقال كأنه قيل فماذا قالت لهم رسلهم فأجيب بأنهم قالوا منكرين عليهم ومتعجبين من مقالتهم الحمقاء أفي الله شك بإدخال الهمزة على الظرف للإيدان بان مدار الإنكار ليس نفس الشك بل وقوعه فيما لا يكاد يتوهم فيه الشك أصلاً منقادين عن تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأن يقولوا أنتم في شك مريب من الله تعالى مبالغة في تنزيه ساحة السبحان عن شائبة الشك وتسجيلاً عليهم بسخافة العقول أي أفي شأنه سبحانه من وجوده ووحدته ووجوب الإيمان به وحده شك ما وهو أظهر من كل ظاهر وأجلى من كل جلي حتى تكونوا من قبله في شك مريب وحيث كان مقصدهم الأقصى الدعوة إلى الإيمان والتوحيد

قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين (10) قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون (11)

إبراهيم 11 وكان إظهار البيئات وسيلة إلى ذلك لم يتعرضوا للجواب عن قول الكفرة إنا كفرنا بما أرسلتم به واقتصروا على بيان ما هو الغاية القصوى ثم عقبوا ذلك الإنكار بما يوجهه من الشواهد الدالة على انتفاء المنكر فقالوا فاطر السماوات والأرض

أي مبدعهما وما فيهما من المصنوعات على نظام أنيق شاهد
بتحقق ما أنتم منه في شك وهو صفة للإسم الجليل أو بدل منه
وشك مرتفع بالظرف لإعتماده على الإستفهام وجعله مبتدأ على أن
الظرف خبره يفضي إلى الفصل بين الموصوف والصفة بالأجنبي
أعني المبتدأ والفاعل ليس بأجنبي من رافعه وقد جوز ذلك أيضا
يدعوكم إلى الإيمان بإرساله إيانا لا أنا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا
كما يوهمه قولكم مما تدعوننا إليه ليغفر لكم بسببه أو يدعوكم
لأجل المغفرة كقولك دعوته ليأكل معي من ذنوبكم أي بعضها وهو
ما عدا المظالم مما بينهم وبينه تعالى فإن الإسلام بحبه قيل هكذا
وقع في جميع القرآن في وعد الكفرة دون وعد المؤمنين تفرقة
بين الوعد ولعل ذلك لما أن المغفرة حيث جاءت في خطاب
الكفرة مرتبة على محض الإيمان وفي شأن المؤمنين مشفوعة
بالطاعة والتجنب عن المعاصي ونحو ذلك فيتناول الخروج من
المظالم وقيل المعنى ليغفر لكم بدلا من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل
مسمى إلى وقت سماه الله تعالى وجعله منتهي أعماركم على
تقدير الإيمان قالوا استئناف كما سبق إن أنتم أي ما أنتم إلا بشر
مثلنا من غير فضل يؤهلكم لما تدعونه من النبوة تريدون صفة ثانية
لبشر حملا على المعنى كقوله تعالى أبشر يهدوننا أو كلام مستأنف
أي تريدون بما تتصدون له من الدعوة والإرشاد إن تصدونا
بتخصيص العبادة بالله سبحانه عما كان يعبد آباؤنا أي عن عبادة ما
استمر آباؤنا على عبادته من غير شيء يوجهه وإلا فأتونا أي وإن لم
يكن الأمر كما قلنا بل كنتم رسلا من جهة الله تعالى كما تدعونه
فأتونا بسلطان مبين يدل على فضلكم واستحقاقكم لتلك الرتبة أو
على صحة ما تدعونه من النبوة حتى نترك ما لم نزل نعبده أبا عن
جد ولقد كانوا آتوهم من الآيات الظاهرة والبيئات الباهرة ما تخر له
صم الجبال ولكنهم إنما يقولون ما يقولون من العظائم مكابرة
وعنادا وإراءة لمن وراءهم أن ذلك ليس من جنس ما ينطلق عليه
السلطان المبين قالت لهم رسلهم مجازاة معهم في أول مقالتهم
وإنما قيل لهم لاختصاص الكلام بهم حيث أريد إلزامهم بخلاف ما
سلف من إنكار وقوع الشك في الله سبحانه فإن ذلك عام وإن
اختص بهم ما يعقبه إن نحن إلا بشر مثلكم كما تقولون ولكن الله
يمن بالنبوة على من يشاء من عباده يعنون أن ذلك عطية من الله
تعالى يعطيها من يشاء من عباده بمحض الفضل والإمتنان من غير
داعية توجهه قالوه تواضعا وهضما للنفس أو ما نحن من الملائكة بل

نحن بشر مثلكم في الصورة أو في الدخول تحت الجنس ولكن الله يمن بالفضائل والكمالات والإستعدادات على من يشاء المن وما يشاء ذلك إلا لعلمه باستحقاقه لها وتلك الفضائل والكمالات والإستعدادات هي التي يدور عليها فلك الاصطفاء للنبوّة وما كان وما صح وما استقام لنا أن نأتيكم

وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما أذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون (12) وقال الذين كفروا لرسلم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين (13) ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد (14)

إبراهيم 12 14 بسطان أي بحجة من الحجيج فضلا عن السلطان المبين بشيء من الأشياء وسبب من الأسباب إلا بإذن الله فإنه أمر يتعلق بمشيئته تعالى إن شاء كان وإلا فلا وعلى الله وحده دون ما عداه مطلقا فليتوكل المؤمنون أمر منهم للمؤمنين بالتوكل ومقصود هم حمل أنفسهم عليه أثر ذي أثر ألا يرى إلى قوله عز وجل ومالنا أي عذر لنا أن لا نتوكل على الله أي في أن لا نتوكل عليه والإظهار لإظهار النشاط بالتوكل عليه والاستلذاذ بذكر اسمه تعالى وتعليل التوكل وقد هدانا أي والحال أنه قد فعل بنا ما يوجب ويستدعيه حيث هدانا سبلنا أي ارشد كلا منا سبيله ومنهاجه الذي شرع له ووجب عليه سلوكه في الدين وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والإضطراب القادح في التوكل قالوا على سبيل التوكد القسمي مظهرين لكمال العزيمة ولنصبرن على ما أذيتمونا بالعناد واقتراح الآيات وغير ذلك مما لا خير فيه وعلى الله خاصة فليتوكل المتوكلون أي فليثبت المتوكلون على ما أحدثوه من التوكل والمراد هو المراد مما سبق من إيجاب التوكل على أنفسهم والمراد بالمتوكلين المؤمنون والتعبير عنهم بذلك لسبق ذكر اتصافهم به ويجوز أن يراد وعليه فليتوكل من توكل دون غيره وقال الذين كفروا لعل هؤلاء القائلين بعض المتمردين العاتين الغالين في الكفر من أولئك الأمم الكافرة التي نقلت مقالاتهم الشنيعة دون جميعهم كقوم شعيب وأضرابهم ولذلك لم يقل وقالوا لرسلم لنخرجنكم

من أرضنا أو لتعودن في ملتنا لم يقنعوا بعصيانهم الرسل
ومعاندتهم الحق بعد مار أو البيئات الفاتئة للحصر حتى اجترءوا
على مثل هاتيك العظيمة التي لا يكاد يحيط بها دائرة الإمكان
فخلفوا على أن يكون أحد المحالين والعود إما بمعنى مطلق
الضرورة أو باعتبار تغليب المؤمنين على الرسل وقد مر في
الأعراف وسيأتي في الكهف فأوحى إليهم أي إلى الرسل ربهم
مالك أمرهم عند تناهي كفر الكفرة وبلوغهم من العتو إلى غاية لا
مطمع بعدها في إيمانهم لنهلكن الظالمين على إضمار القول أو
على إجراء الإحياء مجراه لكونه ضربا منه ولنسكننكم الأرض أي
أرضهم وديارهم عقوبة لهم بقولهم لنخرجنكم من أرضنا كقوله
تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض
ومغاربها من بعدهم أي من بعد إهلاكهم وقرىء ليهلكن وليسكننكم
بالياء اعتبارا لأوحى كقولهم حلف زيد ليخرجن غدا ذلك إشارة إلى
الموحى به وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم أي ذلك
الأمر محقق ثابت لمن خاف

واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد (15) من ورائه جهنم ويسقى من
ماء صديد (16) يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل
مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ (17)

إبراهيم 15 17 مقامي موقفي وهو الموقف الذي يقف فيه العباد
يوم يقوم الناس لرب العالمين أو قيامي عليه وحفظي لأعماله
وقيل لفظ المقام مقحم وخاف وعيد وعيدى بالعذاب أو عذابي
الموعود للكفار والمعنى إن ذلك حق للمتقين كقوله والعافية
للمتقين واستفتحوا أي استنصروا الله على أعدائهم كقوله تعالى إن
تستفتحوا فقد جاءكم الفتح أو استحكموا وسألوه القضاء بينهم من
الفتاحة وهي الحكومة كقوله تعالى ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق
فالضمير للرسل وقيل للكفرة وقيل للفريقين فإنهم سألوا أن ينصر
المحق ويهلك المبطل وهو معطوف على أوحى إليهم وقرىء بلفظ
الأمر عطفًا على لتهلكن الظالمين أي أوحى إليهم ربهم لنهلكن
وقال لهم استفتحوا وخاب أي خسر وهلك كل جبار عنيد متصف
بضد ما اتصف به المتقون أي فنصروا عند استفتاحهم وظفرا بما

سألوا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد وهم قومهم المعاندون فالخيبة
بمعنى مطلق الحرمان دون الحرمان عن المطلوب أو ذلك باعتبار
أنهم كانوا يزعمون أنهم على الحق أو استفتح الكفار على الرسل
وخابوا ولم يفلحوا وإنما قيل وخاب كل جبار عنيد ذما لهم وتسجيلا
عليهم بالتجبر والعناد لا أن بعضهم ليسوا كذلك وأنه لم يصبهم
الخبية أو استفتحوا جميعا فنصر الرسل وأنجز لهم الوعد وخاب كل
عات متمرّد فالخيبة بمعنى الحرمان غب الطلب وفي إسناد الخيبة
إلى كل منهم مالا يخفى من المبالغة من ورائه جهنم أي بين يديه
فإنه مرصد لها واقف على شفيرها في الدنيا مبعوث إليها في
الأخرة وقيل من وراء حياته وحقيقته ما توارى عنك ويسقى
معطوف على مقدر جوابا عن سؤال سائل كأنه قيل فماذا يكون
إذن فقيل يلقي فيها ويسقى من ماء مخصوص لا كالمياه المعهودة
صديد وهو قيح أو دم مختلط بمدة يسيل من الجرح قال مجاهد
وغيره هو ما يسيل من أجساد أهل النار وهو عطف بيان لما ابهم
أولا ثم بين بالصديد تهويلا لأمره وتخصيصه بالذكر من بين عذابها
يدل على أنه من أشد أنواعه يتجرعه قيل هو صفة لماء أو حال منه
والأظهر أنه استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا يفعل به
فقيل يتجرعه أي يتكلف جرعه مرة بعد أخرى لغلبة العطش
واستيلاء الحرارة عليه ولا يكاد يسيغه أي لا يقارب أن يسيغه فضلا
عن الإساعة بل يغص به فيشربه بعد اللتيا والتي جرعة غب جرعة
فيطول عذابه تارة بالحرارة والعطش وأخرى بشربه على تلك
الحال فإن السواغ انحدار الشراب في الحلق بسهولة وقبول نفس
ونفيه لا يوجب نفي ما ذكر جميعا وقيل لا يكاد يدخله في جوفه
وعبر عنه بالإساعة لما أنها المعهودة في الاشرية وهو حال من
فاعل يتجرعه أو من

مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشثتت به الريح في يوم
عاصف لا يقدرّون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد)
(18) ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم
ويأت بخلق جديد (19)

إبراهيم 18 19 مفعوله أو منهما جميعا ويأتيه الموت أي أسبابه من

الشدائد من كل مكان ويحيط به من جميع الجهات أو من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وإبهام رجله وما هو بميت أي والحال أنه ليس بميت حقيقة كما هو الظاهر من مجيء أسبابه لا سيما من جميع الجهات حتى لا يتألم بما غشية من أصناف الموبقات ومن ورائه من بين يديه عذاب غليظ يستقبل كل وقت عذابا اشد واشق مما كان قبله ففيه دفع ما يتوهم من الخفة بحسب الاعتياد كما في عذاب الدنيا وقيل هو الخلود في النار وقيل هو حبس الأنفاس وقيل المراد بالاستفتاح والخيبة استسقاء أهل مكة في سنينهم التي أرسلها الله تعالى عليهم بدعوته عليه الصلاة والسلام وخيبتهم في ذلك وقد وعد لهم بدل صديد أهل النار مثل الذين كفروا بربهم أي صفتهم وحالهم العجيبة الشأن التي هي كالمثل في الغرابة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى أعمالهم كرماد كقولك صفة زيد عرضه مهتوك وماله منهوب وهو استئناف مبني على سؤال من قال ما بال أعمالهم التي عملوها في وجوه البر من صلة الأرحام وإعتاق الرقاب وفداء الأسارى وإغاثة الملهوفين وقرى الأضياف وغير ذلك مما هو من باب المكارم حتى آل أمرهم إلى هذا المآل فأجيب بأن ذلك كرماد اشتدت به الريح حملته وأسرعت الذهاب به في يوم عاصف العصف اشتداد الريح وصف به زمانها مبالغة كقولك ليلة ساكرة وإنما السكور لريحها شبهت صنائعهم المعدودة لابتنائها على غير أساس من معرفة الله تعالى والإيمان به والتوجه بها إليه تعالى برماد طيرته الريح العاصفة أو استئناف مسوق لبيان أعمالهم للأصنام أو مبتدأ خبره محذوف كما هو رأي سيبويه أي فيما يتلى عليك مثلهم وقوله أعمالهم جملة مستأنفة مبنية على سؤال من يقول كيف مثلهم فقيل أعمالهم كيت وكيت سواء أريد بها صنائعهم أو أعمالهم لأصنامهم وقيل أعمالهم بدل من مثل الذين وقوله كرماد خبره لا يقدر أن أي يوم القيامة مما كسبوا من تلك الأعمال على شيء ما أي لا يرون له أثرا من ثواب أو تخفيف عذاب كدأب الرماد المذكور وهو فذلكة التمثيل والاكتفاء ببيان عدم رؤية الأثر لأعمالهم للأصنام مع أن لها عقوبات هائلة للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنها شفعاء لهم عند الله تعالى وفيه تهكم بهم ذلك أي ما دل عليه التمثيل دلالة واضحة من ضلالهم مع حسابانهم أنهم على شيء هو الضلال البعيد عن طريق الصواب أو عن نيل الثواب

ألم تر خطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والمراد به أمته وقيل

لكل أحد من الكفرة لقوله تعالى يذهبكم والرؤية رؤية القلب وقوله تعالى إن الله خلق السموات والأرض ساد مسد مفعولها أي ألم تعلم أنه تعالى خلقهما بالحق ملتبسة بالحكمة والوجه الصحيح الذي يحق أن تخلق عليه وقرىء خالق السموات والأرض إن يشأ يذهبكم يعدمكم بالمرة ويأت بخلق جديد أي يخلق بدلکم خلقا مستأنفا لا علاقة

وما ذلك على الله بعزير (20) وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص (21)

إبراهيم 20 21 بينكم وبينهم رتب قدرته تعالى على ذلك على قدرته تعالى على خلق السموات والأرض على هذا النمط البديع إرشادا إلى طريق الاستدلال فإن من قدر على خلق مثل هاتيك الأجرام العظيمة كان على تبديل خلق آخر بهم أقدر ولذلك قال وما ذلك أي إذهابكم والإتيان بخلق جديد مكانكم على الله بعزير بمتعذر أو متعسر فإنه قادر لذاته على جميع الممكنات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ومن هذا شأنه حقيق بأن يؤمن به ويرجى ثوابه ويخشى عقابه وبرزوا لله جميعا أي يبرزون يوم القيامة وإيثار صيغة الماضي للدلالة على تحقيق وقوعه كما في قوله سبحانه ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أو لأنه لا مضى ولا إستقبال بالنسبة إليه سبحانه والمراد بروزهم من قبورهم لأمر الله تعالى ومحاسبته أو لله على ظنهم فإنهم كانوا يظنون عند ارتكابهم الفواحش سرا أنها تخفى على الله سبحانه فإذا كان يوم القيامة انكشفوا الله عند أنفسهم فقال الضعفاء الأتباع جمع ضعيف والمراد ضعف الرأي وإنما كتب بالواو وعلى لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة للذين استكبروا لرؤسائهم الذين استتبعوهم واستغفووهم إنا كنا في الدنيا لكم تبعا في تكذيب الرسل عليهم السلام والإعراض عن نصائحهم وهو جمع تابع كغيب في جمع غائب أو مصدر نعت به مبالغة أو على إضمار أي ذوي تبع فهل أنتم مغنون دافعون عنا والفاء للدالة على سببيه الإتيان للإغناء والمراد التوبيخ والعتاب

والتقريع والتبكيك من عذاب الله من شيء من الأولى للبيان واقعة موقع الحال والثانية للتبعيض واقعة موقع المفعول أي بعض الشيء الذي هو عذاب الله تعالى ويجوز كونهما للتبعيض أي بعض شيء هو بعض عذاب الله والإعراب كما سبق ويجوز أن تكون الأولى مفعولا والثانية مصدرا أي فهل أنتم مغنون عنا بعض العذاب بعض الإغناء ويعضد الأول قوله تعالى فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار قالوا أي المستكبرون جوابا عن معاتبة الأتباع واعتذارا عما فعلوا بهم لو هدانا الله أي للإيمان ووفقنا له لهديناكم ولكن ضللنا فأضللناكم أي اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا أو لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم وأغنينا عنكم كما عرضنا له ولكن سدّدونا طريق الخلاص ولات حين مناص سواء علينا أجزعنا مما لقينا أم صبرنا على ذلك أي مستو علينا الجزع والصبر في عدم الإنجاء والهمزة وأم لتأكيد التسوية كما في قوله تعالى سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم وإنما أسندوهما ونسبوا استواءهما إلى ضمير المتكلم المنتظم للمخاطبين أيضا مبالغة في النهي عن

وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم) (22)

إبراهيم 22 التوبيخ بإعلام أنهم شركاء لهم فيما ابتلوا به وتسلية لهم ويجوز أن يكون قوله سواء علينا الخ من كلام الفريقين على منوال قوله تعالى ذلك ليعلم أني لم أخنه ويؤيده ما روى أنهم يقولون تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون كذلك فلا ينفعهم فعند ذلك يقولون ذلك ولما كان عتاب الإتياع من باب الجزع ذيلوا جوابهم ببيان أن لا جدوى في ذلك فقالوا ما لنا من محيص من منجى ومهرب من العذاب من حاص الحمار إذا عدل بالفرار وهو إما اسم مكان كالمبيت والمصيف أو مصدر كالمغيب والمشيب وهي جملة مفسرة لإجمال ما فيه الاستواء فلا محل لها من الإعراب أو حال مؤكدة أو بدل منه

وقال الشيطان الذي أضل كلا الفريقين واستتبعهما عند ما عتابه بما قاله الأتباع للمستكبرين لما قضى الأمر أي أحكم وفرغ منه وهو الحساب ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار خطيبا في محفل الأشقياء من الثقلين إن الله وعدكم وعد الحق أي وعدا من حقه أن ينجز فأنجزه أو وعدا أنجزه وهو الوعد بالبعث والجزاء ووعدتكم أي وعد الباطل وهوان لا بعث ولا جزاء ولئن كان فالأصنام شفعاؤكم ولم يصرح ببطلانه لما دل عليه قوله فأخلفتكم أي موعدى على حذف المفعول الثاني أي نقضته جعل وعده كالإخلاف منه كأنه كان قادرا على إنجازها وأنى له ذلك وما كان لي عليكم من سلطان أي تسلط أو حجة تدل على صدقي إلا أن دعوتكم إلا دعائي إياكم إليه وتسويله وهو وإن لم يكن من باب السلطان لكنه أبرزه في ميروزه على طريقة تحية بينهم ضرب وجيع مبالغة في نفي السلطان عن نفسه كأنه قال إنما يكون لي عليكم سلطان إذا كان مجرد الدعاء من بابه ويجوز كون الاستثناء منقطعا فاستجبتم لي فأسرعتم إجابتي فلا تلوموني بوعدى إياكم حيث لم يكن ذلك على طريقة القسر والإلجاء كما يدل عليه الفاء وقرىء بالياء على وجه الالتفات كما في قوله تعالى حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم ولوموا أنفسكم حيث استجبتم لي باختياركم حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل بمجرد تزيين وتسويل ولم تستجيبوا ربكم إذا دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبينات والحجج وليس مراده التنصل عن توجه اللائمة إليه بالمرّة بل بيان أنهم أحق بها منه وليس فيه دلالة على استقلال العبد في أفعاله كما زعمت المعتزلة بل يكفي في ذلك أن يكون لقدرة الكاسبة التي عليها يدور فلك التكليف مدخل فيه فإنه سبحانه إنما يخلق أفعاله حسبما يختاره وعليه تترتب السعادة والشقاوة وما قيل من أنه يستدعى أن يقال فلا تلوموني ولا أنفسكم فإن الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه مبني على عدم الفرق بين مذهب أهل الحق وبين مسلك الجبرية ما أنا بمصرحكم أي بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب وما أنتم بمصرخي مما أنا فيه وإنما تعرض لذلك مع أنه لم يكن في حيز الاحتمال مبالغة في بيان عدم إصراره إياهم وإيداناً بأنه

وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام (23) ألم تر كيف ضرب

الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء
(24)

إبراهيم 23 24 أيضا مبتلى بمثل ما ابتلوا به ومحتاج إلى الإصرار فكيف من إصرار الغير ولذلك أثر الجملة الاسمية فكان ما مضى كان جوابا منه عن توبيخهم وتقريرهم وهذا جواب عن استغاثتهم واستعانتهم به في استدفاع ما دهمهم من العذاب وقرىء بكسر الياء إني كفرت اليوم بما أشركتموني من قبل أي بإشراككم إياي بمعنى تبرأت منه واستنكرته كقوله تعالى ويوم القيامة يكفرون بشرككم يعني أن إشراككم لي بالله سبحانه هو الذي يطمعكم في نصرتي لكم بأن كان لكم على حق حيث جعلتموني معبودا وكنت أود ذلك وأرغب فيه فالיום كفرت بذلك ولم أحمده ولم أقبله منكم بل تبرأت منه ومنكم فلم يبقى بيني وبينكم علاقة أو كفرت من قبل حين أبيت السجود لأدم بالذي أشركتموني وهو الله تعالى كما في قوله سبحانه ما سخر كن لنا فيكون تعليلا لعدم إصراره فإن الكافر بالله سبحانه بمعزل من الإغاثة والإعانة سواء كان بالمدافعة أو الشفاعة وأما جعله تعليلا لعدم إصرارهم إياه فلا وجه له إذ لا احتمال له حتى يحتاج إلى التعليل ولأن تعليل عدم إصرارهم بكفره يوهم أنهم بسبيل من ذلك لولا المانع من جهته إن الظالمين لهم عذاب أليم تنمة كلامه أو ابتداء كلام من جهة الله عز وجل وفي حكاية أمثاله لطف للسامعين وإيقاظ لهم حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم أي بأمره أو بتوفيقه وهدايته وفي التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم إظهار مزيد من اللطف بهم والمدخلون هم الملائكة عليهم السلام وقرىء على صيغة التكلم فيكون قوله تعالى بإذن ربهم متعلقا بقوله تعالى تحيتهم فيها سلام أي يحيهم الملائكة بالسلام بإذن ربهم الم تر الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام وقد علق بما بعده من قوله تعالى كيف ضرب الله مثلا أي كيف اعتمده ووضع في موضعه اللائق به كلمة طيبة منصوب بمضمر أي جعل كلمة طيبة هي كلمة التوحيد أو كل كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة كشجرة طيبة أي حكم بأنها مثلها لا أنه تعالى صيرها مثلها في الخارج وهو تفسير لقوله ضرب الله مثلا

كقولك شرف الأمير زيدا كساه حلة وحمله على فرس ويجوز أن يكون كلمة بدلا من مثلا وكشجرة صفتها أو خبر مبتدأ محذوف أي هي كشجرة وأن يكون أو مفعولي ضرب إجراء له مجرى جعل قد آخر عن ثانيهما أعني مثلا لئلا يبعد عن صفة التي هي كشجرة وقد قرئت بالرفع على الإبتداء أصلها ثابت أي ضارب بعروقه في الأرض وقرأ أنس بن مالك رضي الله عنه كشجرة طيبة ثابت أصلها وقرأه الجماعة أقوى سبكا وأنسب بقرينته أعنى قوله تعالى وفرعها أي أعلاها في السماء في جهة العلو ويجوز أن يراد وفروعها على الإكتفاء بلفظ الجنس عن الجمع

تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون (25) ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار (26) يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء (27)

إبراهيم 25 27 تؤتي أكلها تعطي ثمرها كل حين وقته الله تعالى لإثمارها بإذن ربها بإرادة خالفها والمراد بالشجرة المنعوتة إما النخلة كما روى مرفوعا أو شجرة في الجنة ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون لأن في ضربها زيادة إفهام وتذكير فإنه تصوير للمعاني بصور المحسوسات ومثل كلمة خبيثة هي كلمة الكفر والدعاء إليه أو تكذيب الحق أو ما يعم الكل أو كل كلمة قبيحة كشجرة خبيثة أي كمثّل شجرة خبيثة قيل هي كل شجرة لا يطيب ثمرها كالحنظل والكشوث ونحوهما وتغيير الأسلوب للإيذان بأن ذلك غير مقصود الضرب والبيان وإنما ذلك أمر ظاهر يعرفه كل أحد اجتثت استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية من فوق الأرض لكون عروقه قريبة منه مالها من قرار استقرار عليها يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت الذي ثبت بالحجة عندهم وتمكن في قلوبهم وهو الكلمة الطيبة التي ذكرت صفتها العجيبة في الحياة الدنيا فلا يزالون عنه إذا افتتنوا في دينهم كزكريا ويحيى وجرجيس وشمسون والذين فتنهم أصحاب الأخدود وفي الآخرة فلا يتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم في الموقف ولا تدهشهم أهوال القيامة أو عند سؤال

القبر روى أنه صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح المؤمن فقال
ثم يعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره فيقولون
من ربك وما دينك ومن نبيك فيقول ربي الله وديني الإسلام ونبي
محمد صلى الله عليه وسلم فينادي مناد من السماء أنه صدق
عبدى فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا وهذا مثال إيتاء
الشجرة المذكورة أكلها كل حين قال الثعلبي في تفسيره أخبرني
أبو القاسم بن حبيب في سنة وست وثمانين وثلثمائة قال سمعت
أبا الطيب محمد بن علي الخياط يقول سمعت سهل بن عمار
العملي يقول رأيت يزيد بن هرون في منامي بعد موته فقلت ما
فعل الله بك قال أتاني في قبري ملكان فظان فقالا من ربك وما
دينك ومن نبيك فأخذت بلحيتي البيضاء فقلت لهما ألمثلنى يقال هذا
وقد علمت الناس جوابكما ثمانين سنة فذهبا ويضل الله الظالمين
أي يخلق فيهما الضلال عن الحق الذي ثبت المؤمنين عليه حسب
إرادتهم واختيارهم والمراد بهم الكفرة بدليل ما يقابله ووصفهم
بالظلم إما باعتبار وضعهم للشيء في غير موضعه وإما باعتبار
ظلمهم لأنفسهم حيث بدلوا فطرة الله التي فطر الناس عليها فلم
يهتدوا إلى القول الثابت أو كل من ظلم نفسه بالاختصار على
التقليد والإعراض عن البيئات الواضحة فلا يثبت في موقف الفتن
ولا يهتدي إلى الحق فالمراد بالذين آمنوا حينئذ المخلصون في
الإيمان الراسخون في الإيقان كما ينبىء عنه التثبيت لكنه يوهم
كون كلمة التوحيد إذا كانت لا عن إيقان داخله تحت مالا قرار له
من الشجرة المضروبة مثلا ويفعل

ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ()
28) جهنم يصلونها وبئس القرار (29) وجعلوا لله أندادا ليضلوا
عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار (30)

إبراهيم 28 30 الله ما يشاء من تثبيت بعض وإضلال آخرين حسبما
توجهه مشيئته التابعة للحكم البالغة المقتضية لذلك وفي إظهار
الاسم الجليل في الموضعين من الفخامة وتربية المهابة مالا يخفى
مع ما فيه من الإيدان بالتفاوت في مبدأ التثبيت والإضلال فإن مبدأ
صدور كل منهما عنه سبحانه وتعالى من صفاته العلا غير ما هو مبدأ

صدور الآخر ألم تر تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد مما صنع الكفرة من الأباطيل التي لا تكاد تصدر عن له أدنى إدراك أي ألم تنظر إلى الذين بذلوا نعمة الله أي شكر نعمته تعالى بأن وضعوا موضعه كفرا عظيما وغمطا لها أو بدلوا نفس النعمة كفرا فإنهم لما كفروها سلبوها فصاروا مستبدلين بها كفرا كأهل مكة حيث خلقهم الله سبحانه وأسكنهم حرمة الأمن الذي يجيء إليه ثمرات كل شيء وجعلهم قوام بيته وشرفهم بمحمد صلى الله عليه وسلم فكفروا ذلك فقحطوا سبع سنين وقتلوا وأسروا يوم بدر فصاروا أذلاء مسلوبي النعمة باقين بالكفر بدلها وعن عمر وعلي رضي الله عنهما هم الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية أما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين كأنهما يتأولان ما سيتلى من قوله عز وجل قل تمتعوا الآية وأحلوا أي أنزلوا قومهم بإرشادهم إياهم إلى طريقة الشرك والضلال وعدم التعرض لحلولهم لدلالة الإحلال عليه إذ هو فرع الحلول كقوله تعالى يقدم قومه يوم القيامة فأوردتهم النار دار البوار دار الهلاك الذي لإهلاك وراءه جهنم عطف بيان لها وفي الإبهام ثم البيان ما لا يخفى من التهويل يصلونها حال منها أو من قومهم أي داخلين فيها مقاسين لحرها أو استئناف لبيان كيفية الحلول أو مفسر لفعل يقدر ناصبا لجهنم فالمراد بالإحلال المذكور حينئذ تعريضهم للهلاك بالقتل والأسر لكن قوله تعالى قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار أنسب بالتفسير الأول ويئس القرار على حذف المخصوص بالذم أي بئس المقر جهنم أو بئس القرار قرارهم فيها وفيه أن حلولهم وصلبهم على وجه الدوام والإستمرار وجعلوا عطف على أحلوا وما عطف عليه داخل معهما في حيز الصلة وحكم التعجيب أي جعلوا في اعتقادهم وحكمهم الله الفرد الصمد الذي ليس كمثلته شيء هو في الواحد القهار أندادا أشبها في العبادة ليضلوا قومهم الذين يشايعونهم حسبما ضلوا عن سبيله القويم الذي هو التوحيد ويوقعوهم في ورطة الكفر والضلال ولعل تغيير الترتيب مع أن مقتضى ظاهر النظم أن يذكر كفرانهم نعمة الله تعالى ثم كفرهم بذاته تعالى باتخاذ الأنداد ثم إضلالهم لقومهم المؤدي إلى إحلالهم دار البوار لتثنية التعجيب وتكريره والإيدان بأن كل واحد من وضع الكفر موضع الشكر وإحلال القوم دار البوار واتخاذ الأنداد للإضلال أمر يقضي منه العجب ولو سيق النظم على نسق الوجود لربما فهم التعجيب من مجموع الهنات الثلاث كما في

قصة البقرة وقرىء ليلضلوا بالفتح

قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا
وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال (31)

إبراهيم 31 وأياما كان فليس ذلك غرضا حقيقيا لهم من اتخاذ الأنداد لكن لما كان ذلك نتيجة له شبه بالغرض وأدخل عليه اللام بطريق الاستعارة التبعية قل تهديدا لأولئك الضالين المضلين ونعيا عليهم وإيدانا بأنهم لشدة إبانهم قبول الحق وفرط انهما بهم في الباطل وعدم ارعوائهم عن ذلك بحال أحقاء بأن يضرب عنهم صفحا ويعطف عنهم عنان العظة ويخلوا وشأنهم ولا ينهوا عنه بل يؤمروا بمباشرة مبالغة في التخلية والخذلان ومسارة الى بيان عاقبته الوخيمة ويقال لهم تمتعوا بما أنتم عليه من الشهوات التي من جملتها كفران النعم العظام واستتباع الناس في عبادة الأصنام فإن مصيركم إلى النار ليس إلا فلا بد لكم من تعاطي ما يوجب ذلك ويقتضيه من أحوالكم بل هي في الحقيقة صورة لدخولها ومثال له حسبما يلوح به قوله سبحانه وأحلوا قومهم دار البوار الخ فهو تعليق للأمر المأمور وفيه من التهديد الشديد الوعيد الأكد ما لا يوصف أو قل لهم تصوير الحالهم وتعبيرا عما يلجئهم إلى ذلك تمتعوا إيدانا بأنهم لفرط انغماسهم في التمتع بما هم فيه من غير صارف يلوهم ولا عاطف يشيهم مأمورون بذلك من قبل أمر الشهوة مذعنون لحكمه منقادون لأمره كدأب مأمور ساع في خدمة أمر مطاع فليس قوله تعالى فإن مصيركم إلى النار حينئذ تعليلا للأمر بل هو جواب شرط ينسحب عليه الكلام كأنه قيل هذه حالكم فإن دمتم عليه فإن مصيركم إلى النار وفيه التهديد والوعيد لا في الأمر قل لعبادي الذين آمنوا خصهم بالإضافة إليه تنويها لهم وتنبيها على أنهم المقيمون لوظائف العبودية الموفون بحقوقها وترك العاطف بين الأمرين للإيدان بتباين حالهما باعتبار المقول تهديدا وتشريفا والمقول ههنا محذوف دل عليه الجواب أي قل لهم أقيموا وأنفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم أي يداوموا على ذلك وفيه إيدان بكمال مطاوعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم وغاية مسارعتهم إلى الامتثال بأوامره وقد جوزوا أن يكون المقول

يقيموا وينفقوا بحذف لام الأمر عنهما وإنما حسن ذلك دون الحذف في قوله ... محمد تفد نفسك كل نفس ... إذا ما خلفت من أمر تبالا ... لدلالة قل عليه وقيل هما جوابا أقيما وأنفقوا قد أقيما مقامهما وليس بذاك سرا وعلانية منتصبان على المصدرية من الأمر المقدر لا من جواب الأمر المذكور أي أنفقوا إنفاق سر وعلانية والأحب في الإنفاق إخفاء المتطوع به وإعلان الواجب والمراد حث المؤمنين على الشكر لنعم الله سبحانه بالعبادة البدنية والمالية وترك التمتع بمتاع الدنيا والركون إليها كما هو صنيع الكفر من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه فيبتاع المقصر ما يتلافى به تقصيره أو تفتدي به نفسه والمقصود نفي عقد المعاوضة بالمرة وتخصيص البيع بالذكر للإيجاز مع المبالغة في نفي العقد إذ انتفاء البيع المستلزم انتفاء الشراء على أبلغ وجه وانتفاؤه بما يتصور مع تحقق الإيجاب من قبل البائع ولا خلال ولا مخالفة فيشفع له خليل أو يسامحه بمال يفتدي به نفسه أو من قبل أن يأتي يو لا أثر فيه لما لهجوا بتعاطيه من البيع

الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار (32)

إبراهيم 22 والمخالفة ولا انتفاع بذلك وإنما الانتفاع والارتفاق فيه بالإنفاق لوجه الله سبحانه والظاهر أن مت متعلقة بأنفقوا وتذكير إتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه كما في سورة البقرة من حيث أن كلا من فقدان الشفاعة وما يتدارك به التقصير معاوضة وتبرعا وانقطاع آثار البيع والخلال الواقعين في الدنيا وعدم الإنتفاع بهما من أقوى الدواعي إلى الإتيان بما تبقى عوائده وتدوم فوائده من الإنفاق في سبيل الله عز وجل أو من حيث إن إدخار المال وترك إنفاقه إنما يقع غالبا للتجارات والمهاداة فحيث لا يمكن ذلك في الآخرة فلا وجه لادخاره إلى وقت الموت وتخصيص التأكيد بذلك لميل الطباع إلى المال وكونها مجبولة على حبه والضنة به ولا يبعد أن يكون تأكيدا لمضمون الأمر بإقامة الصلاة أيضا من حيث إن تركها كثيرا ما يكون بالاشتغال بالبياعات والمخالات كما في قوله

تعالى وإذار أو اتجارة أو لهوا انفضوا إليها وقرىء بالفتح فيهما على إرادة النفي العام ودلالة الرفع على ذلك باعتبار خطابي هو وقوعه في جواب هل فيه بيع أو خلال الله مبتداً خبره الذي خلق السموات وما فيها من الأجرام العلوية والأرض وما فيها من أنواع المخلوقات لما ذكر أحوال الكافرين لنعم الله تعالى وأمر المؤمنين بإقامة مراسم الطاعة شكراً لنعمه شرع في تفصيل ما يستوجب على كافة الأنام المثابرة على الشكر والطاعة من النعم العظام والمنن الجسماء حثاً للمؤمنين عليها وتقرباً للكفرة المخلين بها الواضعين موضعها الكفر والمعاصي وفي جعل المبتداً الاسم الجليل والخبر الاسم الموصول بتلك الأفاعيل العظيمة من خلق هذه الأجرام العظام وإنزال الأمطار وإخراج الثمرات وما يتلوها من الآثار العجيبة ما لا يخفى من تربية المهابة والدلالة على قوة السلطان وأنزل من السماء أي السحاب فإن كل ما علاك سماء أو من الفلك فإن المطر منه يتبدى إلى السحاب ومنه إلى الأرض على ما دلت عليه ظواهر النصوص أو من أسباب سماوية تثير الأجزاء الرطبة من أعماق الأرض إلى الجو فينعد سحاباً مطراً وأيا ما كان فمن ابتدائية ماء أي نوعاً منه هو المطر وتقديم المجرور على المنصوب إما باعتبار كونه مبدأً لنزوله أو لتشريفه كما في قولك أعطاه السلطان من خزائنه ما لا أو لما مر مرارا من التشويق إلى المؤخر فأخرج به بذلك الماء من الثمرات الفائتة للحصر إما لأن صيغ الجموع يتعاور بعضها موضع بعض وإما لأنه أريد بمفردھا جماعة الثمرة التي في قولك أدركت ثمرة بستان فلان رزقا لكم تعيشون له وهو بمعنى المرزوق شامل للمطعموم والملبوس مفعولا لأخراج ومن للتبيين كقولك أنفقت من الدراهم ألفا ويجوز أن يكون من الثمرات مفعولا ورزقا حالا منه أو مصدرا من أخرج بمعنى رزق أو للتبعض بدليل قوله تعالى فأخرجنا به ثمرات كأنه قيل أنزل من السماء بعض الماء فأخرج به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم إذ لم ينزل من السماء كل الماء ولا أخرج بالمطر كل الثمار ولا جعل كل الرزق ثمرا وخروج الثمرات وإن كان بمشيئته عز وجل وقدرته لكن جرت عادته تعالى

وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار (33)

إبراهيم 23 24 بإضافة صورها وكيفياتها على المواد الممتزجة من الماء والتراب أو أودع في الماء قوة فاعلة وفي الأرض قوة قابلة يتولد من اجتماعهما أنواع الثمار وهو قادر على إيجاد الأشياء بلا أسباب ومواد كما أبدع نفوس الأسباب كذلك لما أن له تعالى في إنشائها مدرجا من طور إلى طور صنائع وحكما يحدد فيها الأولى الأبصار عبرا وسكونا إلى عظيم قدرته ليس ذلك في إبداعها دفعة وقوله لكم صفة لقوله رزقا إن أريد به المرزوق ومفعول به إن أريد به المصدر كأنه قيل رزقا إياكم وسخر لكم الفلك بأن أقدركم على صنعها واستعمالها بما ألهمكم كيفية ذلك لتجري في البحر جريا تابعا لإرادتكم بأمره بمشيئة التي نيط بها كل شيء وتخصيصه بالذكر للتنصيص على أن ذلك ليس بمزاولة الأعمال واستعمال الآلات كما يتراءى من ظاهر الحال وسخر لكم الأنهار إن أريد بها المياه العظيمة الجارية في الأنهار العظام كما يومئ إليه ذكرها عند البحر فتسخيرها جعلها معدة لانتفاع الناس حيث يتخذون منها جداول يسقون بها زروعهم وجنانهم وما أشبه ذلك وإن أريد بها نفس الأنهار فتسخيرها تيسيرها لهم وسخر لكم الشمس والقمر دائبين يدأبان في سيرهما وإنارتها أصالة وخلافة وإصلاحهما لما نيط بهما صلاحة من المكونات وسخر لكم الليل والنهار يتعاقبان خلفه لتمامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وإنضاجها ذكر سبحانه وتعالى أنواع النعم الفائضة عليهم وأبرز كل واحدة منها في جملة مستقلة تنويها لشأنها وتنبئها على رفعة مكانها وتنصيصا على كون كل منها نعمة جليلة مستوجبة للشكر وفي التعبير عن التصريف المتعلق بما ذكر من الفلك والأنهار والشمس والقمر والليل والنهار بالتسخير من الإشعار بما فيها من صعوبة المآخذ وعزة المنال والدلالة على عظم السلطان وشدة المحال ما لا يخفى وتأخير تسخير الشمس والقمر عن تسخير ما تقدمه من الأمور المعدودة مع ما بينه وبين خلق السموات من المناسبة الظاهرة لاستتباع ذكرها لذكر الأرض المستدعى لذكر إنزال الماء منها إليها الموجب لذكر إخراج الرزق الذي من جملته ما يحصل بواسطة الفلك والأنهار أو للتفادي عن توهم كون الكل أعنى خلق السموات والأرض وتسخير الشمس والقمر نعمة واحدة كما مر في قصة البقرة وأتاكم من كما ما سألتموه أي أعطاكم بعض جميع ما سألتموه حسبما تقتضيه مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة كقوله

سبحانه من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد أو
أتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ونيط به انتظام أحوالكم على
الوجه المقدر فكانكم سألتموه أو كل ما طلبتموه بلسان الاستعداد
أو كل ما سألتموه على أن من للبيان وكلمة كل للتكثير كقولك
فلان يعلم كل شيء وأتاه كل الناس وعليه قوله عز وجل فتحنا
عليهم أبواب كل شيء وقيل الأصل وأتاكم من كل ما سألتموه وما
لم تسألوه فحذف الثاني لدلالة ما أبقى على ما القى وقرىء بتنوين
كل على أن ما نافية ومحل ما سألتموه النصب على الحالية أي
أتاكم من كل غير سائليه وإن تعدوا نعمة الله

وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار (33)
وأتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن
الإنسان لظلوم كفار (34)

التي أنعم بها عليكم لا تحصوها لا تطبقوها بحصرها ولو إجمالاً فإنها
غير متناهية وأصل الإحصاء أن الحاسب إذا بلغ عقداً معيناً من عقود
الأعداد وضع حصة ليحفظ بها ففيه إيذان بعدم بلوغ مرتبة معتد بها
من مراتبها فضلاً عن بلوغ غايتها كيف لا وما من فرد من أفراد
الناس وإن كان في أقصى مراتب الفقر والإفلاس ممنوا بأصناف
العناية مبتلى بأنواع الرزايا فهو بحيث لو تأملته ألفيته متقلباً في نعم
لا تحد ومن لا تحصي ولا تعد كأنه قد أعطى كل ساعة وأن من
النعماء ما حواه حيطة الإمكان وإن كنت في ريب من ذلك فقد قدر أنه
ملك ملك اقطار العالم ودانت له كافة الأمم وأذعنت لطاعته
السراة وخضعت لهيبته رقاب العتاة وفاز بكل مرام ونال كل منال
وحاز جميع ما في الدنيا من أصناف الأموال من غير ند يزاحمه ولا
شريك يساهمه بل قدر أن جميع ما فيها من حجر ومدبر يواقيت
غالية ونفائس درر ثم قدر أنه قد وقع من فقد مشروب أو مطعوم
في حالة بلغت نفسه الحلقوم فهل يشتري وهو في تلك الحال
بجميع ماله من الملك والمال لقمة تنجيه عن رواه أو شربة ترويه
من ظمائه أم يختار الهلاك فتذهب الأموال والأملك بغير بدل يبقى
عليه ولا نفع يعود إليه كلا بل يبذل لذلك كل ما تحويه اليدان كأننا ما
كان وليس في صفقته شائبة الخسران فإذا ن تلك اللقمة والشربة

خير مما في الدنيا بالف رتبة مع أنهما في طرف الثمام ينالهما متى شاء من الليالي والأيام او قدر أنه قد احتبس عليه النفس فلا دخل منه ما خرج ولا خرج منه ما ولح والحين قد حان وأتاه الموت من كل مكان أما يعطي ذلك كله بمقابلة نفس واحد بل يعطيه وهو لرأيه حامد فاذن هو خير من أموال الدنيا بحملتها ومطالبها برمتها مع أنه أبيع له كل أن من آتات الليالي والأيام حال اليقظة والمنام هذا من الظهور والجلاء بحيث لا يكاد يحفى على أحد من العقلاء وان رمت العثور على حقيقة الحق والوقوف على كل ماجل من السرودق فاعلم أن الانسان بمقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتبعه من الكمالات اللائقة والملكات الرائقة بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الالهية من العلاقة لما استقر له القرار ولا اطمانت به الدار الا فى مطمورة العدم والبوار ومهاوى الهلاك والدمار لكن يفيض عليه من الجنب الأقدس تعالى شأنه ونقدس فى كل زمان يمضى وكل أن يمر وينقض من أنواع الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وسائر صفاته الروحانية والنفسانية والجسمانية ما لا يحيط به نطاق التعبير ولا يعلمه الاالعلم الخبير و توضيحه أنه كما لا يستحق الوجود ابتداء لا يستحقه بقاء وانما ذلك من جناب المبدأ الأول عز وجل فكما لا يتصور وجوده ابتداء مالم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الأصلي لا يتصور بقاءه على الوجود بعد تحققه بعلمته ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الطارئ لأن الاستمرار والدوام من خصائص الوجود الواجبى وأنت خير بان ما يتوقف عليه وجوده من الأمور الوجودية التي هي علله وشرائطه وإن وجب كونها متناهية لوجوب تناهى ما دخل تحت الوجود لكن الأمور العدمية التي لها دخل في وجوده ليست كذلك إذ لا استحالة في أن يكون لشيء واحد موانع غير متناهية وإنما الاستحالة في دخولها تحت الوجود فارتفاع تلك الموانع التي لا تتناهى أعنى بقاءها على العدم مع إمكان وجودها في أنفسها في كل أن من آتات وجوده نعم غير متناهية حقيقة

وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام (35)

إبراهيم 35 لا ادعاء وكذا الحال في وجودات علله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداء وبقاء وكذا في كمالاته التابعة لوجوده فاتضح أنه يفيض عليه كل أن نعم لا تتناهى من وجوه شتى فسبحانك سبحانك ما أعظم سلطانتك لا تلاحظ العيون بأنظارها ولا تطالعك العقول بأفكارها شأنك لا يضاهي وإحسانك لا يتناهى ونحن في معرفتك حائرون وفي إقامة مراسم شكرك قاصرون نسألك الهداية إلى مناهج معرفتك والتوفيق لاداء حقوق نعمتك لا نحصى تناء عليك لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك إن الإنسان لظلوم يظلم النعمة بإغفال شكرها أو بوضعه إياها في غير موضعها أو يظلم نفسه بتعريضها للحرمان كفار شديد الكفران وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع واللام في الإنسان للجنس ومصداق الحكم بالظلم والكفران بعض من وجدنا فيه من أفراده ويدخل في ذلك الذين بدلوا نعمة الله كفرا الخ دخولا أوليا وإذ قال إبراهيم أي واذكر وقت قوله عليه الصلاة والسلام والمقصود من تذكيره تذكير ما وقع فيه من مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل والمراد به تأكيد ما سلف من تعجيبه عليه السلام ببيان فن آخر من جنایاتهم حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم بعد ما كفروا بالنعم العامة وعصوا بأباهم إبراهيم عليه السلام حيث أسكنهم مكة شرفها الله تعالى فإقامة الصلاة والإجتنا ب عن عبادة الأصنام والشكر لنعم الله تعالى وسأله تعالى أن يجعله بلدا آمنا ويرزقهم من الثمرات وتهوى قلوب الناس إليهم من كل أوب سحيق فاستجاب الله تعالى دعاءه وجعله حرما آمنا يجيء إليه ثمرات كل شيء فكفروا بتلك النعم العظام واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار وجعلوا لله أندادا وفعلوا ما فعلوا رب اجعل هذا البلد يعني مكة شرفها الله سبحانه آمنا أي ذا أمن أو آمنا أهله بحيث لا يخاف فيه على ما مر في سورة البقرة والفرق بينه وبين ما فيها من قوله رب اجعل هذا بلدا آمنا أن المسئول هناك البلدية والأمن معا وههنا الأمن فقط حيث جعل هو المفعول الثاني للجعل وجعل البلد صفة للمفعول الأول فإن حمل على تعدد السؤال فلعله عليه السلام سأل أولا كلا الأمرين فاستجيب له في أحدهما وتأخر الآخر إلى وقته المقدر لما يقتضيه من الحكمة الداعية إليه ثم كرر السؤال كما هو المعتاد في الدعاء والإبتها ل أو كان المسئول أولا مجرد الأمن المصحح للسكن كما في سائر البلاد وقد أجيب إليه وثانيا الأمن المعهود لأو أوكله هو المسئول فيهما وقد أجيب إليه

أيضا لكن السؤال الثاني للاستدامة والإقتصار على ذلك لأنه المقصود الاصيلي أو لأن المعتاد في البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الأمن وإن حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر فالظاهر أن المسئول كلا الأمرين وقد حكى أولا واقتصر ههنا على حكاية سؤال الأمن لا لمجرد أن نعمة الأمن أدخل في استيجاب الشكر فذكره أنسب بمقام تقريع الكفرة على إغفاله كما قيل بل لأن سؤال البلدية قد حكى بقوله تعالى فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم إذا لمسئول هويتها إليهم للمساكنة معهم لا للحج فقط وهو عين سؤال قد حكى بعبارة أخرى وكان ذلك أول ما قدم عليه السلام مكة كما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة

رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم (36)

إبراهيم 36 37 والسلام لما أسكن إسماعيل وهاجر هناك وعاد متوجها إلى الشام تبعته هاجر وجعلت تقول إلى من تكلنا في هذا البلقع وهو لا يرد عليها جوابا حتى قالت الله أمرك بهذا فقال نعم قالت إذا لا يضيعنا فرضيت ومضى حتى إذا استوى على ثنية كداء أقبل على الوادي فقال ربنا إني اسكنت الآية وإنما فصل ما بينهما تشية للامتنان وإيدانا بأن كلا منهما نعمة جليلة مستتعبة لشكر كثير كما في قصة البقرة وجنبي وبني بعدني وإياهم إن نعبد الأصنام واجعلنا منها في جانب بعيد أي ثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد وملة الإسلام والبعد عن عبادة الأصنام وقرىء واجنبي من الأفعال وهما لغة أهل نجد يقولون جنبي شره واجنبي شره وأما أهل الحجاز فيقولون جنبي شره وفيه دليل على أن عصمة الأنبياء عليهم السلام بتوفيق الله تعالى والظاهر أن المراد ببنيه أولاده الصلبية فلا احتجاج به لا بن عيينة رضي الله عنه على أن أحدا من أولاد إسماعيل عليه السلام لم يعبد الصنم وإنما كان لكل قوم حجر نصبوه وقالوا هو حجر والبيت حجر فكانوا يدورون به ويسمونهم الدوار فاستحب أن يقال طاف بالبيت ولا يقال دار بالبيت وليت شعري كيف ذهب عليه ما في القرآن العظيم من قوارع تنعى على

قريش عبادة الأصنام على أن فيما ذكره كرا على ما فر منه رب
إنهن أي الأصنام أضلن كثيرا من الناس أي تسبين له كقوله تعالى
وغرتهم الحياة الدنيا وهو تغليل لدعائه وإنما صدره بالنداء إظهارا
لاعتنائه به ورغبة في استجابته فمن تبعني منهم فيما أدعو إليه من
التوحيد وملة الإسلام فإنه مني أي بعضي قاله عليه السلام مبالغة
في بيان اختصاصه به أو متصل بي لا ينفك عني في أمر الدين ومن
عصاني أي لم يتبعني والتعبير عنه بالعصيان للإيذان بأنه عليه
السلام مستمر على الدعوة وأن عدم اتباع من لم يتبعه إنما هو
لعصيانه لا لأنه لم يبلغه الدعوة فإنك غفور رحيم قادر على أن تغفر
له وترحمه ابتداء أو بعد توبته وفيه أن كل ذنب فله تعالى أن
يغفره حتى الشرك خلا أن الوعيد قضى بالفرق بينه وبين غيره ربنا
أثر عليه السلام ضمير الجماعة لا لما قيل من تقدم ذكره وذكر بنيه
وإلا لراعاه في قوله رب إنهن الخ بل لأن الدعاء المصدر به وما
أورده بصدد تمهيد مبادئ إجابته من قوله إني أسكنت الآية متعلق
بذريته فالتعرض لوصف ربوبيته تعالى لهم أدخل في القبول وإجابة
المسئول من ذريتي أي بعضهم أو ذرية من ذريتي فحذف المفعول
وهو إسماعيل عليه السلام وما سيولد له فإن إسكانه حيث كان على
وجه الإطمئنان متضمن لإسكانهم روى أن هاجر أم إسماعيل عليه
السلام كانت لسارة فوهبتها من إبراهيم عليه السلام فلما ولدت له
إسماعيل عليه السلام غارت عليهما فناشدته أن يخرجهما من عندها
فأخرجهما إلى أرض مكة فأظهر الله تعالى عين زمزم بواد غير ذي
زرع لا يكون فيه زرع أصلا وهو وادي مكة شرفها الله تعالى عند

رب إنهن أضلن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني
فإنك غفور رحيم (36) ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي
زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس
تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون (37)

بيتك ظرف لأسكنت كقولك صليت بمكة عند الركن لا أنه صفة لواد
أو بدل منه إذ المقصود إظهار كون ذلك الإسكان مع فقدان مبادية
لمحض التقرب إلى الله تعالى والالتجاء إلى جواره الكريم كما
ينبىء عنه التعرض لعنوان الحرمة المؤذن بعزة الملتجأ وعصمته

عن المكاره في قوله تعالى المحرم حيث حر التعرض له والتهاون به أو لم يزل معظما ممنعا يهايه الجبايرة في كل عصر أو منع منه الطوفان فلم يستول عليه ولذلك سمي عتيقا وتسميته إذ ذاك بيتا ولم يكن له بناء وإنما كان نشزا مثل الراية تأتيه السيول فتأخذ ذات اليمين وذات الشمال ليست باعتبار ما سيئول إليه الأمر من بنائه عليه السلام فإنه ينزع إلى اعتبار عنوان الحرمه أيضا كذلك بل إنما هي باعتبار ما كان من قبل فإن تعدد بناء الكعبة المعظمة مما لا ريب فيه وإنما الاختلاف في كمية عدده وقد ذكرناها في سورة البقرة بفضل الله تعالى ربنا ليقيموا الصلاة متوجهين إليه متبركين به وهو متعلق بأسكنت وتخصيصها بالذكر من بين سائر شعائر الدين لفضلها وتكرير النداء وتوسيطه لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة والإهتمام بعرض أن الغرض من إسكانهم بذلك الوادي البلقع ذلك المقصد الأقصى والمطلب الأسنى وكل ذلك لتمهيد مبادئ إجابة دعائه وإعطاء مسئوله الذي لا يتسنى ذلك المرام إلا به ولذلك أدخل عليه الفاء فقال فاجعل أفئدة من الناس أي أفئدة من أفئدتهم فمن للتبويض ولذلك قيل لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليهم فارس والروم وأما ما زيد عليه من قولهم ولحجت اليهود والنصارى فغير مناسب للمقام إذ المسئول توجيه القلوب إليهم للمساكنة معهم لا توجيهها إلى البيت للحج وإلا لقل تهوى إليه فإنه عين الدعاء بالبلدية قد حكى بعبارة أخرى كما مر أو لابتداء الغاية كقولك القلب مني سقيم أي أفئدة ناس وقرىء أفدة على القلب كآدر في أدور أو على أنه اسم فاعل من أفدت الرحلة أي عجلت أجماعة من الناس وأفدة بطرح الهمزة من الافئدة أو على النعت من أفد تهوى الهم تسرع اليهم شو قاوودادا وقرىء على البناء للمفعول من أهواه غيره وتهوى من باب علم أي تحب وتعديته إلى لتضمنه معنى الشوق والنروع وأول آثار هذه الدعوة ماروى أنه مرت رفقة من جرهم تريد الشام فرأى والطير تحوم على الجبل فقالوا ان هذا الطائر لعائف على الماء فأشر فوا فاذا هم بهاجر فقالوا لها ان شئت كنا معك وأنسناك والماء ماوك فأذنت لهم وكانوا معها إلى أن شب أسمعيلى عليه السلام وماتت هاجر فتزوج إسمعيلى منهم كما هو المشهور وارزقهم أي ذربتى الذين أسكنهم هناك أو مع من ينحاز إليهم من الناس وإنما لم يخص الدعاء بالمؤمنين منهم كما في قوله وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر اكتفاء بذكر إقامة الصلاة من الثمرات من

أنواعها بأن يجعل بقرب منه قرى يحصل فيها ذلك أو يجبى إليه من الأقطار الشاسعة وقد حصل كلاهما حتى إنه يجتمع فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد 0 روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الطائف كانت من أرض فلسطين فلما دعا إبراهيم عليه السلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى و وضعها حيث وضعها رزقا للحرم وعن الزهرى رضى الله عنه أنه تعالى نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيم عليه السلام لعلهم يشكرون تلك النعمة بإقامة الصلاة وأداء سائر مراسم العبودية وقيل اللام فى ليقموا لام الأمر والمراد أمرهم بإقامة الصلاة والدعاء من الله تعالى

ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء (38) الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء (39)

إبراهيم 38 39 بتوفيقهم لها ولا يناسبه الفاء فى قوله تعالى فاجعل الخ وفى دعائه عليه السلام من مراعاة حسن الأدب والمحافظة على قوانين الضراعة وعرض الحاجة واستئزال الرحمة واستجلاب الرأفة مالا يخفى فإنه عليه السلام بذكر كون الوادى غير ذى زرع بين كمال افتقارهم إلى المسئول وبذكر كون إسكانهم عند البيت المحرم أشار إلى أن جوار الكريم يستوجب إفاضة النعيم وبعرض كون ذلك الإسكان مع كمال إعواز مرافق المعاش لمحض إقامة الصلاة وأداء حقوق البيت مهد جميع مبادئ إجابة السؤال ولذلك قرنت دعوته عليه السلام بحسن القبول ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن من الحاجات وغيرها والمراد بما نخفى ما يقابل ما نعلن سواء تعلق به الإخفاء أولا أى تعلم ما نظهره ومالا نظهره فإن علمه تعالى متعلق بما لا يخطر بباله مما فيه من الاحوال الخفية فضلا عن إخفائه وتقديم ما نخفى علما نعلن لتحقيق المساواة بينهما فى تعلق العلم بهما على أبلغ وجه فكأن تعلقه بما يخفى أقدم منه بما يعلن أو لأن مرتبة السرو الحفاه متقدمة على مرتبة العلى إذ ما من شيء يعلن إلا وهو قبل ذلك خفى فتعلق علمه سبحانه بحالته الأولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية وقصده عليه السلام أن إظهار

هذه الحاجات و ما هو من مبادئها وتتماتها ليس لكونها غير معلومة لك بل إنما هو لإظهار العبودية والتخضع لعظمتك والتدلل لعزتك وعرض الافتقار إلى ما عندك والاستعجال لنيل أياديك وتكرير النداء للمبالغة فى الضراعة والابتهال وضمير الجماعة لإن المراد ليس مجرد علمه تعالى بسره وعلنه بل بجميع خفايا الملك والملكوت وقد حققه بقوله على وجه الاعتراض وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء لما أنه العالم بالذات فما من أمر يدخل تحت الوجود كائناً ما كان فى زمان من الأزمان إلا ووجوده فى ذاته علم بالنسبة إليه سبحانه وإنما قال وما يخفى على الله الخ دون أن يقول ويعلم ما فى السموات والأرض تحقيقاً لما عناه بقوله تعلم ما نخفى من أن علمه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبة خفاء بالنسبة إلى علمه تعالى كما يكون ذلك بالنسبة إلى علوم المخلوقات وكلمة فى متعلقة بمحذوف وقع صفة لشيء أي من شيء كائن فيهما أعم من أن يكون ذلك على وجه الإستقرار فيهما أو على وجه الجزئية منهما أو بيخفى وتقديم الأرض على السماء مع توسط لا بينهما باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة إلى علو منا والالتفات من الخطاب إلى اسم الذات المستجمعة للصفات لتربية المهابة والإشعار بعلّة الحكم على نهج قوله تعالى ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير والإيدان بعمومه لأنه ليس بشأن يختص به أو بمن يتعلق به بل شامل لجميع الأشياء فالمناسب ذكره تعالى بعنوان مصحح لمبدأ الكل وقيل هو من كلام الله عز وجل وارد بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلام كقوله سبحانه وكذلك يفعلون ومن للاستغراق على الوجهين الحمد لله الذي وهب لي على الكبر أي مع كبرى ويأسى عن الولد قيد الهبة به استعظاما للنعمة وإظهارا لشكرها إسماعيل وإسحق روى أنه ولد له إسماعيل وهو

رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء (40) ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب (41) ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار (42)

إبراهيم 40 42 ابن تسع وتسعين سنة وولد له إسحق وهو ابن مائة
واثنتي عشرة سنة أو مائة وسبع عشرة سنة إن ربي ومالك أمرى
لسميع الدعاء لمجيبه من قولهم سمع الملك كلامه إذا اعتد به وهي
من أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل أضيف إلى مفعوله أو فاعله
بإسناد السماع إلى دعاء الله تعالى مجازا وهو مع كونه من تنمة
الحمد والشكر إذ هو وصف له تعالى بأن ذلك الجميل سنته
المستمرة تعليل على طريقة التذييل للهيئة المذكورة وفيه إيذان
بتضاعيف النعمة فيها حيث وقعت بعد الدعاء بقوله رب هب لي من
الصالحين فاقترنت الهيئة بقبول الدعوة وتوحيد ضمير المتكلم وإن
كان عقيب ذكر هبتهما لما أن نعمة الهيئة فائضة عليه خاصة وهما
من النعم لا من المنعم عليهم رب اجعلني مقيم الصلاة مثابرا عليها
معدلا لها وتوحيد ضمير المتكلم مع شمول دعوته لذريته أيضا حيث
قال ومن ذريتي أي بعضهم من المذكورين ومن يسير سيرتهما من
أولادهما للإشعار بأنه المقتدى في ذلك وذريته أتباع له وأن ذكرهم
بطريق الاستطراد لا كما في قوله ربنا إني أسكنت الخ فإن إسكانه
مع عدم تحققه بلا ملابسة لمن أسكنه إنما هو مذكور بطريق
التمهيد للدعاء الذي هو مخصوص بذريته وإنما خص هذا الدعاء
ببعض ذريته لعلمه من جهة الله تعالى أن بعضا منهم لا يكون مقيم
الصلاة كقوله تعالى ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة
مسلمة لك ربنا وتقبل دعاء أي دعائي هذا المتعلق بجعلي وجعل
بعض ذريتي مقيمي الصلاة ثابتين على ذلك مجتنبين عن عبادة
الأصنام ولذلك جىء بضمير الجماعة ربنا اغفر لي أي ما فرط مني
من ترك الأولى في باب الدين وغير ذلك مما لا يسلم منه البشر
ولوالدي وقرىء بالتوحيد ولأبوى وهذا الاستغفار منه عليه السلام
إنما كان قبل تبين الأمر له عليه السلام وقيل أراد بوالديه آدم
وحواء وقيل بشرط الإسلام ويرده قوله تعالى إلا قول إبراهيم الآية
وقد مر في سورة التوبة نوع تحقيق للمقام وسيأتي تمامه في
سورة مريم بفضل الله تعالى وللمؤمنين كافة من ذريته وغيرهم
وللإيذان باشتراك الكل في الدعاء بالمغفرة جىء بضمير الجماعة
يوم يقوم الحساب أي يثبت ويتحقق محاسبة أعمال المكلفين على
وجه العدل استعير له من ثبوت القائم على الرجل بالاستقامة ومنه
قامت الحرب على ساق والمراد تهويله وقيل أسند إليه قيام أهله
مجازا أو حذف المضاف كما في واسأل القرية واعلم أن ما حكى
عنه عليه السلام من الأدعية والأذكار وما يتعلق بها ليس بصادر عنه

على الترتيب المحكي ولا على وجه المعية بل صدر عنه في أزمة متفرقة حكى مرتبا للدلالة على سوء حال الكفرة بعد ظهور أمره في الملة وإرشاد الناس إليها والتضرع إلى الله تعالى لمصالحهم الدينية والدينية ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تشبته على ما كان عليه من عدم حسبانته عز وجل كذلك نحو قوله ولا تكونن من

مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء)
(43)

إبراهيم 43 المشركين ونظائره مع ما فيه من الإيذان بكونه واجب الاحتراز عنه في الغاية حتى نهى عنه من لا يمكن تعاطيه أو نهيه عليه السلام عن حسبانته تعالى تاركا لعقابهم على طريقة العفو والتعبير عنه بذلك للمبالغة في النهي والإيذان بأن ذلك الحسبان بمنزلة حسبانته تعالى غافلا عن أعمالهم إذ العلم بذلك مستوجب لعقابهم لا محالة فتركه لو كان للغفلة عما يوجبه من أعمالهم الخبيثة وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووعد له أكيد ووعد للكفر وسائر الظالمين شديد أو لكل أحد ممن يستعجل عذابهم أو يتوهم إهمالهم للجهل بصفاته تعالى والاعتذار بإمهاله وقيل معناه لا تحسبته تعالى يعاملهم معاملة الغافل عما عملوا بل معاملة من يحافظ على أعمالهم يجازيهم بذلك نقيرا وقطميرا والمراد بالظالمين أهل مكة ممن عدت مساويهم من تبديل نعمة الله تعالى كفرا وإجلال قومهم دار البوار واتخاذ الأنداد كما يؤذن به التعرض لحكمه التأخير المنبئ عنه قوله تعالى قل تمتعوا الآية أو جنس الظالمين وهم داخلون في الحكم دخولا أولياء إنما يؤخرهم يمهلهم متمتعين بالحظوظ الدنياوية ولا يعجل عقوبتهم حسبما يشاهد وهو استئناف وقع تعليلا للنهي السابق أي دم على ما كنت عليه من عدم حسبانته تعالى غافلا عن أعمالهم ولا تحزن بتأخير ما تستوجه من العذاب الأليم إذ تأخيرها للتشديد والتغليظ أولا تحسبته تعالى تاركا لعقوبتهم لما ترى من تأخيرها إنما ذلك لأجل هذا أولا ولا تحسبته تعالى يعاملهم معاملة الغافل ولا يؤاخذهم بما عملوا لما ترى من التأخير إنما هو لهذه الحكمة وقرىء بالنون وإيقاع التأخير

عليهم مع أن المؤخر إنما هو عذابهم لتحويل الخطب وتفضيع الحال بيان أنهم متوجهون إلى العذاب مرصدون لأمر ما لا أنهم باقون باختيارهم وللدلالة على أن حقهم من العذاب هو الإستئصال بالمرة وأن لا يبقى منهم في الوجود عين ولا أثر وللإيدان بأن المؤخر له من جملة العذاب وعنوانه ولو قيل إنما يؤخر عذابهم الخ لما فهم ذلك ليوم هائل تشخص فيه الأبصار ترتفع ابصار أهل الموقف فيدخل في زمرة الكفرة المعهودون دخولا أوليا أي تبقى مفتوحة لا تتحرك أجفانهم من هول ما يرونه واعتبار عدم قرارها في أماكنها إما باعتبار الارتفاع الحسي في جرم العين وإما بجعل الصيغة من شخص من بلد إلى بلد وسار في الارتفاع مهطعين مسرعين إلى الداعي مقبلين عليه بالخوف والذل والخشوع أو مقبلين بأبصارهم عليه لا يقلعون عنه ولا يطرفون هيبة وخوفاً وحيث كان إدامه النظر ههنا بالنظر إلى الداعي قيل مقنعي رءوسهم أي رافعيها مع إدامة النظر من غير التفات إلى شيء قاله العتبي وابن عرفة أو ناكسيها ويقال أقنع رأسه أي طأطأها ونكسها فهو من الاضداد وهما حالان مما دل عليه الأبصار من أصحابها والثاني حال متداخلة من الضمير في الأول وإضافته غير حقيقية فلا ينافى الحالية لا يرتد إليهم طرفهم أي لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم حسبما كان يرجع إليهم كل لحظة بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تطرف أو لا ترجع إليهم أجفانهم التي هي آلة الطرف فيكون إسناد الرجوع إلى الطرف مجازياً أو هو نفس الجفن قال الفيروز أبادي الطرف العين لا يجمع لأنه مصدر في الاصل أو اسم جامع للعين أو لا يرجع نظرهم إلى أنفسهم فضلا عن أن يرجع إلى شيء آخر

وأندر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال (44)

إبراهيم 44 فيبقون مبهوتين وهو أيضا حال أو بدل من مقنعي الخ أو استئناف والمعنى لا يزول ما اعتراهم من شخوص الأبصار وتأخيره عمن هو من تتمته من الإهطاع والإقناع مع ما بينه وبين الشخوص المذكور من المناسبة لتربية هذا المعنى وأفئدتهم هواء

خالية من العقل والفهم لفرط الحيرة والدهش كأنها نفس الهواء الخالي من كل شاغل ومنه قيل للجبان والأحمق قلبه هواء أي لا قوة ولا رأى فيه واعتبار خلوها عن كل خير لا يناسب المقام وهو إما حال عاملها لا يرتد مفيدة لكون شخوص أبصارهم وعدم ارتداد طرفهم بلا فهم ولا اختيار أو جملة مستقلة وأنذر الناس خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إعلامه أن تأخيرهم لماذا وأمر له بإنذارهم وتخويفهم منه والمراد بالناس الكفار المعبر عنهم بالظالمين كما يقتضيه ظاهر إتيان العذاب والعدول إليه من الإضمار للإشعار بأن المراد بالإنذار هو الزجر عما هم عليه من الظلم شفقة عليهم لا التخويف للإزعاج والإيذاء فالمناسب عدم ذكرهم بعنوان الظلم أو الناس جميعا فإن الإنذار عام للفريقين كقوله تعالى إنما تنذر من اتبع الذكر والإتيان يعمهما من حيث كونهما في الموقف وإن كان لحوقه بالكفار خاصة أي أنذرهم وخوفهم يوم يأتيهم العذاب المعهود وهو اليوم الذي وصف بما لا يوصف من الأوصاف الهائلة أعنى يوم القيامة وقيل هو يوم موتهم معذبين بالسكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى أو يوم هلاكهم بالعذاب العاجل وبأباه القصر السابق فيقول الذين ظلموا أي فيقولون والعدول عنه إلى ما عليه النظم الكريم للتسجيل عليهم بالظلم وللإشعار بأن ما لقوه من الشدة إنما هو لظلمهم وإيثاره على صيغة الفاعل حسبما ذكر أولا للإيدان بأن الظلم فى الجملة كاف فى الإفضاء إلى ما ذكر من الأهوال من غير حاجة إلى الاستمرار عليه كما ينبىء عنه صيغة الفاعل وعلى تقدير كون المراد بالناس من يعم المسلمين أيضا فالمعنى الذين ظلموا منهم وهم الكفار أو يقول كل من ظلم بالشرك والتكذيب من المنذرين وغيرهم من الأمم الخالية فإن إتيان العذاب يعمهم كما يشعر بذلك وعدهم باتباع الرسل ربنا أخرنا ردنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أجل قريب إلى أمد وحد من الزمان قريب نجب دعوتك أي الدعوة إليك أي وإلى توحيدك أو دعوتك لنا على السنة الرسل ففيه إيماء إلى أنهم صدقوهم في أنهم مرسلون من عند الله تعالى وتتبع الرسل فيما جاءونا به أي تتدارك ما فرطنا فيه من إجابة الدعوة واتباع الرسل والجمع إما باعتبار اتفاق الجميع على التوحيد وكون عصيانهم للرسول صلى الله عليه وسلم عصيانا لهم جميعا وإما باعتبار أن المحكي كلام ظالمي الأمم جميعا والمقصود بيان وعد كل أمة باتباع رسولها أو لم تكونوا أقسمتم من قبل على إضمار القول معطوفا على فيقول أي فيقال لهم توبخوا

وتبكيتم ألم تؤخروا في الدنيا ولم تكونوا أقسمتم إذ ذاك بالسنتكم بطرا وأشرا وجهلا وسفها مالكم من زوال مما أنتم عليه من التمتع بالحظوظ الدنياوية أو بالسنة الحال حيث بنيتم مشيدا

وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال (45)

إبراهيم 45 وأملتم بعيدا ولم تحدثوا أنفسكم بالانتقال منها إلى هذه الحالة وفيه إشعار بامتداد زمان التأخير وبعد مداه أو مالكم من زوال من هذه الدار إلى دار أخرى للجزاء كقوله تعالى وأقسموا بالله جهدا أيمانهم لا يبعث الله من يموت وصيغة الخطاب في جواب القسم لمراعاة حال الخطاب في أقسمتم كما في قوله حلف بالله ليخرجن وهو أدخل في التوبيخ من أن يقال مالنا مراعاة لحال المقسم ذكر البهقي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله تعالى في أربع منها فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل فيجيبهم الله تعالى ذلكم بأنه إذا ادعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله تعالى الكبير ثم يقولون ربنا ابصرنا وسمعنا فأرجعنا نعمل صالحا إنا موقنون فيجيبهم الله تعالى فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا الآية ثم يقولون ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتبعب الرسل فيجيبهم الله تعالى أو لم تكونوا أقسمتم الآية ثم يقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل فيجيبهم الله تعالى أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين فيجيبهم الله تعالى اخسئوا فيها ولا تكلمون فلا يتكلمون بعدها أبدا إن هو إلا زفير وشهيق وعند ذلك انقطع رجاءهم وأقبل بعضهم ينبج في وجه بعض وأطبقت عليهم جهنم اللهم إنا بك نعوذ وبكنفك نلوذ عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك وسكنتم من السكنى بمعنى التبوؤ والإيطان وإنما استعمل بكلمة في حيث قيل في مساكن الذين ظلموا أنفسهم جريا على الأصل لأنه منقول عن مطلق السكون الذي حقه التعدية بها أو من السكون واللبث أي

قررتم في مساكنهم مطمئنين سائرين سيرتهم في الظلم والكفر والمعاصي غير محدثين لأنفسكم بما لقوا بسبب ما أجتروا من الموبقات وفي إيقاع الظلم على أنفسهم بعد إطلاقه فيما سلف إيدانا بأن عائلة الظلم آتلة إلى صاحبه والمراد بهم إما جميع من تقدم من الأمم المهلكة على تقدير اختصاص الاستمهال والخطاب السابق بالمنذرين وإما أوائلهم من قوم نوح وهود على تقدير عمومها لكل وهذا الخطاب وما يتلوه باعتبار حال أواخرهم وتبين لكم بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار كيف فعلنا بهم من الإهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد وكيف منصوب بما بعده من الفعل وليس الجملة فاعلا لتبين كما قاله بعض الكوفيين بل فاعله ما دلت هي عليه دلالة واضحة أي فعلنا العجيب بهم وفيه من المبالغة ما ليس في أن يقال ما فعلنا بهم كما مر في قوله تعالى ليسجنه وقرىء وبين وضرنا لكم الأمثال أي بينا لكم في القرآن العظيم على تقدير اختصاص الخطاب بالمنذرين أو على السنة الأنبياء عليهم السلام على تقدير عمومهم لجميع الظالمين صفات ما فعلوا وما فعل بهم من الأمور التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم لتعتبروا بها وتقيسوا أعمالكم على أعمالهم ومآلكم على مآلهم وتنتقلوا من حلول

وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال (46)

إبراهيم 46 العذاب العاجل إلى حلول العذاب الآجل فترددوا عما كنتم فيه من الكفر والمعاصي أو بينا لكم أنكم مثلهم في الكفر واستحقاق العذاب والجمل الثلاث في موقع الحال من ضمير أقسمتم أي أقسمتم بالخلود والحال أنكم سكنتم في مساكن المهلكين بظلمهم وتبين لك فعلنا العجيب بهم ونبهاكم على جلية الحال بضرب الأمثال وقوله عز وجل وقد مكروا مكروهم حال من الضمير الأول في فعلنا بهم أو من الثاني أو منهما جميعا وإنما قدم عليه قوله تعالى وضرنا لكم الأمثال لشدة ارتباطه بما قبله أي فعلنا بهم ما فعلنا والحال أنهم قد مكروا في إبطال الحق وتقرير الباطل مكروهم العظيم الذي استفرغوا في عمله المجهود وجاوزوا

فيه كل حد معهود بحيث لا يقدر عليه غيرهم فالمراد بيان تناهيهم في استحقاق ما فعل بهم أو قد مكروا مكْرهم المذكور في ترتيب مبادئ البقاء ومدافعة أسباب الزوال فالمقصود إظهار عجزهم واضمحلال قدرتهم وحقارتها عند قدرة الله تعالى وعند الله مكْرهم أي جزاء مكْرهم الذي فعلوه على أن المكْر مضاف إلى فاعله أو أخذه تعالى بهم على أنه مضاف إلى مفعوله وتسميته مكرا لكونه بمقابلة مكْرهم وجودا وذكرا أو لكونه في صورة المكْر في الإتيان من حيث لا يشعرون وعلى التقديرين فالمراد به ما أفاده قوله عز وجل كيف فعلنا بهم لا أنه وعيد مستأنف والجملة حال من الضمير في مكروا أي مكروا مكْرهم وعند الله جزؤه أو ما هو أعظم منه والمقصود بيان فساد رأيهم حيث باشروا فعلا مع تحقق ما يوجب تركه وإن كان مكْرهم في العظم والشدة لتزول منه الجبال أي وإن كان مكْرهم في غاية المتانة والشدة وعبر عن ذلك بكونه مسوى ومعدا لإزالة الجبال عن مقارها لكونه مثلا في ذلك والجملة المصدرة بأن الوصلية معطوفة على جملة مقدره والمعنى وعند الله جزاء مكْرهم أو المكْر الذي يحيق بهم إن لم يكن مكْرهم لتزول منه الجبال وإن كان الخ وقد حذف ذلك حذفاً مطرداً لدلالة المذكور عليه دلالة واضحة فإن الشيء إذا تحقق عند وجود المانع القوى فلأن يتحقق عند عدمه أولى وعلى هذه النكتة يدور ما في إن الوصلية من التأكيد المعنوي والجوب محذوف دل عليه ما سبق وهو قوله تعالى وعند الله مكْرهم وقيل إن نافية واللام لتأكيدها كما في قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وينصره وقراءة ابن مسعود رضي الله عنه وما كان مكْرهم فالجملة حينئذ حال من الضمير في مكروا لا من قوله تعالى وعند الله مكْرهم أي مكروا مكْرهم والحال أن مكْرهم لم يكن لتزول منه الجبال على أنها عبارة عن آيات الله تعالى وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على أيدي الرسل السالفة عليهم السلام التي هي بمنزلة الجبال الراسيات في الرسوخ وأما كونها عبارة عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأمر القرآن العظيم كما قيل فلا مجال له إذا لماكرون هم المهلكون لا الساكنون في مساكنهم من المخاطبين وإن خص الخطاب بالمنذرين وقيل هي مخففة من إن والمعنى إنه كان مكْرهم ليزول منه ما هو كالجبال في الثبات مما ذكر من الآيات والشرائع والمعجزات والجملة كما هي حال من ضمير مكروا أي مكروا مكْرهم المعهود وإن الشأن كان مكْرهم لإزالة الآيات والشرائع

على معنى أنه لم يكن يصح أن يكون منهم مكر كذلك وكان شأن الآيات والشرائع مانعا من مباشرة المكر

فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام (47)

إبراهيم 47 لإزالته وقد قرأ الكسائي لتزول بفتح اللام على أنها الفارقة والمعنى تعظيم مكرهم فالجملة حال من قوله تعالى وعند الله مكرهم أي عنده تعالى جزاء مكرهم أو المكر بهم والحال أن مكرهم بحيث تزول منه الجبال أي في غاية الشدة وقرىء بالفتح والنصب على لغة من بفتح لام كي وقرىء وإن كان مكرهم هذا هو الذي يقتضيه النظم الكريم وينساق إليه الطبع السليم وقد قيل إن الضمير في مكروا للمنذرين والمراد بمكرهم ما أفاده قوله عز وجل وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك الآية وغيره من أنواع مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ولعل الوجه حينئذ أن يكون قوله تعالى وقد مكروا الخ حالا من القول المقدر أي فيقال لهم ما يقال والحال أنهم مع ما فعلوا من الإقسام المذكور مع ما ينافيه من السكون في مساكن المهلكين وتبين أحوالهم وضرب الأمثال قد مكروا مكرهم العظيم أي لم يكن الصادر عنهم مجرد الإقسام الذي وبخوا به بل اجترءوا على مثل هذه العظيمة وقوله تعالى وعند الله تعالى مكرهم حال من ضمير مكروا حسبما ذكرنا من قبل وقوله تعالى وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال مسوق لبيان عدم تفاوت الحال في تحقيق الجزاء بين كون مكرهم قويا أو ضعيفا كما مر هناك وعلى تقدير كون إن نافية فهو حال من ضمير مكروا والجبال عبارة عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم أي وقد مكروا والحال أن مكرهم ما كان لتزول منه هاتيك الشرائع والآيات التي هي في القوة كالجبال وعلى تقدير كونها مخففة من الثقيلة واللام مكسورة يكون حالا منه أيضا على معنى أن ذلك المكر العظيم منهم كان لهذا الغرض على معنى أنه لم يكن يصح أن يكون منهم مكر كذلك لما أن شأن الشرائع أعظم من أن يمكر بها ماكر وعلى تقدير فتح اللام فهو حال من قوله تعالى وعند الله مكرهم كما ذكرنا من قبل فليتأمل فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله لم يرد به والله سبحانه أعلم ما وعده بقوله

تعالى إنا لننصر رسلنا الآية وقوله كتب الله لأغلبن أنا ورسلي كما قيل فإنه لا اختصاص له بالتعذيب لا سيما الأخرى بل ما سلف أنفا من وعده بتعذيب الظالمين بقوله تعالى إنما يؤخرهم الآية كما يفصح عنه الفاء الداخلة على النهي الذي يريد به تشبته عليه الصلاة والسلام على ما كان عليه من الثقة بالله تعالى والتيقن بإنجاز وعده المذكور المقرون بالامر بإنذارهم يوم إتيان العذاب المتضمن لذكر تعذيب الأمم السالفة بسبب كفرهم وعصيانهم رسلهم بعد ما وعدهم بذلك كما فصلت قصة كل منهم في القرآن العظيم فكأنه قيل وإذ قد وعدناك بعذاب الظالمين يوم القيامة وأخبرناك بما يلقيه من الشدائد وبما يسألونه من الرد إلى الدنيا وبما أجبناهم به وقرعناهم بعدم تأملهم في أحوال من سبقهم من الأمم الذين أهلكناهم بظلمهم بعد ما وعدنا رسلهم بإهلاكهم قدم على ما كنت عليه من اليقين بعدم إخلافنا رسلنا وعدنا إن اله عزيز غالب لا يماكر وقادر ذو انتقام لأولياءه من أعدائه والجملة تعليل للنهي المذكور وتذييل له وحيث كان الوعد عبارة عما ذكرنا من تعذيبهم خاصة لم يذيل بأن يقال إن الله لا يخلف الميعاد بل تعرض لوصف العزة والانتقام المشعرين بذلك والمراد بالانتقام ما أشير إليه بالفعل وعبر عنه بالمكر

يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار)
(48) وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد (49)

إبراهيم 48 49 يوم تبدل الأرض غير الأرض ظرف لمضمرة مستأنفة ينسحب عليه النهي المذكور أي ينجزه يوم الخ أو معطوف عليه نحو وارتقب يوم تبدل الأرض غير الأرض أو لانتقام وهو يوم يأتيهم العذاب بعينه ولكن له أحوال جملة يذكر كل مرة بعنوان مخصوص والتقيد به مع عموم انتقامه للأوقات كلها للإفصاح عما هو المقصود من تعذيب الكفرة المؤخر إلى ذلك اليوم بموجب الحكمة الداعية إليه وقيل بدل من يوم يأتيهم العذاب أو نصب باذكر أو بإضمار لا يخلف وعده يوم تبدل الخ وفيه أيضا ما في الوجه الثالث من الحاجة إلى الاعتذار ولا يجوز أن ينتصب بقوله مخلف وعده لأن ما قبل إن لا يعمل فيما بعده وقيل هو غير مانع لان قوله تعالى إن

الله عزيز ذو انتقام جملة اعتراضية فلا يبالي بها فاصلا واعلم أن التبدل قد يكون في الذات كما في بدلت الدراهم دنانير وعليه قوله عز وجل بدلناهم جلودا غيرها وقد يكون في الصفات كما في قولك بدلت الحلقة خاتما إذا غيرت شكلها ومنه قوله تعالى يبدل الله سيئاتهم حسنات على بعض الأقوال والآية الكريمة ليست بنص في أحد الوجهين فعن علي رضي الله عنه تبدل أرضا من فضة وسموات من ذهب وعن ابن مسعود رضي الله عنه تبدل الأرض بارض كالفضة بيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل عليها خطيئة وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي تلك الأرض وإنما تغير صفاتها وأنشد ... وما الناس بالناس الذين عهدتهم ... وما الدار بالدار التي ... كنت تعلم

وتبدل السموات بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وإنشاقها وكونها أبوابا ويبدل عليه ما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال تبدل الأرض غير الأرض فتبسط وتمدمد الأديم العكاظي لا ترى فيها عوجا ولا أمثا والسموات أي وتبدل السموات غير السموات حسبما مر من التفصيل وتقديم تبديل الأرض لقربها منا ولكون تبديلها أعظم أثرا بالنسبة إلينا وبرزوا أي الخلائق أو الظالمون المدلول عليهم بمعونة السباق والمراد بروزهم من أجداتهم التي في بطون الأرض أو ظهورهم بأعمالهم التي كانوا يعملونها سرا ويزعمون أنها لا تظهر أو يعملون عمل من يزعم ذلك ولعل إسناد البروز إليهم مع أنه لأعمالهم للإيدان بتشكلهم بأشكال تناسبها وهو معطوف على تبدل والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على تحقق وقوعه أو حال من الأرض بتقدير قد والرابط بينها وبين صاحبها الواو لله الواحد القهار للحساب والجزاء والتعرض للوصفين لتحويل الخطب وتربية المهابة وإظهار بطلان الشرك وتحقيق الانتقام في ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفا له وتحقيق إثبات العذاب الموعود على تقدير كونه بدلا من يوم يأتيهم العذاب فإن الأمر إذا كان لواحد غلاب لا يعار وقادر لا يضار ولا يغار كان في غاية ما يكون من الشدة والصعوبة وترى المجرمين عطف على برزوا والعدول إلى صيغة المضارع لاستحضار الصورة أو للدلالة على الاستمرار وأما لبروز فهو دفعي

سراييلهم من قطران وتغشى وجوههم النار (50) ليجزي الله كل

نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب (51)

إبراهيم 50 51 لا استمرار فيه وعلى تقدير حالية برزوا فهو معطوف على تبدل ويجوز عطفه على عامل الظرف المقدم على تقدير كونه ينجزه يومئذ يوم إذ برزوا له عز وجل أو يوم إذ تبدل الأرض أو يوم إذ ينجز وعده مقرنين قرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم في الجرائم والجرائر أو قرنوا مع الشياطين الذين أغوهم أو قرنوا مع ما اقترفوا من العقائد الزائغة والملكات الردية والأعمال السيئة غب تصور كل منها وتشكلهما بما يناسبها من الصور الموحشة والأشكال الهائلة أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم وهو حال من المجرمين في الأصفاد في القيود أو الأغلال وهو إما متعلق بقوله تعالى مقرنين أو حال من ضميره أي مصفدين سرايلهم أي قمصانهم من قطران جملة من مبتدأ وخبر محلها النصب على الحالية من المجرمين أو من ضميرهم في مقرنين رابطتها الضمير فقط كما في كلمته فوه إلي في أو مستأنفة والقطران ما يتحلب من الإهبل فيطبخ فتهاأ به الإبل الجربى فيحرق الجرب بما فيه من الحدة الشديدة وقد تصل حرارته إلي الجوف وهو اسود منتن يسرع فيه اشتعال النار يطللى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسراويل ليجتمع عليهم الألوان الأربعة من العذاب لذعه وحرقته وإسراع النار في جلودهم واللون الموحش والتتن على أن التفاوت بينه وبين ما نشاهده وبين النارين لا يكاد يقادر قدره فكأن ما نشاهده منهما أسماء مسمياتها في الآخرة فبكرمه العميم نعوذ وبكنفه الواسع نلوذ ويحتمل أن يكون ذلك تمثيلا لما يحيط بجوهر النفس من الملكات الردية والهئات الوحشية فتجلب إليها الآلام والغموم بل وأن يكون القطران المذكور عين مالا بسوه في هذه النشأة وجعلوه شعارا لهم من العقائد الباطلة والأعمال السيئة المستجلبة لفنون العذاب قد تجسدت في النشأة الآخرة بتلك الصورة المستتعبة لاشتداد العذاب عصمنا الله سبحانه عن ذلك بمنه ولطفه وقرىء من قطران أي نحاس مذاب متناه حره وتغشى وجوههم النار أي تعلوها وتحيط بها النار التي تمس جسدهم المسربل بالقطران وتخصيص الوجوه بالحكم المذكور مع عمومه لسائر أعضائهم لكونها أعز الأعضاء الظاهرة وأشرفها كقوله تعالى أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب الخ ولكونها مجمع

المشاعر والحواس التي خلقت لإدراك الحق وقد أعرضوا عنه ولم يستعملوها في تدبيره كما أن الفؤاد أشرف الأعضاء الباطنة ومحل المعرفة وقد ملئوها بالجهالات لذلك قيل تطلع على الافئدة أو لخلوها عن القطران المغنى عن ذكر غشيان النار لها ولعل تخليتها عنه ليتعارفوا عند انكشاف اللهب أحيانا ويتضاعف عذابهم بالخزي على رءوس الأشهاد وقرىء تغشى أي تتغشى بحذف إحدى التائين والجملة نصب على الحالية لا على أن الواو الحالية لانه مضارع مثبت بل على أنها معطوفة على الحال قاله أبو البقاء ليجزى الله متعلق بمضمر أي يفعل بهم ذلك ليجزى كل نفس مجرمة ما كسبت من أبواع الكفر والمعاصي جزاء موافقا لعملها وفيه إبدان بأن جزاءهم مناسب لأعمالهم أو بقوله برزوا

هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب (52)

إبراهيم 52 على تقدير كونه معطوفا على تبدل والضمير للخلق وقوله وترى المجرمين الخ اعتراض بين المتعلق والمتعلق به أي برزوا للحساب ليجزى الله كل نفس مطيعة أو عاصية ما كسبت من خير أو شر وقد اكتفى بذكر عقاب العصاة تعويلا على شهادة الحال لا سيما مع ملاحظة سبق الرحمة الواسعة إن الله سريع الحساب إذ لا يشغله شأن عن شأن فيتمه في أعجل ما يكون من الزمان فيوفى الجزاء بحسبه أو سريع المجيء يأتي عن قريب أو سريع الانتقام كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى وهو سريع الحساب هذا أي ما ذكر من قوله سبحانه ولا تحسبن الله غافلا إلى سريع الحساب بلاغ كفاية في العظة والتذكير من غير حاجة إلى ما انطوى عليه السورة الكريمة أو كل القرآن المجيد من فنون العظات والقوارع للناس للكفار خاصة على تقدير اختصاص الإنذار بهم في قوله تعالى وأنذر الناس أو لهم وللمؤمنين كافة على تقدير شموله لهم أيضا وإن كان ما شرح مختصا بالظالمين ولينذروا به عطف على مقدر واللام متعلقة بالبلاغ أي كفاية لهم في ان ينصحوا وينذروا به أو هذا بلاغ لهم ليفهموه ولينذروا به على أن البلاغ بمعنى الإبلاغ كما في قوله تعالى ما على

الرسول إلا البلاغ أو متعلقة بمحذوف أي ولينذروا به أنزل أو تلى
وقرىء لينذروا به من نذر الشيء إذا علمه وحذروه واستعد له
وليعلّموا بالتأمل فيما فيه من الدلائل الواضحة التي هي إهلاك
الأمم وإسكان آخرين مساكنهم وغيرهما مما سبق ولحق أنما هو
إله واحد لا شريك له وتقديم الإنذار لأنه الداعي إلى التأمل المؤدى
إلى ما هو غاية له من العلم المذكور والتذكير في قوله تعالى
وليذكر أولو الألباب أي ليتذكروا ما كانوا يعملونه من قبل من
التوحيد وغيره من شئون الله عز وجل ومعاملته مع عبادة فيرتدعوا
عما يردّهم من الصفات التي ينصف بها الكفار ويتدعوا بما
يحظيهم من العقائد الحقّة والأعمال الصالحة وفي تخصيص التذکر
بأولى الألباب تلويح باختصاص العلم بالكفار ودلالة على أن المشار
إليه بهذا ما ذكرنا من القوارع المسوقة لشأنهم لا كل السورة
المشتملة عليها وعلى ما سبق للمؤمنين أيضا فإن فيه ما يفيدهم
فائدة جديدة وحيث كان ما يفيد البلاغ من التوحيد وما يترتب عليه
من الأحكام بالنسبة إلى الكفرة أمرا حادثا وبالنسبة إلى أولى
الألباب الثبات على ذلك حسبما أشير إليه عبر عن الأول بالعلم
وعن الثاني بالتذكير وروعى ترتيب الوجود مع ما فيه من الختم
بالحسنى والله سبحانه أعلم ختم الله لنا بالسعادة والحسنى ورزقنا
الفوز بمرضاته في الأولى والعقبى آمين عن النبي صلى الله عليه
وسلم من قرأ سورة إبراهيم أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد
من عبد الأصنام ومن لم يعبده والحمد لله وحده

الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين (1) ربما يود الذين كفروا لو
كانوا مسلمين (2)

سورة الحجر مكيه آياتها تسع وتسعون سورة الحجر مكية إلا آية
87 فمدنية وأياها تسع وتسعون
بسم الله الرحمن الرحيم
الر قد مر الكلام فيه وفي محله في مطلع سورة الرعد وأخواتها
تلك إشارة إليه أي تلك السورة العظيمة الشأن آيات الكتاب
الكامل المعهود الغني عن الوصف به المشهور بذلك من بين الكتب
الحقيق باختصاص اسم الكتاب به على الإطلاق أي بعض منه

مترجم مستقل باسم خاص فهو عبارة عن جميع القرآن أو عن
الجميع المنزل إذ ذاك إذ هو المتسارع إلى الفهم حينئذ عند الإطلاق
وعليه يترتب فائدة وصف الآيات بنعت ما أضيفت إليه من نعوت
الكمال لا على جعله عبارة عن السورة إذ هي في الاتصاف بذلك
ليست بتلك المرتبة من الشهرة حتى يستغنى عن التصريح بالوصف
على أنها عبارة عن جميع آياتها فلا بد من جعل تلك إشارة إلى كل
واحدة منها وفيه من التكليف ما لا يخفى كما ذكر في سورة الرعد
وقرآن أي قرآن عظيم الشأن مبين مظهر لما في تضاعيفه من
الحكم والأحكام أو لسبيل الرشيد والغي أو فارق بين الحق والباطل
والحلال والحرام ولقد فخم شأنه العظيم مع ما جمع فيه من
وصفي الكتابية والقرآنية على الطريقتين إحداهما اشتماله على
صفات كمال جنس الكتب الإلهية فكأنه كلها والثانية طريقة كونه
ممتازا عن غيره نسيج وحده بديعا في بابه خارجا عن دائرة البيان
وأخرت الطريقة الثانية لما أن الإشارة إلى امتيازه عن سائر الكتب
بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيره من الكتب أدخل في
المُدح كيلا يتوهم من أول الأمر أن امتيازه عن غيره لاستقلاله
بأوصاف خاصة به من غير اشتماله على نعوت كمال سائر الكتب
الكريمة وهكذا الكلام في فاتحة سورة النمل خلا أنه قدم فيها
القرآن على الكتاب لما سيذكر هناك ولما بين كون السورة الكريمة
بعضا من الكتاب والقرآن لتوجيه المخاطبين إلى حسن تلقى ما
فيها من الأحكام والقصص والمواعظ شرع في بيان ما تتضمنه
ف قيل ربما بضم الراء وتخفيف الباء المفتوحة وقرىء بالتشديد
وبفتح الراء مخففا و بزيادة التاء مشددا وفيه ثماني لغات فتح الراء
وضمها مشددا ومخففا وبزيادة التاء أيضا مشددا ومخففا ورب
حرف جر لا يدخل إلا على الاسم وما كافة مصححة لدخوله على
الفعل وحقه الدخول على الماضي ودخوله على قوله تعالى بود
الذين كفروا لما ان المتربق في اخباره تعالى كالماضي المقطوع
في تحقق الوقوع فكأنه قيل ربما ود الذين كفروا والمراد كفرهم
بالكتاب والقرآن وكونه

ذرهـم يأكلوا ويتمتعوا ويلهـم الأمل فسوف يعلمون (3)

الحجر 3 من عند الله تعالى لو كانوا مسلمين منقادين لحكمه
ومذعنين لأمره وفيه إيذان بأن كفرهم إنما كان بالجحود بعد ما
علموا كونه من عند الله تعالى وتلك الودادة يوم القيامة أو عند
موتهم أو عند معاينة حالهم وحال المسلمين أو عند رؤيتهم خروج
عصاة المسلمين من النار وروى أبو موسى الأشعري رضي الله
عنه أنه قال النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم القيامة واجتمع
أهل النار في النار ومعهم من شاء تعالى من أهل القبلة قال لهم
الكفار الستم مسلمين قالوا بلى قالوا فما أغنى عنكم إسلامكم
وقد صرتم معنا إلى النار قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغضب
الله سبحانه لهم بفضل رحمته فيأمر بكل من كان من أهل القبلة
في النار فيخرجون منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين
وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لا يزال الرب
يرحم ويشفع إليه حتى يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنة
فعند ذلك يتمنون الإسلام والحق أن ذلك محمول على شدة
ودادتهم وأما نفس الودادة فليست بمختصة بوقت دون وقت بل
هي مقررة مستمرة في كل أن يمر عليهم وأن المراد بيان ذلك
على ما هو عليه من الكثرة وإنما جرى بصيغة التقليل جريا على
سنن العرب فيما يقصدون به الإفراط فيما يعكسون عنه تقول
لبعض قواد العساكر كم عندك من الفرسان فيقول رب فارس
عندي أو لا تعدم عندي فارسا وعنده مقانب جمه من الكتاب
وقصده في ذلك التمارى في تكثير فرسانه ولكنه يريد إظهار براءته
من التزيد وإبراز أنه ممن يقلل لعلو الهمة كثير ما عنده فضلا عن
تكثير القليل وهذه الطريقة إنما تسلك إذا كان الأمر من الوضوح
بحيث لا يحوم حوله شائبة ريب فيصار إليه هضما للحق فدل النظم
الكريم على ودادة الكافرين للإسلام في كل آن من آتات اليوم
الآخر وأن ذلك من الظهور بحيث لا يشتبه على أحد ولو جرى بكلام
يدل على ضده وعلى أن تلك الودادة مع كثرتها في نفسها مما
يستقل بالنسبة إلى جناب الكبرياء وهذا هو الموافق لمقام بيان
حقارة شأن الكفار وعد الإعتداد بما هم فيه من الكفر والتكذيب
كما ينطق به قوله تعالى ذرهم يأكلوا الآية أو ذهابا إلى الإشعار بأن
من شأن العاقل إذا عن له أمر يكون مظنون الحمد أو قليلا ما
يكون كذلك أن لا يفارقه ولا يقارف ضده فكيف إذا كان متيقن
الحمد كما في قولهم لعلك ستندم على ما فعلت وربما ندم الإنسان
على ما فعل فإن المقصود ليس بيان كون الندم مرجو الوجود بلا

تيقن به أو قليل الوقوع بل التنبيه على أن العاقل لا يباشر ما يرجى فيه الندم أو يقل وقوعه فيه فكيف بقطعي الوقوع وأنه يكفى قليل الندم في كونه حاجزا عن ذلك الفعل فكيف كثيرة والمقصود من سلوك هذه الطريقة إظهار الترفع والاستغناء عن التصريح بالغرض بناء على ادعاء ظهوره فالمعنى لو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة لوجب عليهم أن لا يفارقوه فكيف وهم يودونه كل آن وهذا أوفق بمقام استئزالهم عما هم عليه من الكفر وهذان طريقان متميزان ذاتا ومقاما فمن ظنهما واحدا فقد نأى عن توفية المقام حقه ذرهم دعهم عن النهي عما هم عليه بالتذكرة والنصيحة إذ لا سبيل إلى إراعاتهم عن ذلك وبالغ في تخليتهم وشأنهم بل مرهم بتعاطى ما يتعاطونه يأكلوا ويتمتعوا بدنياهم وفي تقديم الأكل إيذان بأن تمتعهم إنما هو من قبيل تمتع البهائم بالماكل